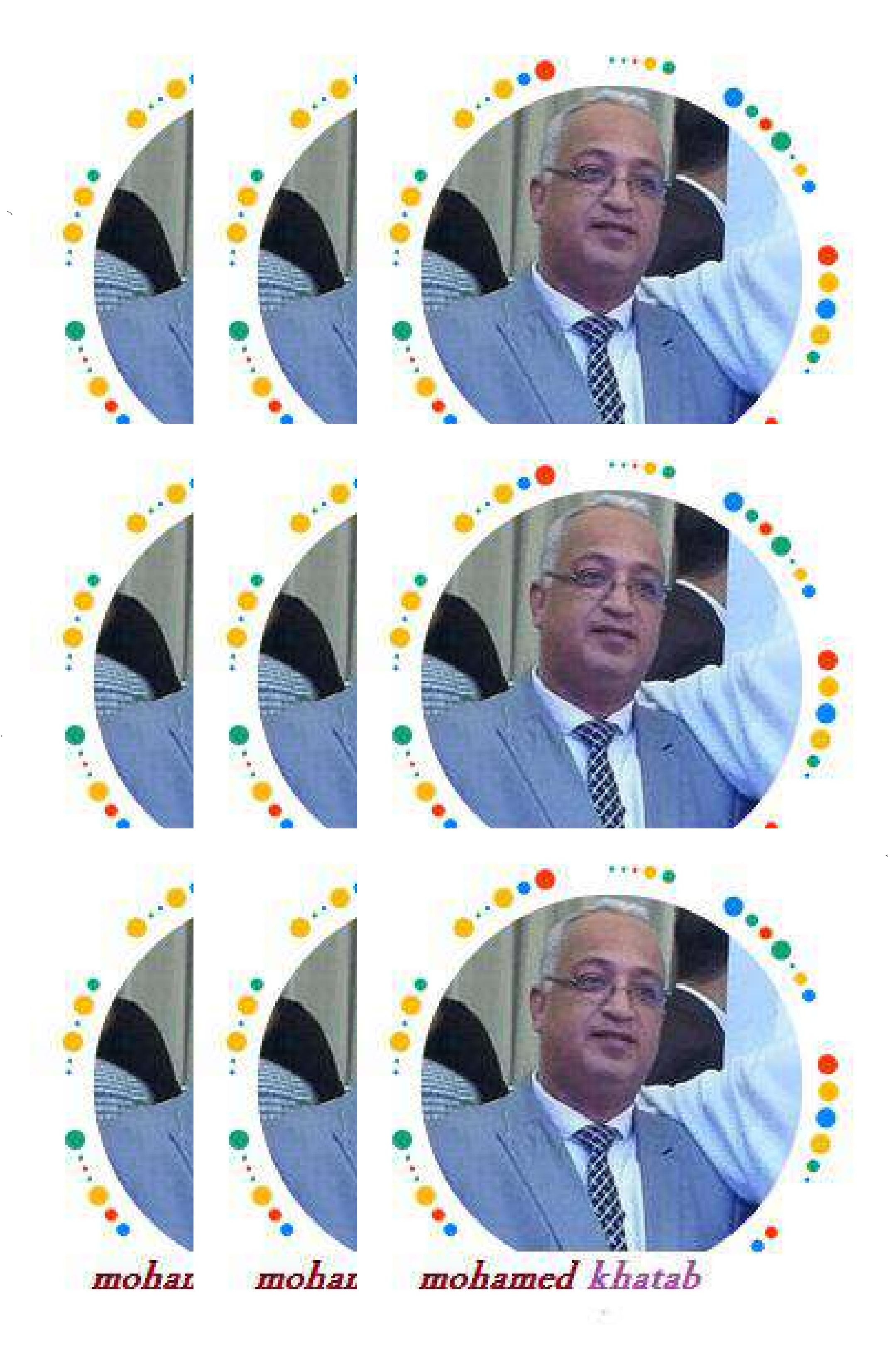
جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الإسلام
و
قضايا الحوار

الأستاذ الدكتور
محمود حمدى زقزوق

ترجمة
أ.د. مصطفى ماهر

القاهرة
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م


mohamed khatab

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (الحجرات : ١٣)

﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ (الممتحنة : ٨)

﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوْا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ (آل عمران : ٦٤)

﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾ (العنكبوت : ٤٦)

﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (البقرة : ٦٢)



بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمـــة

فى غمرة الاختلاف الواضح فى الآراء بين المتحاورين حـــول الإســلام كثيرًا ما يغفل هؤلاء أو أولئك من أطراف الحوار عن أن الإسلام ــ شأنه شــأن كل دين آخر ــ يتطلب منا أولاً أن ندرسه دراسة واعية وعميقة . فإذا ما فهمناه على الوجه الصحيح ــ وهذا ما سنحاول توضيحه فى الصفحات التالية ــ كــان لنا ذلك بمثابة دليل إلى الحوار المثمر ، وإلى التعرف على الشــعوب الأخــرى واحترام تقاليدها الإيجابية ، وإلى الوقوف منها فى نهاية المطاف موقفا متســامحا على نحو فعال ، وإلى الالتزام حيالها بسلوك عادل كما يأمرنا القرآن الكريم . ومن شأن ذلك أن يمكننا من التعايش الإيجابى مع الآخرين فى ظل حياة حرة كريمة .

والألفية الثالثة التى استقبلناها بآمال عريضة تفرض علينا على نحو خاص تحديًا يتمثل فى ضرورة اغتنام وتدبر الفرص والإمكانات المتاحة أمامنا . فنحــن إذا لم نتدبر أصول ثقافتنا ولم نتدبر بالتالى محاولة العودة إلى مد جذورنا فيــها ، فإن ذلك سينعكس على نحو سلبى على فهمنا لخصوصيات الثقافــات الأخــرى وعلى مدى تقبلنا لها ، إذ أنه لا يمكن أن ندرك موقف الآخر على نحــو ســليم إلا إذا كنا ، ونحن نتأمله ، على بيّنة من موقفنا نحن ، وعلى اقتناع به ، الأمــر الذى يجعل هناك مجالاً للأمل فى تعاون خلاق مع الآخرين لبذل أقصى الجــهد من أجل إيجاد حلول للصراعات العديدة فى عالمنا المعاصر أو على الأقل مــن أجل الحد من هذه الصراعات (١) .

---

(١) انظر مقدمة كتابنا : Einfuerung in den Islam , p . 7

وقد كان المأمول أن تكون الألفية الثالثة بداية مرحلة جديدة فـــى تــاريخ البشرية تتجه فيها نحو السلام والاستقرار والتعاون من أجل التنمية على جميـــع المستويات لكل الأمم والشعوب . ومن هنا اعتمدت الأمم المتحدة عـــام ٢٠٠١م عاماً للحوار بين الحضارات .

ولكن هذا الأمل قد تبدد بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر فى العام ذاتـه . واشتدت وطأة الإرهاب واشتدت المقاومة للإرهاب . وهذه المقاومة تعــد أمــرا طبيعياً لا جدال فيه . ولكن المفارقة الغريبة أن مقاومة الإرهاب قـــد أصبحــت ستارا تبرر به بعض القوى فى عالمنا ممارساتها الظالمة التى لا تفـــرق بيــن الإرهاب والحقوق المشروعة للشعوب فــــى الدفـــاع عــن حريتــها وكرامتــها واستقلالها .

وقد انعكس ذلك بصفة خاصة على الإسلام والمسلمين بشكل لم يســبق لــه مثيل فى التاريخ . فقد أصبح ينظر إلى الإسلام ــ بعد أحداث سبتمبر المشــئومة فى الولايات المتحدة الأمريكية ــ على أنه دين يشجع الإرهاب والعدوان علـــى الآخرين ، وأصبح المسلمون متهمين بالإرهاب والدموية لمجرد أنه قد قيـــل إن المتهمين فى أحداث سبتمبر مسلمون . وهكذا تداعـــت الأمــم علــى الإســلام والمسلمين كما تداعت الأكلة إلى قصعتها ــ كما تنبأ بذلك الرسول عليه الصـــلاة والسلام .

ومن المعروف أن الإسلام دين قد مضى على ظهوره أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان ، وأنه كان الدافع للمسلمين لبنـــاء حضـــارة مزدهـــرة قدمــت للإنسانية على مدى قرون طويلة عطاء حضارياً ثرياً ، وكانت أيضاً من أقـــوى الدوافع للنهضة التى شهدتها أوروبا والتى مهدت السبيل للحضـــارة الحديثــة .

وعلى الرغم من ذلك فإن الأمر يبدو فى الظروف الراهنة كما لو أن العالم قد استيقظ فجأة ليرى أمامه دينا جديداً غريبا يسعى لإرهاب العالم . وهذا كله ناتج فى المقام الأول عن الجهل بالإسلام وتعاليمه ومبادئه وتاريخه وحضارته .

ومن هنا فإن الوضع الراهن يفرض على المسلمين أن يبذلوا جهوداً جبارة لتوضيح الصورة الحقيقية للإسلام والمسلمين فى كل مكان فى العالم وبكل الوسائل المتاحة لتصحيح الأفكار الخاطئة والمفاهيم المغلوطة والأحكام المسبقة فى أذهان الآخرين .

ولا يزال الحوار مع الآخرين طريقاً مفتوحاً أمام المسلمين للتعريف بالإسلام ـ الذى هو دين السلام ـ وشرح قضاياه ، وإبراز الوجه الحضارى لهذا الدين الذى لا يعرف الإرهاب أو التطرف . فالإرهاب ظاهرة عالمية موجودة فى تاريخ كل الحضارات والأديان ، وليس صناعة إسلامية . والمسلمون أنفسهم ضحايا للإرهاب ، ولن يستطيع العالم القضاء على الإرهاب إلا بالتعاون مع المسلمين من أجل أمن وسلام واستقرار هذا العالم الذى هو عالمنا جميعاً .

ومن أجل المشاركة فى الحوار الدائر بين الأديان والحضارات يأتى هذا الكتاب للإسهام بجهد متواضع فى توضيح صورة الإسلام والمسلمين من خلال الإقناع الهادئ والعرض الموضوعى لتعاليم الإسلام المفترى عليه .

والفصول التى يتضمنها هذا الكتاب سبق تقديمها إلى العديد من المؤتمرات والندوات فى عدد من البلاد الأوروبية وتم نشرها باللغة الألمانية ، كما نشر بعضها بالإنجليزية فى بعض الكتب والدوريات الأوروبية ، ونشرت مع بحوث أخرى عام ٢٠٠٠م فى كتاب باللغة الألمانية بعنوان (مدخل إلى الإسلام) من نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

وقد قام الأستاذ الدكتور مصطفى ماهر مشكورا بترجمة هذا الكتاب ترجمة دقيقة ــ كالعهد به دائماً ــ إلى اللغة العربية [1]. ونظراً لأن الكتاب كان مقصودا به فى الأصل مخاطبة القارئ الأوروبى فقد وجدنا أن هناك حاجة لإعادة صياغة بعض الأفكار الواردة فى بعض الفصول من أجل مزيد من الإيضاح أو اختصار بعض التفاصيل التى ليست لها أهمية بالنسبة للقارئ العربى .

ونود أن نشير فى هذا الصدد إلى أن الفصول التى يتضمنها هذا الكتاب قد كتبت فى مناسبات مختلفة وعلى فترات متباعدة . ومن هنا فإن القارئ الكريم سيجد فيها بعض الأفكار التى تكررت فى بعض الفصول . ولكننا لم نرد أن نحذف منها شيئاً لارتباط كل فصل بالمناسبة التى أعد البحث من أجلها .

ونأمل أن يكون فى نشر هذه الفصول بالعربية فائدة تثرى النقاش وتسهم بجهد متواضع فى تنشيط الحوار الدائر ين الأديان والحضارات من أجل تحقيق الأهداف المرجوة نحو مزيد من التفاهم والتعاون بين الحضارات والأديان لما فيه الخير ــ كل الخير ــ للبشرية جمعاء .

القاهرة فى : رمضان ١٤٢٣هـ

نوفمبر ٢٠٠٢م

---

(١) الكتاب الذى نقدمه اليوم إلى القارئ الكريم يمثل نصف الكتاب المشار إليه تقريباً : وسنوافى للقارئ فى وقت قريب إن شاء الله بكتاب آخر يشتمل على بقية الموضوعات الواردة فى النص الألمانى .

الفصل الأول

العلاقات الثقافية

بين العالم الإسلامى والغرب

١ ـ تمهيـــــد

٢ ـ العلاقات الثقافية بين العالم الإسلامى والغرب :

أ ـ المرحلة الأولى

ب ـ المرحلة الثانية

جـ ـ المرحلة الثالثة

٣ ـ إمكانات الحوار وآفاق التعاون



العلاقات الثقافية

بين العالم الإسلامى والغرب *

١ ــ تمهيد :

نحن جميعاً ندرك أن ما يشهده عالم اليوم من مشكلات سياسية واقتصادية وبيئية وغيرها من مشكلات تتطلب البحث عن حلول ناجعة لها يدفعنا دفعاً إلى ضرورة التحاور العميق بين العالم الإسلامى والغرب ، والمقصود هنا ليس مجرد التحاور بين بعض الأفراد من أصحاب النيات الطيبة من الجانبين ، وإنما المقصود هو التعاون بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، وبخاصة على المستوى العلمى من أجل خير هذا العالم واستقراره . ومن الواضح أن وحدة هذا العالم وفرصته فى الحياة ومدى قوة ترابطه تتأثر سلباً أو إيجاباً بمقدار قوة أو ضعف أى حلقة من حلقات السلسلة التى تجمع أمم العالم المختلفة .

فما الذى ينبغى عمله فى هذا الصدد ؟

---

* تم إلقاء أصل هذا البحث بالألمانية فى ندوة تأسيس " الجمعية العلمية للبحوث الإسلامية " التى عقدت فى جامعة بامبرج بألمانيا فى الفترة من ٧ إلى ٩ سبتمبر ١٩٩٠م ، وتم نشره فى ألمانيا فى الكتاب التذكارى للأستاذ الدكتور A . Falaturi الذى صدر تحت عنوان :

Gottes ist der Orient, Gottes ist der Okzident, Koeln- Wien 1991 .

كما نشر بالإنجليزية فى مجلة Islam and Christian Muslim Relations التى تصدر فى برمنجهام فى بريطانيا (يونية ١٩٩١م) .

إننا إذا تأملنا مسار الحوار الإسلامى الغربى الذى تم حتى اليوم نكتشف أنه كانت له كثير من خصائص " المونولوج " أو الحوار من طرف واحد ، وقد ترك ذلك على الجانبين انطباعاً بأن إمكانية الحوار الحقيقية غير قائمة . فكل جانب لم يستطع أن يفهم الجانب الآخر . فهل وصل الأمر إلى حد اليأس وفقدان الأمل فى قيام حوار مثمر بين الجانبين ؟

إننا لا نريد أن نغرق فى التشاؤم ونقطع الأمل فى إمكان التعاون البناء بين الجانبين . صحيح أنه لا يمكن تجاهل الحقيقة المتمثلة فى أن الحوار بين الجانبين قد نشأ أصلاً تحت ظروف مادية تتمثل فى النفط والثروة الجديدة فى جانب والتفوق التكنولوجى والقوة السياسية فى الجانب الآخر . ولكن على الرغم من ذلك فإنه من ناحية أخرى قد أصبح من الأمور التى لا تخفى على عاقل أن كلا الجانبين يشعران بأن هناك حاجة ماسة تقضى بوجوب البحث عن حلول على الصعيد الثقافى والحضارى لتكون على الأقل مكملة لتلك الحلول القائمة على أساس مادى . ولكن العقول هنا تختلف فى تقديرها للأمور ، فكل جانب يشعر أنه قد أسئ فى الغالب فهم مقاصده بدرجة تقل أو تكثر ، وهناك على الأقل شعور لدى كل جانب بأن الجهود التى تبذل فى إقامة جسور للثقة والتفاهم بين العالم الإسلامى والغرب تعد جهوداً متواضعة إلى حد بعيد ، ولا ترقى بأى حال من الأحوال إلى مستوى المسئولية المشتركة التى ينبغى أن يتحملها الجانبان .

ولعل عدم جدوى الحوار حتى الآن ترجع إلى افتقاره إلى لغة الحضارة واعتماده على اللغة العادية . ومن الواضح أن هذه ليست مساوية لتلك ، على الأقل بسبب تعقد الحضارات وتعدد جوانبها . وبصرف النظر عن ذلك كله فإن العالم الحديث المصبوغ بالصبغة التكنولوجية التى انتشرت فى كل مكان قد أدى من غير شك إلى إهمال لغة الحضارة بما له من قوة جبرية على التكيف فى اتجاه نمط واحد .

وإزاء هذه الظروف يبرز هناك بصفة متزايدة بديل للغة الحضارة يتمثل في لغة العلم ، ويأمل المرء أن يكون ذلك بديلاً حقيقياً [١] .

إن الاختلافات الحضارية في أساسها ليست اختلافات مطلقة مثلما تبدو . ومن أجل ذلك فإن محاولة التعرف على الآخرين تعرفاً حقيقياً أمر لا ينبغي التخلي عنه . وإذا كانت هناك شعوب وأمم مختلفة بين البشر فإن هذا الاختلاف بينها يدعوها إلى أن يتعرف كل منها على الآخر ، بل إن وجهة النظر الإسلامية هنا ترى أن هذا التعارف هو سبب وجودهما على هذا النحو . فالقرآن الكريم يقول في ذلك : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا** ﴾ (الحجرات : ١٣) .

وفي إطار التعارف لا توجد طبقية أو امتياز لطائفة من الطوائف على غيرها بأي شكل من الأشكال . فالهدف في النهاية أمام الجميع واحد . ويذكرنا القرآن الكريم دائماً بالمساواة بين كل بني البشر . ويرتبط ذلك ارتباطاً وثيقاً بمبدأ وحدة الألوهية . والمعيار الوحيد للتفاضل بين الناس هو التقوى والقرب من الله ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ (الحجرات : ١٣) .

ويشير القرآن في الآية التالية للآية السابقة إلى أن عقيدة التوحيد ليست مجرد كلمات تقال بالأفواه ، وإنما ينبغي أن تستقر في الأعماق بإخلاص : ﴿ **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم** ﴾ (الحجرات : ١٤) . كما أن العقيدة لا يمكن أن تفرض بالقوة ﴿ **لا إكراه في الدين** ﴾ (البقرة : ٢٥٦) . وإنما تخضع لإرادة الإنسان وحريته : ﴿ **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾ (الكهف : ٢٩) .

وعند التحليل الدقيق للمهمة الموكولة إلى كل البشر من مختلف الحضارات والمتمثلة في التعرف الحقيقي والفهم المتبادل فإننا نجد أن الفهم

---

(١) Hans Kueng . Christentum und Weltreligionen, Muenchen 1984,p.98 .

الصحيح هنا ليس فقط أمراً واجباً ، وإنما يمثل فى الوقت نفسه فرصة لا يجوز التفريط فيها ، إنه الفرصة التى تتيح للمرء نفسه المجال إلى ترسيخ جذوره ترسيخاً أكثر عمقاً عن طريق الاعتراف بواقع الاختلافات بين البشر الذين جعلهم الله شعوباً وقبائل مع بذل الجهود الصادقة لفهم الآخرين ، وهنا يرتبط الفكر بالعمل فى وحدة واحدة مثل الجانب الأعلى والجانب الأسفل من اليد الواحدة . والطريق إلى تحقيق ذلك يمكن أن يكون طويلاً ، ولكن بلوغ الهدف ليس أمراً مستحيلاً ما دام الأمل قائماً .

ويذهب أحد المسلمين الغربيين (١) وهو لى جاى إيتون Le Gai Eaton ـ وهو من العارفين بكلا العالمين الإسلامى والغربى ـ يذهب إلى القول بأن عالمنا الذى يحيط به اليأس من كل جانب فى أشد الحاجة إلى الأمل الإسلامى . فالأمة الإسلامية ـ كما يقول ـ تعد شاهدة على هذا الأمل الذى يمكن أن يؤدى إلى النجاة من الطريق المسدود الذى يسير فيه العالم الحديث ، وذلك لأن الله يمثل بالنسبة للأمة الإسلامية محور حياتها ، وليس النزعة المادية أو النزعة المغرقة فى الملذات أو التكنولوجيا (٢) .

ومن أجل ذلك يذهب هذا المسلم الغربى إلى القول بأن الإنسان الحديث إذا استطاع أن يفهم المسلم " ربما استطاع أن يبدأ فى أن يفهم نفسه قبل أن يمضى إلى تدمير ذاته " (٣) .

وهذه المهمة التى تتمثل فى ضرورة التعرف على الآخرين كما هم فى واقع الأمر وما يتصل بذلك من معرفة المرء لذاته تعد مهمة تسرى كذلك بالنسبة للمسلم .

---

(١) Le Gai Eaton, Ch . Der Islam und die Bestimmung des Menschen, Koeln 1987, p. 56 ff .

(٢) Francis Edwards in : The Times 1980

(٣) Le Gai Eaton, p. 58

٢ ـ العلاقات الثقافية بين العالم الإسلامى والغرب :

لقد سبق أن أشرنا إلى أن لغة العلم يمكن أن تخدم ـ بوصفها وسيلة التفاهم ـ فى تحقيق الحوار بين الحضارات المختلفة . ولكن هذا لا يمكن أن يتحقق إلا إذا تم التعامل بها بطريقة موضوعية ودون أن تشوبها نزعة متعالية [١] وهذا يعنى أن تتم بطريقة عقلانية ودون أن تعكر صفوها نزعات أو ميول جدلية أو تبشيرية أو أيديولوجية .

فالعلم ينبغى أن يزيل سوء الفهم ويضع مكانه فهماً صحيحاً . ولكن الفهم الصحيح للحضارات الأخرى يتطلب تدريباً تخصصياً وتكويناً ثقافياً ، وقد يتوفر التدريب التخصصى وتغيب الثقافة الضرورية أو تكون قاصرة . وهنا تنشأ حينئذ آراء لا تعدو فى الغالب أن تكون خليطاً من سوء فهم خاص وأخطاء مأخوذة عن الآخرين .

ويؤكد ذلك عالم الأديان الألمانى المعروف الأستاذ Kueng حول ما يقال عن الإسلام حيث يقول :

" إن ما يمكن أن يسمعه المرء أو يقرأه عن الإسلام فى وسائل الإعلام (الغربية) المختلفة وما يقوله المثقفون عنه أمر مزعج ومخيف . إنه مزعج بمعنى مزدوج : أولا بسبب الاعوجاج والأحكام المغلوطة التى تتكشف فى هذه الأفهام ، وثانيا بسبب الطريقة المخيفة والشريرة التى تلقى بها الأحكام عن الإسلام " [٢] .

وليس هناك شك فى أن هذا التصوير المخيف للإسلام يفتقد تماماً الشعور بالمسئولية العلمية .

---

(١) M . W . Watt : What is Islam? London 1979, p. 216

(٢) Kueng, P. 31 (Josef Van Ess) .

ومن أجل ذلك فإن روح التسامح تعد اليوم أمراً ضرورياً لا غنى عنه أكثر من أى وقت مضى . ويمكن القول بأن روح التسامح يجب أن تسبق روح الفهم الصحيح . فالتسامح ـ الذى يعد شكلاً من أشكال الهدنة العقلية إذا صح التعبير ـ يجعل من السهل الوصول إلى الفهم الصحيح للآخرين .

ولكن التسامح بين الأديان يعد من الأمور المعقدة . صحيح أن هناك الآن بصفة عامة جهوداً تذهب إلى حد بعيد فى التأكيد على الميراث الإبراهيمى المشترك لكل الديانات السماوية . ولكن الحق المطلق الذى تعلنه هذه الأديان لنفسها لا يزال يتعرض لسوء الفهم . وموقف الإسلام الواضح من هذه القضية هو أنه يجوز لأى من هذه الأديان أن تدعى لنفسها الانتساب إلى الحقيقة طالما كانت ملتزمة بالوحى الأصلى . وبناء على ذلك فإن الاعتراف بكل الرسل الذين أرسلهم الله إلى البشر منذ بدء الخليقة دون تفريق بينهم يعد جزءاً أساسياً من عقيدة المسلم لا يجوز له أن يحيد عنه . وبذلك يعد التسامح الدينى بالنسبة للمسلم مبدأ من مبادئ الإيمان .

ومن المهم فى هذا الصدد الإشارة إلى أن الدين الواحد منذ بدء الخليقة الذى هو دين الله والذى يعبر عنه القرآن الكريم بأنه الإسلام ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ (آل عمران : ١٩) . يطلب من كل الناس الشيء نفسه وهو التسليم لله أو بمعنى آخر إسلام الوجه لله .

ومن أجل ذلك يسعى المسلمون إلى تشكيل حياتهم الفردية والاجتماعية طبقاً لروح الإسلام واستجابة لما يعنيه مصطلح الإسلام من التسليم لله .

ويشير أحد علماء الإسلاميات [١] فى ألمانيا وهو الأستاذ خورى فى كتابه (التسامح فى الإسلام) إلى هذه الحقيقة ، ويعبر عن آمال المسلمين فى

---

(١) A . Th. Khoury : Toleranz im Islam, Muenchen 1980, p. 185

أن " يجد الإسلام فى العصر الحاضر الطريق لبناء المجتمع والدولة حتى يستطيع أن يقوم بالدور الحقيقى المنوط به فى العالم ـ دون أن يفقد شيئاً من هويته ـ بوصفه شاهداً بالقسط [1] وبوصفه عنصراً مشاركاً فى تحقيق التضامن العالمى بين بنى البشر ، وفى إقامة نظام للمجتمع يكفل للناس جميعاً المساواة أمام القانون ، ويتمتعون فيه جميعاً بنفس الحقوق فى الحياة العملية ، ويشتمل أيضاً ـ بالإضافة إلى التسامح ـ على الاعتراف بحقوق الإنسان ـ التى لا يمكن التساهل فيها ـ لكل الناس دون تحفظ " .

وفى حين أن الغرب ينطلق فى بنائه للدولة وللمجتمع من وجهات نظر علمانية ، وبصفة خاصة من منطلقات اجتماعية وسياسية فإن اتجاه العالم الإسلامى فى هذا الصدد اتجاه دينى بصفة أساسية . وهذا يعنى أن تجديد الحياة الدينية يعد أمراً ضرورياً لتكوين نظام عادل للمجتمع .

وهذا التوجه يتفق فى نهاية الأمر مع أحدث المعارف فى مجال فلسفة الحضارة والتى تقضى بأن جذور كل حضارة تترسخ فى الدين ، ومن أجل ذلك تستمد حياتها منه .

وبعد أن تطرقنا باختصار إلى الإشكالية العامة فإننا نشير مرة أخرى إجمالاً إلى أن كلا من العالم الإسلامى والعالم الغربى يتجه بوضوح إلى إقامة نظام عادل للمجتمع ، وتلك مهمة مشتركة ينعكس أثرها بالضرورة على بقية أجزاء العالم .

والتاريخ يحدثنا عن أمثلة كثيرة للتعاون بين العالمين الإسلامى والغربى فى المجال الحضارى بصفة عامة ، وفى المجال العلمى على وجه الخصوص . ومن منطلق الرؤية التاريخية نرى أن كافة الأمور المشتركة

---

(١) إشارة إلى الآية الكريمة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ﴾ (المائدة : ٨) .

ترجح على كفة الاختلافات ، وهذا أمر يدعو إلى التفاؤل وإلى المزيد من الأمل .

أما ما يتصل بقضية الثقافة الإسلامية وتقدير هذه الثقافة فإنى أود هنا أن أشير إلى ما قاله فى ذلك أحد المستشرقين الذى وصف بأنه " شهيد الأدب العربى " [(١)] بسبب أعماله العلمية التى ضحى من أجلها بالكثير . لقد قال رايسكه Reiske منذ أكثر من مائتى عام :

" إن من يقدر تاريخ الآداب ستعتريه الدهشة عندما يجد أن هناك رجالاً كثيرين جداً فى الشرق كانوا متبحرين فى كل أنواع الآداب فى وقت كانت فيه أوروبا غارقة فى ظلام ليل الجهل والبربرية ، وسيعرف بسرور مدى الإسهام الذى قدمه كل منهم فى سبيل تنمية الثقافة " [(٢)] .

ومنذ عصر التنوير بذلت جهود كثيرة فى سبيل دراسة الحضارة الإسلامية دراسة موضوعية .

وقد تبين حينئذ " أن الحروب الصليبية قد أتاحت للأوروبيين فرصة التعرف على حضارة متفوقة ، وعقد صلات مع المسلمين فى إسبانيا وجزيرة صقلية . وقد قدم ذلك لأوروبا المسيحية التراث العربى والإضافات الثقافية للميراث العلمى القديم . وقد أثرت الترجمات التى تمت منذ نهاية القرن الحادى عشر الدراسات العلمية فى مجالات العلوم الطبيعية والطبية والفلسفية " [(٣)] .

ويمكن باختصار إجمال العلاقات الثقافية بين الغرب والعالم الإسلامى تاريخياً فى ثلاثة مراحل على النحو التالى :

---

(١) Fueck, J . Die arabischen Studien in Europa, Leipizig 1955, p . 124

(٢) Endress, G . Einfuerung in die islamische Geschichte, p . 13 Muenchen 1982.

(٣) المرجع السابق ص ١٤ .

(أ) المرحلة الأولى :

تتميز هذه المرحلة بتأثر العالم الغربى بالحضارة الإسلامية فى عصر ازدهارها وقد أظهر المسلمون منذ العصر العباسى انفتاحاً كبيراً إزاء الحضارات الأخرى .

ويعبر ابن رشد عن هذا الانفتاح عندما يذهب إلى القول بأن دراسة كتب الأقدمين تعد واجباً إسلامياً ، ويضيف قائلاً : عندما نقرأ كتب الأقدمين نتأمل ما ورد فيها فإن كان موافقاً للحق قبلناه وسررنا به وشكرناهم عليه ، وإن كان فيها ما لا يتفق مع الحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم [١] .

وقد تم الالتقاء بين الشرق الإسلامى والغرب بصفة أساسية فى الأندلس وفى جزيرة صقلية . وقد تأثر الغرب بحضارة الشرق الإسلامى المزدهرة على الصعيدين الدينى والعلمى بصفة خاصة . أما على الصعيد الدينى فقد كان الأثر سلبياً تمثل فى سيل جارف من الأساطير والافتراءات والأباطيل ضد الإسلام . ولكن الأمر كان على العكس من ذلك على الصعيد العلمى فقد كان التأثير إيجابياً ، وقد أسهم فريدريك الثانى حاكم صقلية ــ والذى نصب قيصراً عام ١٢٢٠ وكان من عشاق الحضارة الإسلامية ــ أسهم بنصيب كبير فى نشر الثقافة العربية فى أوروبا . وقد أنشأ جامعة نابولى التى درس فيها فيما بعد القديس توماس الأكوينى قبل دخوله سلك الرهبنة ، وأهدى فريدريك إلى جامعتى باريس وأكسفورد وغيرهما ترجمات لمؤلفات عربية . وقد تابع ابنه مانفرد جهود والده فى تقديم ثمار الحضارة الإسلامية إلى الغرب .

وتجدر الإشارة أيضاً بصفة خاصة إلى ريموند أسقف طليطلة من عام ١١٣٠ حتى عام ١١٥٠ ، فقد كان له الفضل فى إنشاء مجمع للترجمة عهد

---

(١) فصل المقال لابن رشد ص ١٣ (ضمن مجموع بعنوان : فلسفة ابن رشد ــ القاهرة ١٩٦٨م) .

برئاسته إلى دومينيك جوند يسالفى . وقد أنجز هذا المجمع ترجمات لاتينية للعديد من المؤلفات العربية فى الفلسفة والعلوم الطبيعية ، وتمت حينذاك أيضاً أول ترجمة لاتينية للقرآن الكريم عام ١١٤٣ .

وقد كانت هذه الترجمات ــ التى توفر العلماء الغربيون على دراستها ــ تمثل الأساس الذى قامت عليه الفلسفة المدرسية . وقد بيّن " كاراديفو " فى بحوثه مدى سيطرة النزعة السينائية (نسبة إلى ابن سينا) اللاتينية فى العصر الوسيط فى أوروبا ، كما أكد العالم الفرنسى رينان فى كتابه عن (ابن رشد والرشدية) سيادة النزعة الرشدية اللاتينية فى الفكر الأوروبى الوسيط ، وأثبت أن هذه النزعة الرشدية قد أسهمت إسهاماً كبيراً فى سبيل انتشار حرية الفكر فى ذلك العصر .

وقد ظل التأثير الرشدى قائماً فى أوروبا حتى القرن السابع عشر ، وكان هذا التأثير بمثابة التمهيد للنزعة العقلية فى أوروبا فى عصر النهضة [1] .

(ب) المرحلة الثانية :

تبدأ المرحلة الثانية تاريخياً بالحملة الفرنسية على مصر فى نهاية القرن الثامن عشر . وقد تعرف الشرق الإسلامى حينذاك على العالم الغربى ، ولكن دون أن يكون لذلك أثر يذكر ، اللهم إلا ما تركه علماء هذه الحملة ــ الذين جلبهم نابليون بونابرت معه ــ من دراسات علمية هامة عن مصر تمثلت فى كتاب " وصف مصر " ، بالإضافة إلى تأسيس المجمع العلمى المصرى الذى لا يزال قائماً حتى الآن .. وقد شهد القرن التاسع عشر جهوداً أكثر من ذى قبل من أجل التعرف على الغرب . ففى عصر محمد على باشا بدأ إرسال بعوث مصرية إلى فرنسا لدراسة العلوم المختلفة . وقد برز من

(١) انظر كتابنا : دور الإسلام فى تطور الفكر الفلسفى ــ دار المنار بالقاهرة ١٩٨٩م .

بين هؤلاء رائد التنوير في مصر في العصر الحديث " رفاعة الطهطاوى " على الرغم من أنه أرسل إلى فرنسا أصلاً ليكون إماماً ومرشدا دينيا للبعثة المصرية . ولكن عبقريته الفذة جعلت منه حلقة وصل هامة بين الحضارتين الإسلامية والغربية .

(ج) المرحلة الثالثة :

المرحلة الثالثة هى المرحلة المعاصرة . وقد شهد العصر الحالى انتشار المدنية الغربية والتكنولوجيا الغربية فى كل مكان من العالم تقريباً بما فى ذلك العالم الإسلامى . ولكن العالم الإسلامى لم يأخذ بمنجزات الحضارة الغربية فى كل جوانبها ، بل كانت له بعض التحفظات فى بعض الجوانب . وعلى سبيل المثال نجد أن هناك مواقف متناقضة في العالم الإسلامى إزاء العلوم الاجتماعية الغربية . فهناك من يؤيد الأخذ بها بلا حدود ودون تحفظ ، وهناك من يرفضها رفضاً تاماً . وقد ظهرت هناك محاولات راحت تبحث عن طريق وسط بين هذين الاتجاهين وذلك فى شكل جهود علمية نقدية . وهذه المحاولات العلمية النقدية ترتبط بطبيعة الحال ارتباطاً وثيقاً بمحاولات نقد ذاتى على الجانب الإسلامى .

وقد سبق أن أشرنا مراراً إلى أن الحوار الغربى الإسلامى لم يستطع حتى الآن أن يصل إلى الحد الأدنى الذى يحظى برضا الطرفين . ومن أجل ذلك وصفتُ هذا الحوار فى مناسبة أخرى بحوار الصم أو " حوار الطرشان " (١) نظراً لعدم فهم كل جانب للجانب الآخر .

وفى مستهل القرن العشرين بدأت محاولات الجانب الإسلامى فى النظر إلى الحضارة الغربية نظرة نقدية (٢) . وقد عبرت باحثة غربية هى الأستاذة

---

(١) انظر فى ذلك كتابنا : الإسلام فى تصورات الغرب ـ القاهرة ١٩٨٧م ص ١٧ .

(٢) Rotraud Wielandt : Islam und Kult. Selbstbehauptung . in : Ende, Steinbach, Der Islam in der Gegenwart, Muenchen 1984, p . 555 .

R . Wielandt عن صلة العالم الإسلامى بالحضارة الغربية بقولها [١] : " لقد شعر المرء فى العالم الإسلامى بوضوح بازدواجية التقدم القادم من الغرب ، ومن هنا كان السؤال الهام : ماذا يكون الحال إذا لم تكن هناك حدود ثابتة للتأثير الحضارى الغربى فى العالم الإسلامى ؟

ألا تكون هناك مخاطرة تتمثل فى خسارة باهظة تفوق ما قد يكسبه المرء عن طريق عملية التحديث من قوة سياسية ورفاهية مادية ؟

إن الخسارة هنا ستكون باهظة بالفعل لأنها تتمثل فى خسارة المرء لدينه ولكل ميراثه التاريخى ولذاتيته الحضارية بصفة عامة .

والأمر المثير للدهشة أننا نجد الآن من بين الباحثين الغربيين [٢] من يتحدث عن أن إعادة اكتشاف المسلم تؤدى إلى تشكك الغربى فى تصوراته الأيديولوجية ونماذجه التاريخية كذلك .

ويشير الباحث نفسه وهو الأستاذ Antes إلى أن ما يسمى بالتقدم الغربى " قد تحول إلى شكل من أشكال تعاليم الخلاص الجديدة التى تقدم فيها الآن فكرة التبشير المسيحى (الغربية) .. المرتبطة بالدعوى الكلاسيكية المطلقة فى ثوب علمانى طبقاً للشعار التالى .. : ليس هناك أى خلاص خارج طريقتنا فى الحياة .

وخلفية ذلك كله تتمثل فى نموذج تاريخى يقضى بأنه ليس هناك إلا تطور واحد يمكن تصوره ، ولا يمكن أن تترك فيه مرحلة جوهرية من مراحله ، أو لا يجوز تخطيها ، وذلك هو التطور الذى نقف نحن عند نهاية أبعد نقطة متقدمة فيه . وعليه فإن من لا يكون مثلنا على هذا النحو يعد ـ فى عرف هذا التفكير بطبيعة الحال ـ متخلفاً " .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) Antes, P . Ethik und Politik im Islam, Stuttgart 1982, p . 12 f .

والمؤلف نفسه ــ الذى يذكرنا بنموذج التطور الداروينى المطبق على التاريخ ــ يقتبس فى هذا المقام عبارة لمؤلف إيرانى[١] يقول فيها:

" هناك تصوران أساسيان للحرية ، أولهما هو التصور الغَربى المتمثل فى خلق حاجات جديدة باستمرار على نحو متزايد ، وثانيهما هو التصور المقابل لذلك والذى تتبناه العقلية الشرقية التقليدية ، ويقوم فى أساسه على أن الإنسان يجب عليه أن يحد من حاجاته باستمرار لكى يصبح مستقلا خارجيا وداخلياً " .

وهذا الموقف المتفتح الذى يطالب به المرء على الجانب الغربى يعد ضرورياً لإجراء حوار إسلامى غربى مثمر ، ولكن الطلب بطبيعة الحال أمر أسهل من التنفيذ الذى سيجر وراءه بالتالى نتائج حاسمة .

---

(١)هو : M. Minowi (المرجع السابق ص ١٣) .

٣ إمكانات الحوار وآفاق التعاون :

إنه إذا كان ينبغى أن يكون هناك معنى للحوار المطلوب وأن يكتب له الاستمرار فإنه يجب على الأقل أن تتوقف المعاملة السيئة للإسلام فى الغرب . ولا يجوز الاعتذار عن هذه المعاملة السيئة بالنقد الموجه إلى العالم الإسلامى . وليس هناك شك فى أن الإسلام قد أسئ فهمه فى الغرب ، ولكن هناك فى العالم الإسلامى من يسئ أيضاً فهم الإسلام ، وهذا أمر يشترك فيه الإسلام مع غيره من الأديان ، ومن أجل ذلك تعد الجهود العلمية المبذولة لبحث الإسلام بحثاً موضوعياً خالياً بقدر الإمكان من الأحكام السابقة ـ تعد جهوداً على درجة قصوى من الأهمية .

وينبغى أن يكون البحث الإسلامى متصلاً بصفة خاصة بالحاضر ، بمعنى أن يكون متفتحاً وقادراً على التغلب على المشكلات القائمة والقيام بالمهام الموكولة إليه بطريقة ابتكارية فى إطار الروح الإسلامى ، وإذا كان هذا البرنامج يعد برنامجاً طموحاً فإنه من ناحية أخرى يعد البرنامج الوحيد الممكن للبحث الإسلامى الذى يسعى إلى إحداث تقدم أصيل فى المجتمع الإسلامى .

ويتصل بذلك ما يمكن أن يُطلَب بحق من علماء الإسلاميات الغربيين الذين لا يعتنقون الإسلام ويدرسونه من الخارج ـ ويتمثل هذا الطلب فى محاولة عرض الإسلام كما يتمثل ذلك فى مصادره الأصلية وفى أفضل الأفهام الإسلامية . وعلى سبيل المثال فإنه من الخطأ العلمى أن يقال إن القرآن الكريم ألفه محمد صلى الله عليه وسلم . والصحيح من وجهة النظر العلمية أن يقال : إن القرآن يعد ـ طبقاً للعقيدة الإسلامية ـ وحياً من عند الله أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم . كما أنه من الخطأ العلمى

كذلك أن يقال إن الله هو إله المحمديين [١] ، وأن يوصف الإسلام بأنه المذهب المحمدى أو بأنه دين عدوانى [٢] .

وبصرف النظر عن ذلك فإن هناك عدداً كبيراً من المثقفين الغربيين لا يزالون يقبلون مثل هذه المعلومات الخاطئة عن الإسلام ويعدونها من قبيل المسلمات بدلاً من إزالتها من الطريق ، وهناك من جانب آخر بعض علماء الأديان المعاصرين الجادين الذين يلفتون نظر الباحثين فى الأديان إلى أن الأحكام القيمية على هذا الدين أو ذاك بالصحة أو بالبطلان أمر لا يدخل فى إطار بحوثهم العلمية [٣] .

ويعترف أحد المستشرقين المعاصرين المعدودين وهو الأستاذ وات Watt بأن " البحث الموضوعى فى المائة والخمسين عاماً الماضية لم يستطع أن يقدم للعقل الغربى المعاصر صورة للإسلام خالية من التشويه الذى أصابها ، وإذا كنا الآن فى عالم كثرت فيه الصلات بين المسلمين والمسيحيين وازدادت أهمية عن ذى قبل ، فإن هذا أمر يوجب على المرء أن يبذل قصارى جهده فى توضيح الأسباب التاريخية لهذه الأحكام المسبقة عن الإسلام والتى لا تزال تراود أذهاننا دون وعى " [٤] .

وقد لاحظ المؤلف ذاته أيضاً بحق أن كل ما نجده أمامنا من خلط وقلب للحقائق فيما يتصل بالإسلام يرجع إلى قصور فى التكوين الثقافى [٥] .

---

(١) انظر على سبيل المثال قاموس Duden, Fremdwoerterbuch .

(٢) أقرب مثال على ذلك ما ورد فى صحيفة دى فلت الألمانية بتاريخ ١٩٩٠/٩/١ فى مقال كتبه هانز بيتر لوسفالد عن رحلة البابا يوحنا بولس الثانى إلى إفريقيا .

(٣) H. J. Greschat : Was ist Religionswissenschaft ? Stuttgart 1988, P. 23.

(٤) W. M. Watt : Der Islam, Bd. I, Stuttgart 1980, P. 17.

(٥) المرجع السابق ص ٣٨ .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن القضاء على هذا الموقف المتمثل فى سوء الفهم للإسلام لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق الفهم الصحيح ، وعندئذ يمكن أن تحل محل الصورة المشوهة للإسلام صورة أخرى واضحة غير محرفة ، وهكذا نجد أن إزالة سوء الفهم والحيلولة دون عودته إلى الظهور مرة أخرى تحتم علينا أن نبذل قصارى الجهد فى سبيل ترسيخ فهم صحيح للإسلام على أساس علمى متين .

فكيف يمكن أن يحدث ذلك ؟

لقد أكد كارليل (١) أن الهدف الرئيسى للمسيحية والإسلام هو فى الأساس هدف واحد ، ويعبر عن ذلك بقوله : " إن المسيحية تأمرنا أيضاً أن نسلم أنفسنا لله على وجه الخصوص " .

وهذا يعنى الاتفاق مع المفهوم الإسلامى المحورى وهو التسليم لله ، ولكن هذا المفهوم الرئيسى فى الإسلام وهو التسليم لله أو إسلام الوجه لله كما يؤخذ ذلك من مصطلح " الإسلام " ـ هذا المفهوم يتعرض مثل الكثير من المفاهيم الإسلامية إلى الكثير من سوء الفهم ، فمن المعروف أن مصطلح الإسلام ينحدر من حيث الاشتقاق من نفس الأصل الذى ينحدر منه مفهوم السلام فى العربية ، وهذا أمر ليس من قبيل المصادفة ، لأن الإسلام يرتبط ارتباطاً لا ينفصم بإرادة السلام .

وإنه لمن المتناقضات غير المفهومة فى تاريخ العالم أننا من ناحية نجد أن الأديان العالمية الكبرى تدعو فى جوهرها إلى السلام ، ولكننا من ناحية أخرى نجد أنها فى غالب الأحيان قد أسئ فهمها وزج بها فى حروب لا معنى لها ولا يزال مثل هذا الفهم السيئ للأديان قائماً حتى عصرنا

---

(١) Watt, What is Islam ? P. 6.

الحاضر ، ولكن هذا لا يستند فى الحقيقة إلى مبادئ هذه الأديان ، بل يرجع إلى أغراض دنيوية يتم الدفاع عنها تحت غطاء دينى . صحيح أن الدين الحق بدعوته إلى إسلام الوجه لله يدعو فى الوقت نفسه إلى الجهاد أيضاً ، ولكنه جهاد ضد البغى والعدوان وفى هذا المعنى يقول القرآن الكريم :

﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ (البقرة : ١٩٠) . وفى هذا الإطار يعد هذا الجهاد أيضاً جهاداً لإعلاء كلمة الحق وإقامة موازين العدل فى هذا العالم ، ومحاربة النزعات الشريرة فى النفس الإنسانية .

ومن هنا نجد أن " الدعاية الحربية للعصر الوسيط المسيحى " كما يسميها أحد المستشرقين [١] والتى تمثلت فى الحروب الصليبية ، والتى لا يزال أثرها باقياً حتى اليوم قد أصبحت من مخلفات العصور الماضية ، ولم يعد لها فائدة بصرف النظر عما يمكن أن تسببه من أضرار لا حصر لها . وإذا كان الإسلام يعترف بصفة مبدئية بالمسيحية فى صورتها الأصلية فإن مثل هذه التيارات الهجومية على الإسلام لا محل لها فى حقيقة الأمر ، ولكنها لا تزال تعتمد إلى حد كبير على الحجج الجدلية القديمة العقيمة المنحدرة من العصر الوسيط .

ويعترف العقلاء على كلا الجانبين الإسلامى والغربى بأن الظروف تغيرت تغيراً تاماً وأن الحقيقة الواقعية فى أيامنا هذه تتطلب حلولاً واقعية للمشكلات القائمة ، وتتطلب جهوداً مشتركة للتغلب على الكثير من العقبات .

والعالم الإسلامى يعرف اليوم أكثر من أى وقت مضى أن المشكلات الجديدة فى عالمنا المعاصر والتى تعد على درجة قصوى من الأهمية

---

(١) انظر : Watt فى المرجع السابق ص١ .

للمجتمعات الإسلامية ، وبخاصة مشكلات التكيف المتعقل لا العشوائى مع المدنية والتكنولوجيا الحديثة ـ لم يعد يمكن أن تحل عن طريق إجابات العلماء القدامى الذين لم يعرفوا عنها شيئاً ، كما لا يمكن بصفة خاصة أن تحل عن طريق التقليد الأعمى للأفكار الغربية الحديثة .. وإنما يمكن حلها بروح الإسلام باجتهاد جديد كما كان يفعل علماؤنا السابقون .

والغرب من جانبه يعرف الآن أكثر من أى وقت مضى أن ضرورة التعايش واستمراره فى عالم اليوم تتطلب التعاون الحقيقى مع العالم الإسلامى الذى يشكل سكانه أكثر من خمس سكان العالم ، ويحتفظ فى باطن أرضه بمعظم الثروات المعدنية والنفطية فى العالم .

وهناك من غير شك جهود ملحوظة لتهدئة صيحات الحرب القديمة والاعتراف بالدور الفاعل والمؤثر للإسلام فى توجيه الطاقات وصياغة الحياة لأكثر من خمس سكان العالم ممن يدينون بالإسلام .

ولكن هناك جهوداً أخرى مضادة مرتبطة بالجهود السابقة بطريقة غير مفهومة لا تزال تسىء فهم الإسلام بوعى وبغير وعى . وتنظر إلى العالم الإسلامى نظرة سلبية . ومن هنا نجد أن كارليل نفسه كان يريد أن يقتحم الإسلام كما يقتحم حصناً معادياً . ويتفق كثيرون مع كارليل فى هذا الصدد [1] .

وهناك اليوم فى الغرب اتجاه ملحوظ يرى فى العالم الإسلامى العدو المحتمل بعد انهيار العدو التقليدى الذى كان يتمثل فى الاتحاد السوفييتى السابق ودول الكتلة الشرقية قبل تحولها عن الماركسية .

وهذا يعنى استمراراً لتراث لاهوتى متحفى من العصر الوسيط . فقد كانت دراسة الإسلام حينذاك لها هدف واحد معلن يتمثل فى محاربة الإسلام

---

(١) المرجع السابق ص٢ .

بعد أن تأكد المرء منذ ثمانمائة عام من أن مجرد الشتائم والافتراءات ونسج القصص والأساطير حول الإسلام لا تكفى لمحاربته ، ومن أجل ذلك أوعز بطرس الموقر حينذاك إلى أحد العلماء المسيحيين بترجمة القرآن لأن الأهداف التبشيرية تتطلب معرفة آراء الخصم معرفة جيدة ـ كما كان يقول ـ [١] .

وقد بدأت الدراسات الاستشراقية منذ عصر التنوير تتخلص شيئاً فشيئاً من طريقة التفكير اللاهوتية [٢] . وفى بداية القرن الثامن عشر وجدنا أن " هادريان ريلاند " لا يزال لديه أثر للاتجاه التبشيرى أو على الأقل كان يتحدث عن ذلك ، وإن كنا نعتقد أنه كان مضطراً لذلك خوفاً من بطش الكنيسة حينذاك . وبصرف النظر عن ذلك فلقد كان موقف ريلاند يعد موقفاً متقدماً جداً إذا قيس بمقاييس عصرنا فى نهاية القرن العشرين . فقد طالب ريلاند بدراسة الإسلام وضرورة عرضه عرضاً موضوعياً ، وكان يرى أنه لا يجوز أن يفهم المرء الإسلام أخذاً من أقوال الآخرين وما كتبوه عنه فى مؤلفاتهم ، وإنما ينبغى على المرء أن يبذل قصارى جهده فى دراسة مستقلة للمؤلفات العربية ، وأن يرى بعينيه هو لا بعيون الآخرين ليعرف حقيقة الإسلام الذى انتشر انتشاراً واسعاً فى آسيا وإفريقيا وأصبح معروفاً فى أوروبا أيضاً لكثير من الناس .

ويضيف ريلاند : إنه إذا كنا نعترف بأن الله قد أعطى العقل لكل الناس فكيف يجوز للمرء أن ينكر العقل لدى المسلمين ولدى علمائهم ؟

وفوق ذلك طالب ريلاند [٣] منذ ثلاثة قرون بدراسة الإسلام من

---

(١) Fueck, P. 4f.

(٢) المرجع السابق ص٩٧ وما بعدها .

(٣) Pfannmueller,G. Handbuch der Islamliteratur, Berlin, 1921, p. 63f.

مصادره الأصلية ، وعرضه كما يعرضه المسلمون ويتعلمونه فى مدارسهم ومساجدهم .

ولكننا نعود مرة أخرى إلى العصر الحاضر . فبدلاً من النظر إلى الإسلام على أنه يمثل تهديداً للغرب والانطلاق فى دراسته من ذلك ينبغى على الغرب ـ كما يقول وات ـ أن يحاول تأمل الإسلام بطريقة موضوعية ومعرفة إمكاناته الإيجابية [١] وينبه إلى أنه لا يجوز التقليل من قيمة الإسلام [٢] .

فالمرء لا يستطيع ـ كما يقول ـ " أن يعرف الإسلام دون أن يفكر فى إمكاناته . فالإسلام هو أحد المرشحين الرئيسيين (فى الصراع من أجل سيطرة دين من الأديان فى مستقبل عالمنا) ، إنه منافس خطير للمسيحية وللإنسانية " .

ولست أدرى كيف يفهم Watt الإسلام على أنه منافس خطير للإنسانية وهو نفسه دين الإنسانية ؟

ولكن "وات " ينبه إلى أن الحماس المعادى للإسلام يمثل خطراً يتمثل فى إصدار أحكام غير موضوعية على الإسلام وتقدير إمكاناته تقديراً خاطئاً . فالخوف يؤثر على القدرة المعرفية ، وفى ذلك يقول :

إذا كان الإسلام يهدد تصورنا لديننا فى العالم (سواء كان هذا الدين هو المسيحية أو الماركسية أو غير ذلك) فكيف يمكن أن يكون فى وسعنا أن نحكم على الإسلام حكماً موضوعياً وأن نقدر إمكاناته ؟

---

(١) Watt : What is Islam ?

(٢) المرجع السابق ص ٤ .

ومن أجل ذلك لا يريد أن يظل واقفاً عند حدود هذه التخوفات ، ويميل إلى اتخاذ موقف تأملى إيجابى ، ويشير إلى أن الإسلام يعبر عن رؤية روحية للعالم وللحياة ، وهى رؤية لا تختلف كثيراً عن مثيلتها فى المسيحية واليهودية ــ كما يقول ــ [١] .

ويذهب وات إلى القول " بأننا نقف اليوم أمام بداية عملية جديدة تقدم صياغة عقلية للأمور الجوهرية فى الرسالة الدينية التى يشتمل عليها القرآن [٢] .

ولكن البرنامج الذى يتصوره فى هذا الصدد بوصفه متأملاً خارجياً للإسلام لا يمثل بالضرورة موقف المسلم من الإسلام عندما يتغلغل الإسلام فى أعماقه فيبذل قصارى جهده ليحيا بالإسلام الذى يعنى بالنسبة له تديناً حياً وليس مجرد موضوع للدراسة . ولكن هذا لا ينبغى أن يحول بين المسلم وبين أن يفهم بقدر الإمكان فكر المحاور الغربى وخصوصيات طبيعته .

وعلى الرغم من كل الصعوبات فإننا إذاً بذلنا جهوداً جديدة باستمرار لكى نفهم الآخر الذى نتحاور معه ، وليس فقط أن نعرض تصوراتنا عنه ، فإنه يمكن أن تكون هناك فرصة للتعاون الحقيقى المثمر بين الطرفين . فإنه بصرف النظر عن حقيقة اختلاف طرق الأديان فإنها مع ذلك تؤدى ــ كما هو المأمول ــ إلى ذات الهدف ، والهدف الواحد يمكن أن تراه العين من أماكن مختلفة فى صور مختلفة ، وينبغى ألا يغيب عنا هذا الهدف المشترك للأديان . ففى توحيد الألوهية ــ كما قيل بحق ــ " تتأسس وحدة الجنس البشرى وتتأسس المساواة بين كل البشر أمام الله [٣] . "

---

(١) المرجع السابق ص ٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٥ .

(٣) H. Kueng ; Christentum und Islam, in Zeitschrift ; Islam und der Westen. Jg. 5, Nr. 3, 1985, p.9

ويؤكد القرآن الكريم هذا المعنى فى قوله تعالى :

﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ (سورة الشورى : ١٣) .

ويؤكد الأستاذ كونج " أنه لن يكون هناك سلام بين شعوب هذا العالم بدون أن يكون هناك سلام بين أديان العالم ، فكم كان يمكن أن توفر البشرية على نفسها الكثير من ويلات الموت والخراب والدمار إذا لم يكن هناك من دعا باسم الدين إلى إثارة العداوات والأحقاد ، بل دعا إلى الوفاق والسلام كما جاءت بذلك الكتب المقدسة لليهود والمسيحيين والمسلمين "[١] .

ونود أن نضيف إلى ذلك أننا يمكن أن نتفادى فى حاضرنا ومستقبلنا أيضاً الكثير من الموت والخراب والدمار عن طريق الالتزام بدعوة الأديان إلى الوفاق والسلام بين البشر . وهنا لابد أن تتطابق الدعوة إلى ذلك مع الممارسة العملية بأن نقول ما نفعل ونفعل ما نقول كما يحث القرآن الكريم على ذلك : **﴿ يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾** (الصف : ٢ ، ٣) .

وقد صور أحد العلماء الغربيين وهو أوليفر لا كومب موضوع الإسلام تصويراً بديعاً حين قال [٢] : " إن الموضوع الذى يعد محور الإسلام ، أى حقيقة الإسلام ، يمكن تشبيهه بجوهرة ، والإسلام يمثل الخزانة المعدة لاستقبال هذه الجوهرة وحفظها " .

---

(١) المرجع السابق ص ٤ .

Olivier Lacombe : Sagesse chretienne et sagesse d'orient, in Luman vitae' V1, Brussel 1949, p . 699

ويرى المؤلف نفسه " أن أوروبا التى انسلخت عن المسيحية ينبغى أن تفكر فى هذا الموضوع الذى يمثل محور الإسلام للعثور مرة أخرى على الحقيقة التى لا يجوز إنكارها أبداً " [١] .

ويمكن القول : إن تحقق المؤمن بإسلام وجهه لله يعبر عن هذه الجوهرة . والكلمات لا تستطيع أن تصور ذلك ، لأن الدين ــ كما قيل ــ شىء آخر مختلف تماماً [٢] . فالدين يفتح للإنسان الذى يسلم وجهه إلى الله بعداً جديداً تماماً لا يستطيع العقل وحده أن يبلغه .

وفى ختام هذا البحث أود أن أشير إلى أنه إذا كان قد قيل [٣] : إن عدم قدرة الغربى على فهم المسلم تتطابق مع عدم قدرة المسلم على فهم الغربى ، فإنه يمكن القول أيضاً : إننا إذا أردنا أن نحقق أنفسنا ونعرفها فى أفضل إمكاناتها فإنه يجب علينا أن نحاول التعرف بصدق على الآخر الذى لم نفهمه . وهنا تكمن فرصتنا التى لابد أن نغتنمها قبل فوات الأوان . وهذه الدعوة ليست موجهة إلى طرف دون الآخر ، فالقرآن الكريم قد أعلنها دعوة عامة إلى كل الشعوب والأجناس فى كل زمان ومكان :

﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا** ﴾ صدق الله العظيم (الحجرات : ١٣) .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) Le Gai Eaton, p. 13

(٣) المرجع السابق ص ١٥ .



الفصل الثاني

الإسلام وأوروبا
ضرورة الحوار وآفاق المستقبل

١ ـ تمهيـــــد

٢ ـ ضرورة التضامن

٣ ـ عقبات التفاهم

٤ ـ ضرورة الحوار

٥ ـ طرق الحوار

٦ ـ الحوار والتعددية الحضارية

٧ ـ التأثير المتبادل

٨ ـ القواسم المشتركة

٩ ـ كلمة ختامية



الإسلام وأوروبا
ضرورة الحوار وآفاق المستقبل (*)

١ ــ تمهيد :

عندما نتحدث اليوم عن ضرورة الحوار بين أوروبا والإسلام فى ظل الظروف الراهنة نجد أنفسنا أمام سؤال يفرض نفسه عما إذا هذا السعى نحو الحوار بين الجانبين يعد أمراً جديداً ، أم أن الأمر يدور حول استئناف جهود سابقة لها جذور ممتدة فى التاريخ ؟ .

وبادئ ذى بدء نزعم أن الحوار بين الحضارتين الإسلامية والأوروبية قديم قدم الإسلام ذاته ، وأنه على الرغم من كل الصراعات بينهما على مدى القرون الماضية فإن الحوار بينهما كان دائماً أمراً ملحاً كما هو الشأن اليوم أيضاً . وسنحاول فى الصفحات التالية البرهنة على ذلك .

إن التاريخ الإسلامى يبين لنا أن النبى صلى الله عليه وسلم قد أجرى فى مسجده فى المدينة أول حوار دينى فى الإسلام مع وفد نصارى نجران ، وأقام مجتمع المدينة على التعددية الدينية والثقافية التى يتمتع فيها جميع المواطنين بنفس الحقوق بصرف النظر عن انتماءاتهم الدينية والعرقية (١) .

(*) محاضرة ألقيت فى مؤسسة روبرت بوش الخيرية بمدينة اشتوتجارت بألمانيا فى ٢٠٠٢/٦/١١م .

وقد أجرينا عليها بعض التعديلات الطفيفة فى الترجمة العربية . ونظراً لأن هذه المحاضرة لم يتضمنها الكتاب الذى تولى ترجمته الدكتور مصطفى ماهر لأنها لاحقة لصدور الكتاب فقد تولينا مهمة ترجمتها إلى العربية .

(١) تراجع فى ذلك صحيفة المدينة التى أصدرها النبى عليه الصلاة والسلام والتى تعد أول دستور إسلامى يقرر حرية العقيدة وحرية الرأى وحرمة الحياة وحرمة المال وتحريم الجريمة ، كما يعد فتحاً جديداً فى الحياة السياسية والحياة المدنية حينذاك . (انظر : حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل ص ٢٢٥ وما بعدها ــ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٥م) .

والإسلام ـ كما هو معروف ـ يطلب من المسلمين بكل صراحة ووضوح الاعتراف بكل الأديان السماوية السابقة . ولا يجوز للمسلمين بناء على ذلك أن يفرقوا بين الأنبياء مثل موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام . وفي ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله** ﴾ . (البقرة :٢٨٥) . والقرآن يطلب من أتباع هذه الأديان المختلفة الابتعاد عن كل ما يجلب الشقاق والنزاع ، وضرورة التركيز على التنافس المثمر في مجال الخيرات : ﴿ **فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً** ﴾ (المائدة :٤٨) .

وقد شعر المسلمون منذ البداية بالتضامن مع المسيحيين الذى ينتمون مثلهم إلى دين سماوى . وفى هذا الصدد يخبرنا القرآن الكريم بأن المسلمين قد أصابهم الحزن عندما وقعت معركة بين الفرس والروم الشرقيين انهزم فيها الروم المسيحيون على يد الفرس الوثنيين . وعندئذ خفف القرآن الكريم عليهم وقع هذه الصدمة مبشراً بأن الروم سينتصرون فى المرة القادمة : ﴿ **غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله** ﴾ . (الروم : ٢ـ٤) . وقد حدث ذلك النصر الموعود كما أخبر القرآن . وفضلاً عن ذلك فإن القرآن يبين لنا أن المسيحيين هم أقرب الناس مودة للمسلمين : ﴿ **ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى** ﴾ (المائدة:٨٢) .

وعند التأمل الدقيق للتاريخ نستطيع أن نتبين بوضوح أن الحضارتين الأوروبية والإسلامية في نشأتهما وتطورهما لم يكونا فى يوم من الأيام شيئين منفصلين تماماً . فقد قامت كل منهما على أساس من التفاعل الثقافى

المثمر وظلتا من خلاله تتميزان بالحيوية ، وكانتا من أجل ذلك قادرتين رغم كل الحروب بينهما على البحث عن السلام ، والبحث فى الوقت نفسه أيضاً عن الحماية الفعالة لذاتيتهما .

٢- ضرورة التضامن :

لقد أصبح عالمنا المعاصر ــ كما يقال باستمرار ــ بمثابة قرية كونية ، ومن هنا تواجهه مهمة صنع السلام عن طريق التضامن العالمى . وهذه الصورة عن القرية الكونية تصيب إلى حد كبير كبد الحقيقة ، ولكنها لا تدرك إلحاح الموقف إلا بدرجة ضئيلة . ولعل الوصف الأكثر ملاءمة للإنسانية اليوم هو أنها تمثل جماعة استقرت على ظهر سفينة كونية تبحر عبر الفضاء الكونى ، ويتحتم عليها أن تتجنب حدوث أى خلل فيها بأى ثمن .

وقد استخدم النبى عليه الصلاة والسلام فى حديث له هذا التصوير الرمزى الذى نستعيره هنا للموقف الراهن لعالم اليوم لكى نؤكد من خلاله على ضرورة التضامن العالمى بين الناس . وقد كان النبى عليه الصلاة والسلام يرى أن القسم المتميز من مجتمع السفينة إذا لم يهتم بصورة كافية بالقسم الآخر المجرد من الامتيازات فإن هذا القسم الأخير سوف يتسبب إن عاجلاً أو آجلاً ــ بقصد أو بغير قصد ــ فى إعطاب السفينة وبالتالى فى غرق الجميع [١] .

ونحن نطلق اليوم على الصراع الراهن فى العالم مصطلح صراع الشمال والجنوب . والواقع أن العالم اليوم يحتاج أكثر من أى وقت مضى

---

(١) راجع : فتح البارى بشرح صحيح البخارى جـ٥ ص ١٣٢ .

إلى مثل هذا التضامن الشامل لإقامة نظام راسخ لسلام عالمى . فالعالم فـــى حاجة إلى نظام سياسى كونى يسعى لمراعاة حقوق كل النـــاس بمـــن فيـــهم الفقراء . وبدون ذلك لن يستطيع العالم حل المشكلات التى تحاصره من كـــل جانب .

والعالم الإسلامى على وجه الخصوص شديد الاهتمام بكل المحـــاولات الرامية لاستقرار سياسة العالم . وهذا الاستقرار لن يحث فى نهاية الأمـــر إلا من خلال جهود مشتركة لكل الشعوب في الحوار وفى التعاون فيما بينـــها ، وذلك لأن سيطرة بعض الشعوب المنفردة تقود بالضرورة كما يعلم الجميع ـــ سواء أردنا أم لم نرد ـــ إلى الدكتاتورية ، لأن القوة التى لا ضابط لها تقـــود فى الغالب إلى إساءة استخدامها . ونموذج هتلر ليس ببعيد عنا ، ويخشـــى أن يتكرر هذا النموذج اليوم بصورة أكثر بشاعة بحجة محاربة الإرهاب وحماية الحضارة .

إن المدنية التكنولوجية التى تسود العالم اليوم قد جلبت للعالم كله شـــبكة من العلاقات في شئون الاقتصاد والاتصالات والمعلومـــات . ولكـــن هـــذه العولمة قد أدت من ناحية أخرى إلى مشكلات خطيرة فى مجـــالات البيئـــة والنظم الاجتماعية والثقافية والهوية [1] . وهذه المشكلات ـــ وغيرها كثير ـــ من شأنها أن تهدد أمن واستقرار البشرية ، بل تهدد كذلك وجودها على هـــذا الكوكب الأرضى . ومن أجل ذلك يتحتم أن تعالج هذه القضايا فـــى إطـــار حوار دينى وحضارى . ومثل هذا الحوار يستطيع أن يبرز القواسم المشتركة لكل القيم الهامة . ويستطيع فوق ذلك أن يعمل على التوصل إلى كيفية تحقيق هذه القيم فى سياق كل حضارة على حدة. وعلى هذا النحو يصبح التعاون فى

(1) Spiegl, Peter : Interview in " Die Welt im Umbruch " , Flensburger Hefte 11/97, p. 132f

حل هذه المشكلات الهامة أمراً ممكناً . وإنه لمن الأهمية بمكـــان أن يكـــون هناك بصفة خاصة حوار بين الإسلام وأوروبا . ومن أجـــل ذلـــك تحتـــاج أوروبا إلى مزيد من المعرفة بالإسلام ، ويحتاج المسلمون أيضاً إلى مزيـــد من المعرفة بحضارة أوروبا وتاريخها .

٣- عقبات التفاهم :

تتمثل العقبات التى تقف حجر عثرة فى طريق الحوار بيـــن الإســـلام وأوروبا على وجه الخصوص فى صورة العدو المتبادلة والتى تطورت عبر التاريخ . وهناك جهود حثيثة من جانب أصحـــــاب المصـــالح علـــى كـــلا الجانبين للترويج لهذه الصورة السلبية لتحقيق أغراض سياسية [1] .

وتحت وطأة هذه الظروف ظلت الجهود الحالية الكثيرة الداعمة للحـــوار مثل واحات متناثرة فى صحراء مترامية الأطراف . وظلت كذلك ــ على ما يبدو ــ عاجزة أمام حقيقة أن هناك اليوم الكثير من أشكال العنف العبثى الذى لا معنى له تزداد يوماً بعد يوم . وتبدو هذه الحقيقة فـــى الفـــترة الأخـــيرة واضحة جلية فى العديد من أشكال جرائم الحرب فـــى بلـــدان كثـــيرة مـــن عالمنا . ويلاحظ أن ضحايا هذا العنف فى العقود الأخيرة هم فى الغالب مـــن المسلمين .

وهناك عقبة كبرى تعوق التفاهم فى الحوار بيـــن الإســـلام والغـــرب بدرجة كبيرة وتتمثل فى التجاهل وعدم الاكتراث على الجانب الغربى . وهذا التجـــاهل يتعلـــق بـــالأحداث المتلاحقـــة فـــى عالمنـــا والأســـباب التـــى تقف وراء حدوثها ، والجهود التى يجب أن تبذل لمواجهتها . وما يحدث فـــى

---

(1) Herzog , Roman , Preventing the Clash of Civilizations . (1999,New York , p . XII) .

فلسطين ــ على سبيل المثال ــ نموذج صارخ على ذلــك . ونتــائج هــذا التجاهل تتمثل في المواقف الخاطئة وسوء الفهم لعالمنا الذى كان يفترض أن يكون عالماً جديداً وجذاباً ، ولكنه في حقيقة الأمــر صــار عالمــاً مرعبــاً ومخيفاً ، وذلك بالنسبة لضحاياه على كل حال .

وهذه المواقف الخاطئة وسوء الفهم تقود على كلا الجانبين بسهولة إمــا إلى تعصب أعمى أو إلى اللامبالاة أو اليأس . وإن الإحاطة بهذا الذى يحدث فى عالمنا وبالذى يجب أن يحدث من الأمور التى أصبحت بالنسبة لغالبيــة الناس أمراً بالغ الصعوبة ، وذلك لغياب النظرة الكونية الضرورية . وبــدلاً منها تتولى غالبية وسائل الإعلام مهمة القيام بعملية غسيل مخ يومية للأفراد والجماعات . وهنا غالباً ما تتم المقارنة بطريقة ظالمة بين الصورة المثاليــة للحضارة الخاصة ــ التى يريد المرء حماية قيمــــها مــن خــلال ذلــك ــ والصورة المشوهة لحضارة الآخرين .

وحضارة الآخرين الذين نواجههم فى الغالب يومياً ــ والتى لم تعد بعيدة عنا كثيراً مثلما كان الأمر فى السابق ــ تظهر لنا نتيجة لذلــك علــى أنــها حضارة غريبة وغير مفهومة ، بل ومعادية . وهناك بعض الجماعات المعينة من أصحاب المصالح فى الغرب يروجون فى وسائل الإعلام مزاعم مؤداهــا أن المواقف التى تسود فيها الحيرة وانعدام الأمن بصفة عامة يجـــد " الأنــا الجماعى " نفسه فى حاجة إلى صورة عدو [1] .

وبعد انتهاء الحرب الباردة بين الغرب والشرق الشيوعى حل محلها فى واقع الأمر الصراع بين الشمال والجنوب أو بمعنى آخر بين الدول الغنيــة والدول الفقيرة ، وهو النزاع الذى يزداد سوءاً يوماً بعد يوم ، ويظـــهر فــى مقدمة الأحداث بشكل متزايد . ولكن أصحاب المصالح قد استطاعوا تحويل

(1) ibid p , 103 : Hans Kueng , " Intercultural Dialogue Versus Confrontation " .

الانتباه من هذه التطورات المأساوية إلى افتعال صورة أخرى لعدو جديد يتمثل فى الإسلام . وبذلك استطاعوا أن يضعوا فى الفترة الأخيرة الكثير من أعمال العنف ضد العديد من الشعوب فى إطار منظور مصطنع .

وإذا كان الأمر الذى يراد إبرازه من خلال ذلك قد جعل من الحضارة الإسلامية عدواً يجب محاربته فإن هذا يبرهن على مدى ذكاء وخبث أصحاب المصالح الذين أشرنا إليهم والذين يدفعون إلى ذلك . ولكنه يبرهن أيضاً بصفة خاصة على تجاهل وتخلف عالمنا المتقدم تكنولوجياً ، هذا العالم الذى ترك نفسه بسهولة يساق إلى هذا الموقف الصعب والذى هو فى حقيقة الأمر ضد مصلحته .

وإن نظرة سريعة على التاريخ تبين لنا أن الحضارات فى حد ذاتها ـ والتى تؤكد فى جوهرها على المعنى الإنسانى ـ لا يمكن أن تكون عدواً لنا أبداً ، وإنما هى على العكس من ذلك بمثابة المنقذ وطوق النجاه . وقد كافحت البشرية دائماً من أجل بقائها عن طريق تنمية الحضارة . وفوق ذلك فإن وجودها قد أصبح ممكناً عن طريق تعدد الحضارات التى عاشت متجاورة . وتعدد الحضارات لا يمثل عقبة أمام وحدة العالم ، بل العكس هو الصحيح وهو أنه يمثل إثراء للتجربة البشرية . وبهذا المعنى تنتمى كل الحضارات إلى الكنوز الكبرى لعالمنا ، والتى يجب الحفاظ عليها من أجل استمرار بقاء البشرية ، فإن ما تشتمل عليه هذه الحضارات من قيم روحية وأخلاقية كفيل بحماية عالمنا من الإنهيار .

٤- ضرورة الحوار :

ونعود مرة أخرى إلى موقف عصرنا وإلى قضية الحوار . إن مما لا شك فيه أن الوضع الحالى للعالم وضع مخيف نتيجة للزيادة الرهيبة المتصاعدة دائماً فى أعداد السكان ، ونتيجة للعولمة الاقتصادية " المتوحشة " والتلوث البيئى المتنامى ، والإرهاب العالمى المدمر والخوف من حدوث حرب عالمية ثالثة تأكل الأخضر واليابس .

ولكن الحضارات والحوار فيما بينها بالمعنى الشامل وعلى جميع الأصعدة هو الأمرُ الذى يستطيع أن يعيد للبشرية الأمل فى البقاء . ولذلك يقال بحق إنه ليس هناك شيء أكثر خطراً من وجوب الاستعداد لمواجهة مزعومة بين الإسلام والمسيحية [1] .

وكل هذه الأمور المشار إليها بكل ما تتضمنه يمكن معالجتها بطريقة بناءة فى إطار حوار موضوعى هادئ إذا توفرت الإرادة الصادقة والنوايا المخلصة . ومن هنا نؤكد على ضرروة الحوار بين الإسلام وأوروبا . فإن مثل هذا الحوار يمكن ـ فى حالة نجاحه فى خلق جو من الثقة ـ أن يخلخل التمسك الجامد بالأحكام المسبقة والمواقف المنحازة والضارة . وبذلك ينفتح الباب أمام النظر إلى الحقائق بتجرد ودون عوائق .

ومن أجل ذلك فإن علينا جميعاً أن نعيد النظر فى طرائق تفكيرنا ، وعلينا أن نصنع شيئاً جديداً يضع الأمور فى نصابها ويصحح الخلل الذى أصاب موازين العدالة الدولية .

وفى هذا الصدد لن يستطيع الفكر التقليدى المتحجر ولا الفكر " العصرى " الداعى إلى التخلص تماماً من كل الموروثات الدينية والثقافية

---

(1) ibid , p . 12

أن يقدم شيئاً يفيد فى الخروج من المأزق الراهن . ومن هنا يظـــل الحـــوار العاقل هو الطريق الأمثل من أجل التوصل إلى حل للمشكلات الراهنة ، وفى الوقت نفسه من أجل تمهيد السبيل أمام النظرة المستقبلية المتفائلة وإزالة كــل العقبات التى تعترض هذا السبيل .

وهذا أمر يتطلب أن تسير محاولات تأكيد الذات الحضارية فى مثل هـذا الحوار جنباً إلى جنب مع الجهود الرامية لتوسيع آفاقنا الفكرية مـــن خــلال الالتقاء مع الآخرين . فالواقع يبين لنا أننا نعيش اليوم أحياناً متجاورين مـــع الآخرين فى المسكن أو مشاركين لهم فى مكان العمل . ومن أجل ذلك أصبح الحوار فى كل مجالات الحياة أمراً حتمياً يمثـــل الفرصـــة للفـــهم المتبـــادل والتعاون المشترك .

ولا جدال فى أن النقد له بطبيعة الحال مكان هام فى الحوار . ولكـــن النقد الذى ينصب فقط على إبراز أخطاء حضارة الآخرين يمكن أن يـــؤدى بسهولة إلى نظرة متعالية تتسم بالغطرسة والاستعلاء . ومن هنا يجـــب أن يسير هذا النقد للآخرين على نحو موضوعى جنباً إلى جنب مع النقد الذاتـــى الواعى بالأخطاء والمواقف الخاطئة للحضارة التى ينتمى إليها من يوجـــهون النقد لحضارة الآخرين .

ولنا هنا فى الإمام الشافعى أسوة حسنة . فقد كان ــ رحمه الله ــ يقول : " **رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب** " .

إن الفهم الإيجابى للخصوصيات الحضارية للآخرين يمكـــن أن يـــؤدى أيضاً إلى فهم ذاتى إيجابى وإلى تفهم أفضل لتفرد وجهة النظر الخاصـــة . وهذا يعنى أننا فى حاجة إلى الآخر مثلما أن الآخر فى حاجة إلينا .

إن الآفاق المتفتحة عن طريق مثل هذا الحوار العاقل تجعل من الممكــن التحرر من الفكر " الكهفى " الضيق . وبذلك يكون المرء فى وضع يمكنه من

رؤية ومواجهة الفكر الأصولى السلبى والفكر اليمينى المتطرف اللذين انتشرا على كلا الجانبين فى العقود الأخيرة مثل النبات العشوائى .

إن المطلوب اليوم بإلحاح هو فكر مسئول ــ بكل معانى المسئولية ــ يجعل الأمل فى مستقبل هادف أمراً ممكناً ويستطيع أن يسهم فى صنع هذا المستقبل ، والسير بإرادة جادة فى طريق السلام .

إن هناك تعبيراً ألمانياً يقول : عندما تكون هناك إرادة يكون هناك طريق .

والطريق فى الإسلام موجود عندما تكون هناك إرادة للسلام وعندما يكون السلام هو المستهدف . ولا شك فى أننا جميعاً نريد السلام ، ونشعر بالسعادة عندما نجد الطريق إليه .

٥ــ طرق الحوار :

إن مما لا شك فيه أن هناك طرقاً كثيرة مختلفة للحوار ، ولكن كل محاولة للحوار لا يمكن أن يكتب لها النجاح إلا إذا توفرت النية الصادقة والإرادة المخلصة ــ كما سبق أن أشرنا ــ . ونحن جميعاً مسئولون عن العالم الذى نعيش فيه بصفة عامة ومسئولون عن أعمالنا بصفة خاصة . ويمثل وعينا الحقيقى بمسئوليتنا عن العالم وعن السلام فيه طريقاً للحوار .

والمسئولية الإنسانية التى نشترك فيها جميعاً لا تتعلق فقط بدائرتنا الخاصة وبأفراد مجتمعنا الخاص ، وإنما تتعلق أيضاً بأفراد المجتمعات الأخرى التى نرتبط معها بعلاقات أو صلات . والعالم كله اليوم يرتبط بعضه بالبعض الآخر فى صورة من الصور . وهذا أمر يدعو إلى احترام كل الأديان وكل الحضارات التى تدعو إلى احترام كرامة الناس المشاركين لنا فى الإنسانية ، وتحاول التعايش معها تعايشاً سلمياً إيجابياً . واحترام

كرامة الإنسان واحترام الحضارة الأخرى التى ينتمى إليها يشكل طريقاً آخر للحوار . ولكن هذا يجب أن يكون أمراً متبادلاً وليس من جانب واحد . وقد كان الفيلسوف الألمانى " كانت " محقاً تماماً فى قوله : " إننى إذا دمرت كرامة إنسان وقضيت على احترامه لذاته فإننى لا أستطيع أن انتظر منه التزاماً أخلاقياً " .

إن المعرفة العميقة بالقيم التى تمثلها حضارة الآخرين وعقيدتهم الدينية يمكن أن تفتح الطريق أمام الحوار الحضارى ، لأن هذه المعرفة من شأنها أن تبين لنا أننا نشترك مع الآخرين فى قيم حضارية ودينية كثيرة . وهذا يؤدى بنا إلى احترام الآخرين . واحترام كرامة الإنسان واحترام حضارته يعنى فى المقام الأول احترام حقوقه الإنسانية . وكل إنسان ــ من المنظور الإسلامي ــ له الحق فى حماية حياته وعقله ودينه وماله وأسرته ، بصرف النظر عن جنسه أو عرقه أو انتماءاته الدينية والحضارية .

ويؤكد الإسلام أن التعايش الإيجابى بين الحضارات والشعوب والأديان ، وكذلك التنافس فيما بينها فى الخيرات يعد شرطاً مبدئياً لقيام مجتمع عادل تصان فيه حقوق الإنسان وتحترم كرامته . كما يؤكد أيضاً أن تعددية الشعوب والحضارات وتفرد كل منها بخصوصياتها الدينية والحضارية لا يشكل عقبة فى طريق خير الإنسانية ، وتوحدي جهودها ، بل يمثل إثراء للتجربة الإنسانية . ولكن سيطرة حضارة منفردة وتسلطها على مقدرات العالم من شأنه أن يؤدى إلى إنعدام السلام والأمن وإلى محاولات التوحد التعسفى الذى لا حياة فيه ولا روح ، ويؤدى فى النهاية إلى المجتمع الشمولى الذى لا يريده أحد فى حقيقة الأمر لما يعنيه ذلك من ضياع لحقوق الإنسان وامتهان لكرامته .

ودروس التاريخ شاهدة على ذلك . والمحاولات التجميلية التى تتخذها العولمة الراهنة لتحسين صورتها من أجل فرض قيمها ونظمها لا يمكن أن تنطلى على عاقل . وإذا كان يجوز عولمة الاقتصاد وما يتصل به فإن الحضارة بطبيعتها لا تقبل العولمة التى تسعى إلى الهيمنة وتحاول تذويب الحضارات المختلفة فى حضارة واحدة .

٦ـ الحوار والتعددية الحضارية :

وإذا أمعن المرء النظر فى التاريخ العام للحضارات الإنسانية فإنه يستطيع أن يتبين بوضوح أن التعددية الحضارية كانت دائماً هى القاعدة ، على الرغم من الطبيعة الواحدة للإنسان فى كل زمان ومكان والتى يشترك فيها كل الناس . وإذا كان الله قد خلق كل فرد من أفراد الإنسان بشخصية مستقلة تميزه عن غيره من أبناء جنسه ، وأعطانا لذلك رمزاً محسوساً فى عدم وجود شخصين فى هذا العالم يتفقان فى بصمة إبهامهما فإن الأمر كذلك بالنسبة للحضارات التى بناها ويبنيها الإنسان . فكل حضارة لها بصمة معينة تميزها عن غيرها . والتمايز الحضارى لم يكن فى يوم من الأيام يمثل عقبة فى سبيل التفاعل والتواصل بين الحضارات . ومن أجل ذلك لا توجد حضارة إنسانية عريقة نمت وتطورت دون أن تتأثر بغيرها من الحضارات . فالتراث الإنسانى أخذ وعطاء ، ولا توجد أمة عريقة فى التاريخ إلا وقد أعطت كما أخذت من هذا التراث ، ولم تشذ حضارة من الحضارات الكبيرة عن هذه القاعدة .

ومن هنا نجد أن الحضارة الإسلامية قد شيدها المسلمون شيئاً فشيئاً فى تبادل حى مع الحضارات الأخرى التى التقت بها . ويؤكد الفيلسوف العربى العظيم ابن رشد أهمية الالتقاء بين الحضارات مبرزاً ضرورة الاطلاع على

ما لدى الآخرين من ثقافات ومبيناً أن ذلك يُعد واجباً شرعياً ، ويضيف قائلاً : " فما كان منها موافقاً للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه ، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم " (١) .

وقد اهتم المسلمون منذ البداية بالحضارات الأخرى اليونانية والفارسية والهندية ، ودرسوا بصفة خاصة المؤلفات الفلسفية والعلمية اليونانية التى ترجموها إلى اللغة العربية وأثروها بتعليقات هامة . ومن خلال البحث المستقل فى كل ما تعرفوا عليه من ثقافات استطاعوا أن يضيفوا أفكاراً وتصورات جديدة وأن تكون لهم ثقافتهم وفلسفتهم الخاصة بهم .

وأوروبا من جانبها قامت خلال القرون الثلاثة الأولى من الألفية الثانية بترجمة مؤلفات العلماء والفلاسفة العرب إلى اللغة اللاتينية . ومن الجدير بالذكر فى هذا الصدد أن أوروبا قد تعرفت لأول مرة على الفلسفة اليونانية عن طريق المؤلفات العربية . وفيما بعد فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، أى بعد فتح القسطنطينية على يد الأتراك العثمانيين وهجرة العلماء اليونان إلى إيطاليا ، بدأ الأوروبيون فى ترجمة المؤلفات اليونانية مباشرة من اليونانية إلى اللغة اللاتينية .

وينبنى استعداد المسلمين للحوار على أساس أن الإسلام يدعو صراحة إلى الحوار المثمر . ويرى ـ كما سبق أن أشرنا ـ أنه عندما يشتغل المرء بحضارات أخرى ويعمل فى الوقت نفسه على حماية حضارته أن يكون ذا عقلية ناقدة حتى يستطيع أن يميز بين ما يفيد وما لا يفيد . ولكن الإسلام يطلب فى الوقت نفسه ضرورة التأكيد فى الحوار على القواسم المشتركة ،

---

(١) ابن رشد : فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال . ص ١٣ (ضمن مجموع بعنوان : فلسفة ابن رشد ـ المكتبة المحمودية التجارية ١٩٦٨م) .

وتجنب الاختلافات العقائدية التى لا طائل من وراء الاشتغال بها . وبهذه الطريقة يصبح الطريق ممهداً أمام التوصل إلى ما فيه الخير والسلام للجميع .

٧ـ التأثير المتبادل :

ولا جدال فى أن الحوار من شأنه أن يثرى تبادل الأفكار والرؤى بين الحضارات وهذا بدوره يثرى الحوار . وقد شيدت أوروبا حضارتها الحديثة وقامت بتطويرها وعملت على تنمية ذاتها من خلال التفاعل الحضارى . وهكذا استطاعت أوروبا فى العصر الوسيط أن تتحرر ـ كما هو معروف ـ من الفكر الاعتقادى الضيق عن طريق تلقيها مؤثرات ودوافع علمية وحضارية هامة من الحضارة الإسلامية التى كانت حينذاك تعيش عصر ازدهار حضارى لا نظير له فى أى مكان فى العالم . وبذلك أصبحت أوروبا فى وضع يؤهلها لتغيير مسارها نحو التجديد الذى تم فى عصر النهضة ، واستمر فيما بعد فى عصر التنوير .

وهناك فلاسفة وأدباء أوروبيون مرموقون تأثروا ـ كما أثبتت ذلك البحوث العلمية ـ بالفلسفة والأدب العربيين إما بطريق مباشر أو غير مباشر .

واليوم نجد الأمر على العكس من ذلك . فالعالم الإسلامى من جانبه يأخذ منذ بعض الوقت الكثير من الإنجازات الأوروبية العلمية والتكنولوجية . ولكن المسلمين فى الوقت الذى يأخذون فيه بالمدنية التكنولوجية لعالمنا يسعون لإحياء حضارتهم وذلك للحفاظ على ذاتيتهم من ناحية ، ولأنها توفر لهم التكيف المطلوب مع متطلبات العصر من ناحية ثانية . وهذا أمر لا تستطيع المدنية التكنولوجية السائدة أن توفره لهم .

وليس هناك من شك فى أن المسلمين يسعون منذ عقود كثيرة ــ منذ أن تحرروا من السيطرة الاستعمارية الأجنبية ــ إلى تحديث مجتمعاتهم . وقد حققت كثير من البلاد الإسلامية فى هذا السبيل تقدماً كبيراً ، الأمر الذى يجعل العالم الإسلامى قادراً على المشاركة الفعالة فى تكوين نظام للسلام العالمى . وإنه لمن الأهمية البالغة للوصول إلى هذا الهدف ــ كما ألمحنا إلى ذلك من قبل ــ أن يكون هناك على وجه الخصوص حوار مثمر بين الإسلام وأوروبا . فالقواسم الكثيرة المشتركة بين الحضارتين تجعل مثل هذا الحوار أمراً ممكناً ومطلوباً . ومن أجل ذلك فإن من الضرورة التأكيد عليها ، لأنها تفتح الطريق للحوار .

٨ـ القواسم المشتركة :

لقد قال بسمارك ذات مرة : " إن الحقيقة تكمن فى التفاصيل " . وسنحاول فى الصفحات التالية أن ندخل فى بعض التفاصيل التى من شأنها أن تسهم فى توضيح المطلوب .

إن هناك فى حقيقة الأمر الكثير من القواسم المشتركة بين أوروبا والعالم الإسلامى أكثر مما يتصوره المرء فى هذا الجو الراهن المشحون بالكثير من الاختلافات والنزاعات .

فأوروبا والبلاد الإسلامية يربط بينهما جغرافياً البحر الأبيض المتوسط ، فهما جيران لبعضهما البعض ويشتركان لذلك فى المصلحة المشتركة لاستقرار وضمان أمن بلادهما . ولكن هناك سبباً آخر هاماً يجمع بينهما وهو أن ما يربط بينهما من قواسم مشتركة يفوق ما يفصل بينهما ، الأمر الذى يجعل الحوار بينهما بصفة مبدئية أمراً ممكناً وواقعياً . وأقصد هنا الخلفية الحضارية التى سبق أن ألمحنا إليها لكلا العالمين الأوروبى والإسلامى والتى تتمثل فيما يربط بينهما من تاريخ طويل من التأثير الحضارى المتبادل .

ويضاف إلى ذلك قاسم أساسي مشترك . فدين كل منهما ــ الإسلام والمسيحية ــ واللذان يعدان القاعدة الأساسية لحضارتيهما ، يتطابقان في رسالتيهما تطابقاً جوهرياً ، وبصفة خاصة في تأكيدهما للرحمة الإلهية التي تعلو على كل القوانين والتشريعات . وكلاهما يؤكد مسئولية الإنسان عن العالم . فالإنسان هو خليفة الله في الأرض . وبذلك أصبحت له السيادة على العالم ، ولكنه في الوقت نفسه مسئول عنه .

والدين كما قال النبي عليه الصلاة والسلام يتمثل في حسن الخلق [١]. وهذا يعني الاستقامة والسلوك القويم . والقيم الأساسية لكل الأديان متماثلة . ولكن لا يكفي أن نعرف من الناحية النظرية أن كل الأديان تتفق في القيم ، لأن الأمر يدور بصفة خاصة حول تحققها . والإطار لذلك تصنعه الحضارات المختلفة . ولا جدال في أنه لا يمكن إجبار أحد على تحقيق هذه القيم . ولكن المواقف الحرجة في وقت الأزمات يمكن أن تلفت نظرنا إلى أننا إذا راعينا ظروف إخواننا في الإنسانية فإننا بذلك في نهاية الأمر نخدم مصالحنا ذاتها أيضاً . ونحن اليوم نجد أنفسنا في مثل هذا الموقف . وللتغلب عليه يحتاج الأمر دون شك إلى إعادة النظر في تفكيرنا .

والأمر الجدير بالذكر أن المرء قد تعلم أن يعيد النظر في تفكيره في مجال الاقتصاد [٢]. وبناء على ذلك توصل بعد بحوث طويلة ــ وبصفة خاصة مع مراعاة التطورات المستقبلية ــ إلى نتيجة مؤداها أن مستقبل الشمال ، أي البلاد الغنية ، مرتبط بتنمية الجنوب ، وأن ما يسمى اليوم بـ " العولمة المتوحشة " . يجب أن تتوقف وتترك المجال لصالح " عولمة

---

(١) راجع : كنز العمال جـ ٣ ، ٥٢٢٥ ص ١٧ . وهناك روايات أخرى قريبة من هذا المعنى جاءت في مسند الإمام أحمد بن حنبل جـ ٤ ص ٣٨٥ ، جـ ٦ ص ٤٧ .

(٢) Spiegel,p. 125

متحضرة " [١] . يمكن أن تراعى حقوق كل المواطنين فى العالم والفقراء من بينهم بطبيعة الحال .

ومن أجل هذا الغرض يجب أن تستعيد السياسة سلطتها التى سلبت منها لصالح الاقتصاد ، وذلك بأن تكون سياسة كونية [٢] . لأن المشكلات الكونية لا يمكن حلها إلا بوسائل كونية ، وهذا يعنى أن الأمر يتطلب تعاوناً كونياً [٣] . ولكى يمكن منع حرب عالمية ثالثة مدمرة فإنه يتحتم بصفة خاصة أن تعطى الصلاحيات كاملة للأمم المتحدة ومنظماتها من أجل أن يكون هناك تفعيل لدورها فى ضمان حقوق كل الشعوب دون استثناء [٤] . ولا يجوز أن يترك الأمر لبعض القوى العظمى لتنفرد وحدها بالتحكم فى مصير العالم .

ومن أجل تحقيق الهدف المطلوب فى قيام عولمة متحضرة وسياسة عالمية فعالة فإن هناك ضرورة ملحة لإجراء حوار دينى وحضارى يستطيع أن يبنى السلام . فعالم صدام الحضارات كما صوره هنتنجتون عالم لا مستقبل له ، فالصدام الذى تنبأ به بين الحضارات ليس سببه فى حقيقة الأمر الحضارات ذاتها ، وإنما يرجع السبب فيه إلى المتطرفين والأصوليين على كلا الجانبين ، وهذا يعنى أقلية من المجتمعات [٥] .

ولكن خطورة دعوى هنتنجتون أنه إذا تم الترويج لها على نطاق واسع عن طريق وسائل الإعلام فإنها يمكن أن تتحول بسهولة إلى أن تصبح أمراً واقعياً . وهذا هو مكمن الخطر فى هذه الدعوى التى ليس لها أساس علمى سليم [٦].

ولا شك أن الترويج لهذا الصدام الكونى المزعوم للحضارات يمكن ــ كما يقول هانز كونج [٧] ــ أن يعمل على خلق جو من الخوف والرعب

---

(1) Ibid p, 132 f .
(2) ibid p, 131 f
(3) Herzog , p. 12
(4) Spiegel . p. 131 f
(5) Herzog , p. VIII
(6) ibid p. 50
(7) ibid p . 103

يستخدمه أصحاب المصالح فى تحقيق أغراضهم التى هى بالقطع أغراض مناقضة لجهود السلام .

ولنا هنا وقفة ضرورية تعقيباً على دعوى صدام الحضارات :

إن هدفنا ينبغى أن يظل دائماً متمثلاً فى حماية الحضارات والحفاظ عليها وليس الهجوم عليها وتدميرها . فالحضارات تشكل التقدم المادى والروحى للإنسانية ــ كما قال ألبرت شفيتسر ــ ، إنها حصلية تجارب البشرية فى سعيها نحو التقدم والرقى والسلام على مدى التاريخ ، إنها تعنى التسامح وقبول الآخر والانفتاح على كل الحضارات والثقافات والأديان . ومن أجل ذلك فإنها تمثل حصون الإنسانية ضد النزاعات العبثية والمدمرة ، ولكنها ليست بالقطع سبباً لها ، لأن هدف الحضارات الحقيقى هو بناء نظام يضمن للإنسانية العدل والأمن والاستقرار .

إن أسباب النزاعات ليست ــ كما يزعم هنتنجتون ــ فى اختلاف الحضارات . فالصدامات تنشأ أيضاً داخل الحضارة الواحدة مثلما حدث ذلك فى الحربين العالميتين فى القرن الماضى . والأمر الجدير بالذكر هنا أن ضحايا هاتين الحربين داخل الحضارة الأوروبية قد زاد على خمسين مليوناً من البشر وذلك خلال نحو عشر سنوات فقط (من ١٩١٤ ــ ١٩١٨م ومن ١٩٣٩ــ ١٩٤٥م) فى حين أن أعداد ضحايا الحروب التى دارت بين أوروبا والإسلام على مدى أربعة عشر قرناً من الزمان تعد بالنسبة إلى ذلك قليلة جداً ولا وجه للمقارنة بينها وبين ضحايا الحربين العالميتين .

ومن هنا فإنه إذا حدثت صدمات بين الحضارات فإنه يتحتم البحث عن أسباب أخرى لها غير الحضارات ذاتها ، فقد تكون الأسباب متمثلة فى السعى للسيطرة السياسية لبعض أصحاب المصالح أو الهيمنة لبعض القوى العالمية على مقدرات العالم أو السعى للحصول على مصالح مادية وغير ذلك من أسباب مشابهة .

والإسلام على كل حال دين يرفض دعوى الصدام بين الحضارات ، ويدعو إلى الحوار بينها . ومن هنا يقول القرآن الكريم حول الاختلافات بين الشعوب والعلاقات فيما بينها : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا** ﴾ . (الحجرات :١٣) .

ففى الحوار تستطيع الشعوب أن يتعرف كل منها على الآخر ، وأن يثرى بعضها بعضاً عن طريق التبادل الحضارى والثقافى .

ويبين القرآن الكريم فى وضوح أن الاختلافات بين الأديان لا يجوز بأى حال أن تقود إلى أى حرب من أجل السلطة وهيمنة القوة ، وبدلاً من ذلك يدعو القرآن إلى تنافس سلمى فى الخيرات وإلى تفاعل مثمر بين الحضارات . ويشير إلى أن الله قد جعل لكل أمة شريعة مختلفة وطرقاً مختلفة . ولكن الهدف بالنسبة للجميع هو ذات الهدف . ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة** ﴾ (المائدة :٤٨) . وقد كان الله قادراً على أن يخلق الناس جميعاً أمة واحدة ، ولو كان ذلك قد حدث لما كان هناك ضرورة إلى حوار دينى أو حوار حضارى أو تنافس فى الخيرات بين المجتمعات ، إذ لن يكون هناك فى هذه الحالة إلا أقل القليل من العمل أمام الناس ، وبذلك يصبح العالم عالماً لا طعم له ولا لون ولا معنى لوجوده أصلاً .

إن الإسلام حين يدعو إلى الحوار فإنه يدعو فى الوقت نفسه إلى التضامن العالمى بين كل الشعوب حتى تستطيع أن تتحمل معاً المسئولية عن هذا العالم .

ولكن هنتنجتون يذهب فى دعواه لصدام الحضارات مذهب الفيلسوف الإنجليزى توماس هوبز الذى كان يرى أن الإنسان ذئب بالنسبة لأخيه الإنسان ، وأن الكل فى حرب ضد الكل . لقد أثبتت لنا الحربان العالميتان

الأخيرتان مدى عبثية الحروب . فالحروب لا تحل المشكلات ، بل تؤدى فقط إلى تفاقم المشكلات وإلى تدمير لا معنى له . وعلينا أن نتعلم من دروس التاريخ حتى لا نكرر نفس الأخطاء مرة أخرى .

وإذا أردنا أن نؤمن أنفسنا ضد هجوم منتظر من جانب جيراننا فإننا لا يجوز بأى حال من الأحوال أن نسمح بتدمير أساس حضارتهم ، لأن الحضارة ستبقى هي الفرصة السانحة للتوصل إلى حل سلمى لأى نزاع . ولا يفوتنا فى هذا المقام ــ قبل أن نختتم حديثنا ــ أن نتناول قضية الإرهاب الذى أصبح اليوم يمثل ظاهرة عالمية وفى الوقت نفسه يدمر فرص الحوار بين الحضارات .

إن هدفنا جميعاً فى هذا الصدد يتمثل فى ضرورة محاربة الإرهاب فى شتى صوره وأشكاله . ونحن إذ نعبر جميعاً عن غضبنا ورفضنا لأحداث الحادى عشر من سبتمبر من العام الماضى ٢٠٠١م فإن ذلك لا يجوز أن يؤدى بنا إلى أن نعاقب على ذلك أناساً أبرياء لا ذنب لهم ولا جريرة بحجة محاربة الإرهاب ، كما يحدث ذلك فى فلسطين وبالنسبة للعراق وغيرهما من شعوب أخرى لا صلة لها من قريب أو بعيد بهذه الأحداث . إن من شأن ذلك أن يؤدى إلى استمرار دوامة العنف العبثى ، ويؤدى بالتالى إلى تدمير فرص المستقبل . وهذه القضية يمكن أن تتضح معالمها فى حوار حقيقى بين الحضارات . ومن أجل ذلك لابد لنا من إلقاء نظرة على موضوع الإرهاب من وجهة النظر الإسلامية .

إن من الملاحظ أن هناك ــ بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ــ اتجاها قويا يربط بين الإسلام والإرهاب . ويبدو الأمر كما لو أن العالم قد استيقظ فجأة ليرى أمامه دينا جديدا غريبا يريد إرهاب العالم .

وحقيقة الأمر أن الإرهاب موجود فى كل الحضارات وأنه أصبح ظاهرة عالمية . وقد عانت أوروبا نفسها على سبيل المثال من الإرهاب فى النصف الثانى من القرن العشرين بصفة خاصة فى سلسلة من العمليات الإرهابية من جانب جماعات معينة ، لا يزال بعضها يمارس نشاطه حتى اليوم كما هو حادث في ايرلانده وإقليم الباسك في أسبانيا . ولم تسلم الولايات المتحدة الأمريكية نفسها من الإرهاب الداخلى قبل أحداث الحادى عشر من سبتمبر . وحادث الهجوم على برج التجارة العالمى فى أوكلاهوما وإطلاق الغازات السامة في مترو الأنفاق في اليابان ومقتل رابين فى إسرائيل وغيرها من أعمال إرهابية لا تزال حاضرة في الأذهان .

ولكن على الرغم من أن بعض هذه الجماعات الإرهابية تعلن انتماءها إلى الدين الذى تدين به فإن المرء لا يسمع إطلاقاً أى ربط بين الإرهاب وبين الأديان الأخرى مثل المسيحية أو اليهودية أو البوذية أو الهندوسية . ومن أجل ذلك يفرض السؤال التالى نفسه : لماذا هذا الترويج الإعلامى فى الفترة الأخيرة للربط بين الإسلام وحده من بين كل الأديان وبين الإرهاب . إن الإسلام موجود منذ أربعة عشر قرناً من الزمان . وكما أن الأديان الأخرى غير مسئولة عن أى عمل إرهابى يقوم به بعض أتباعها فكذلك الإسلام غير مسئول عن أى عمل إرهابى يقوم به بعض المسلمين حتى وإن رفعوا أيضاً شعارات إسلامية .

إن الإرهاب لم يكن فى السابق ولن يكون فى المستقبل أيضاً سمة مميزة للإسلام تميزه عن غيره من الأديان . لقد برهن الإسلام دائماً على قدرته على السلام ، ليس فقط خلال القرون العديدة التى شهدت عصر الازدهار الحضارى للمسلمين ، بل وفى كل عصور التاريخ الإسلامى ، وقدمت الحضارة الإسلامية فى الأندلس نموذجاً يحتذى به للتعايش الإيجابى بين أتباع

ديانات التوحيد الثلاثة الإسلام والمسيحية واليهودية . وذلك على النقيض مما فعله الاستعمار الغربى فى العصر الحديث من تخريب وتدمير وسلب ونهب لثروات بلاد المسلمين وتطبيق لسياسة " فرق تسد " لضمان استمرار بقائه فى احتلال تلك البلاد .

وعلى مدى التاريخ الإسلامى كله ــ كما أكد ذلك الباحثون الغربيون أيضا ــ لم يحدث أن أجبر المسلمون أحدا على اعتناق الإسلام . فقد أعلن القرآن فى وضوح تام مبدأ حرية العقيدة فى قوله : **﴿لا إكراه فى الدين ﴾** (البقرة :٢٥٦) . والإسلام بطبيعته دين متسامح ، ومن أجل ذلك يرفض كل شكل من أشكال الأصولية السلبية . ويعد السلطان صلاح الدين الأيوبى ــ كما يعلم الغرب ــ نموذجا للحاكم المسلم المتسامح الذى تعامل ــ بعد استعادته مدينة القدس ــ مع الصليبيين العائدين إلى بلادهم بتسامح منقطع النظير [١] . يعيد إلى الأذهاب ما فعله النبى عليه الصلاة والسلام مع أهل مكة حين دخلها فاتحا ، فقد عفا عنهم قائلا لهم : [**اذهبوا فأنتم الطلقاء**] .

كلمة ختامية :

وفى ختام هذه المحاضرة أود أن أؤكد مرة أخرى أن الصراعات بين الإسلام وأوروبا لم تكن أبدا هى القاعدة . وعندما يتحدث المرء عن هذه الصراعات فإنه لا يجوز له أن يتجاهل تاريخ العلاقات الإيجابية الحضارية بين الحضارتين . فهذا التجاهل يؤدى إلى خلق صورة مغلوطة تماما عن هذه العلاقات .

والحوار الحضارى بينهما هو الذى يستطيع أن يبرز الصورة الصحيحة للعلاقات الأوروبية الإسلامية ، وبذلك يمكن القضاء على المفاهيم الخاطئة

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٧٩٠ ــ ٧٩٥ ، القاهرة ١٩٧٦م .

الخاطئة والأحكام المسبقة بينهما والتخلص من صورة العدو المتبادلة على كلا الجانبين .

ويضاف إلى مهام الحوار ضرورة نقل المعلومات الصحيحة عن حضارة كل منهما للرأى العام عن طريق وسائل الإعلام وفى التعليم وذلك على مستوى كل مجالات الحياة . ولا يجوز أن يبقى الحوار مجرد حوار بين المثقفين الذين عليهم بطبيعة الحال مسئولية فتح المجال أمام كل فئات المجتمع بقدر الإمكان لهذا الحوار الحضارى ، وبيان مدى الأهمية الحاسمة بالنسبة للمستقبل لمثل هذه الجهود التى تصنع السلام .

وينبغى ألا يغيب عن الأذهان فى هذا الصدد مستقبل الأجيال القادمة التى لا يجوز أن نتركها أسيرة لحضارة سلبية مشحونة بأعمال العنف العبثية . ومن هنا فإن علينا ـ مسلمين وأوروبيين ـ أن نفكر كثيرا فى هذه الأجيال التى هى مستقبل عالمنا . فالأجيال الحالية والأجيال القادمة لم يكن لها ذنب لا فى الصراعات الحالية ولا فى الصراعات السابقة . ومن أجل ذلك فإننا مدينون لها بتهيئة الظروف المناسبة التى تستطيع من خلالها أن تنظر إلى المستقبل مدعومة بالأمل فى غد أفضل .

ولا جدال فى أن حوارا حضاريا بين الإسلام وأوروبا يركز على القواسم المشتركة ويبنى عليها يعد أيضا محاولة لخلق نماذج مثالية أمام شبابنا. وبذلك يمكن الإسهام فى وقف دوامة العنف العبثى الذى لا معنى له .

ويجب أن يكون واضحا أن إنقاذ البشرية لن يحدث عن طريق الدفاع الذى لا يتوقف ضد عدو مصطنع على كلا الجانبين وإنما عن طريق التأكيد على معنى الإنسانية فى الحضارة بالحوار العاقل الموضوعى الهادف . وبذلك يمكن أن نصنع باستمرار دوائر أوسع للسلام ونكسب المزيد من الأصدقاء الذين يكرسون جهودهم من أجل خير وسلام واستقرار هذا العالم الذى هو عالمنا جميعا .



الفصل الثالث

الإسلام والحوار بين الأديان

١ ـ تمهيـــــد

٢ ـ الحوار بين الأديان في نظر الإسلام

٣ ـ أهداف الحوار

٤ ـ عناصر مشتركة وإمكانات التعاون



الإسلام والحوار بين الأديان (*)

١ ـ تمهيد

إن مما لا شك فيه أن عالمنا فى أشد الحاجة إلى السلام . ولقد تعلمنا من دروس التاريخ باستمرار أن الحروب لا تستطيع أن تحل المشكلات ، بل يمكن أن تتسبب فى ظهور مشكلات جديدة . وعلى أحسن الفروض تؤجل بتكلفة باهظة حل المشكلات ، وقد تعقّد حلها تعقيداً يصل بها إلى درجة الاستعصاء التام .

وتستطيع الأديان من جانبها أن تسهم إسهاماً حقيقياً فى إقامة السلام إذا ما أنعمَت النظر فى مهمتها الحقيقية ونهضت بها ، ولكنها إذا استمرت فى المشاحنات والخصومات المتبادلة فيما بينها فإنها لن تتمكن من تأدية دورها الأصيل ، ألا وهو العمل من أجل السلام .

والدين لا يعنى الانصراف عن الدنيا والهروب منها ، لأن الإنسان يعيش فى الدنيا ، وهو جزء من الخليقة . والدين يؤهل الإنسان ليشغل المكان الذى حدده له الخالق فى هذه الحياة لكى ينهض بمهمته الإنسانية .

والإسلام يعلِّم الإنسان الفرد ويعلِّم الجماعات البشرية بصفة عامة الانفتاح على الدنيا ، لأنها من خلق الله سبحانه وتعالى ، مثلها فى ذلك مثل الإنسان ، الذى كلفه الله بأن يتحمل مسئوليتها . والقرآن الكريم يخبرنا أن الله

(*) محاضرة ألقيت في ندوة " مقاصد الحوار بين أديان التوحيد الثلاثية والأخطار التي تهدده " La Finalite du Dialogue entre Les trois Religions Monotheistes et les Dangers qui le menacent التى أقيمت فى جامعة السوربون ، باريس ، فى ١٣ يونية ١٩٩٤م .

جعل الإنسان خليفة له فى الأرض ، وأنه لذلك علم آدم الأسماء كلها (البقرة : ٣٠ـ٣١) ، وذلك يعنى العلم بأوسع معانيه .

ولقد كلف الإنسان بالحوار على كل المستويات حتى يكون قادراً على النهوض بمسئولياته . ومن أجل ذلك زوده الله باللغة وبالعقل ، والعقل يعنى الروح التى نفخها الله فيه عند خلقه (الحجر : ٢٩ ، ص : ٧٢) . ويختلف الإنسان عن المخلوقات الأخرى التى تعتمد على غرائزها الفطرية مما يجعل طبيعتها محدودة وبيئتها محدودة أيضاً ، أما الإنسان فإنه يتمتع بالحرية وبالتالى الانفتاح على العالم . ولهذا كان من الممكن أن تنشأ الحضارات الإنسانية المختلفة منذ خلق الإنسان . والحضارة هى من طبيعة الإنسان ، وهى فى الوقت نفسه فرصته ومهمته .

والأديان السماوية الثلاثة تتفق كل الاتفاق فى اعتبارها السلوك الأخلاقى شرطاً ضرورياً لنمو الإنسان الفرد ونمو المجتمعات البشرية . ولكن هذه الحقيقة كثيراً ما أسيء فهمها على مر التاريخ ، فتارة يكون التركيز على حقوق الإنسان الفرد وحده ، وتارة يكون التركيز على حقوق المجتمع وحده ، الأمر الذى يخل بالتوازن فى المجتمعات البشرية .

٢ ــ الحوار بين الأديان فى نظر الإسلام :

يبين لنا القرآن الكريم أن الأديان المختلفة يسلك كل منها سبيلاً مختلفاً عن غيره ولكنها جميعاً تسعى إلى هدف واحد :

﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فى ما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات .. ﴾ (المائدة : ٤٨) .

وبدلاً من أن يجعل الناس من اختلاف الأديان والثقافات والأعراق منطلقاً للنزاعات والصراعات من أجل السلطة والاستعلاء وسيطرة القوة ، عليهم أن يجعلوا منها منطلقاً للتعارف والتآلف والتآخى . وهذا ما يؤكد عليه القرآن الكريم فى قوله :

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾ (الحجرات : ١٣) . فالتعرف على الآخرين على اختلاف مشاربهم وأشكالهم واتجاهاتهم توسع أفقنا وتتيح لنا فهماً أفضل لإنسانيتنا . والإنسان الذى يعرف نفسه حق المعرفة يتجاوز الفروق بين البشر ويزداد معرفة بنفسه من خلال معرفته بالآخرين الذين يشاركونه فى الإنسانية . وتؤهله هذه المعرفة للتعاون الخلاق مع الآخرين والتسامح الخالص معهم والاستعداد للتفهم ، أى تؤهله للحوار . والمخلوقات البشرية كلها تكشف عن نفسها شيئاً فشيئاً لمن يدرك أنه مخلوق وأنه جزء من كل ، وبناءً على هذه المعرفة ، يرى الطرق المختلفة التى تسلكها الجماعات البشرية المختلفة طرقاً تؤدى فى حقيقة الأمر إلى نفس الهدف .

ويُعتبر الاعتراف بالأديان السماوية الأخرى وبأنبيائها ــ من وجهة النظر الإسلامية ــ عنصراً أساسياً من عناصر الإيمان . ومن هنا لا يجوز للمسلمين أن يفرقوا بين الرسل :

﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلٌ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله .. ﴾ (البقرة : ٢٨٥) .

وقد كان الإسلام من بين كل الأديان سباقاً إلى الدعوة إلى الحوار . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله .. ﴾ (آل عمران : ٦٤) .

كما حدد القرآن الكريم منهج هذا الحوار الذى ينبغى أن تتصل حلقاته بين الأديان :

﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾ (العنكبوت : ٤٦) .

والقرآن الكريم يأمر المسلمين بالتعايش السلمى الإيجابى مع كل الشعوب الأخرى وذلك بمعاملتها بالبر والعدل (الممتحنة : ٨) . أما إذا تعرض المسلمون للعدوان ، فعليهم بداهة أن يدافعوا عن أنفسهم ، وعليهم فى أثناء الحرب أن يتجنبوا ارتكاب أعمال منافية للأخلاق . فلا يجوز لهم أن يقتلوا الأطفال والنساء والشيوخ وغير المحاربين ، ولا يجوز لهم أن يمثلوا بجثث القتلى أو إساءة معاملة الأسرى أو قطع الأشجار وإفساد المزروعات .

وهكذا فإن الحوار المبنى على التسامح والمفعم بالتفاهم مع أتباع الأديان الأخرى يعد واجباً أوجبه الإسلام على المسلمين ، وهو فضلاً عن ذلك يمكنهم من أن يفهموا تدبير الله فى خلقه على نحو أفضل وأن يعبدوه ويسبحوا بحمده . ويبين لنا القرآن الكريم أن معيار التفاضل بين الناس أمام الله ــ أياً كانت انتماءاتهم الدينية والعرقية ــ هو درجة التقوى :

﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (الحجرات : ١٣) .

والتقوى تجعل الإنسان قادراً على الدخول فى حوار مع الآخرين . فهى التى تتيح له أن يكون إنساناً بمعنى الكلمة منفتحاً على الآخرين وساعياً إلى تحقيق الخير وإقامة العدل والسلام بين الناس .

والسلام هو الهدف الذى يسعى الإسلام إلى تحقيقه من خلال البشر . ويمكننا أن نتصور معنى السلام في الإسلام فى صورة ثلاثة دوائر متداخلة على النحو التالى :

الدائرة الأولى : تمثل السلام النفسى أو السلام مع النفس الذى يعنى التوازن العادل بين قوى النفس المختلفة . وهو سلام يتحقق على نحو سليم من خلال **الدائرة الثانية** التى تمثل السلام مع الله سبحانه وتعالى بالعقيدة الصحيحة والعمل الصالح ، وكلاهما يوفر الأساس المتين للسلام فى **الدائرة الثالثة** التى تمثل السلام مع الآخرين الذين يشاركوننا فى الإنسانية والسلام مع البيئة المحيطة بنا بكل ما تمثله من حيوان أو نبات أو جماد . وهذه الدوائر الثلاثة يؤثر كل منها فى الآخر .

وفى عصرنا الحاضر الذى تتقارب فيه الجماعات الثقافية والدينية فى قرية كونية تقارباً متزايداً تصبح قضية السلام والعدل بين الناس من القضايا ذات الأولوية المطلقة التى تزداد إلحاحاً كلما ازدادت صعوبة الإجابة عنها . وإنما تأتى الإجابة الصحيحة عنها من خلال الأديان عندما نفهمها حق الفهم ، أى من خلال الدين المُعاش .

ويؤكد القرآن الكريم فى هذا الصدد مبدأ حرية الإنسان فى اختيار عقيدته الدينية لما لذلك من أهمية حاسمة فى مسار حياته كلها :

﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ (البقرة : ٢٥٦) .

والدين يعنى التوجه الحر من جانب الإنسان نحو الله باختياره وهو الإسلام طواعية لإرادة الله .

ويرتبط بتعاليم القرآن الكريم التى تنص على أن السلام هو طريق الإسلام وهدفه ، أن الإسلام لا يجوز بحال من الأحوال نشره أو الدعوة إليه بالقهر والإجبار على الدخول فيه وإنما يكون ذلك بالقدوة الطيبة والدعوة بالحسنى وفى هذا المعنى يقول القرآن الكريم :

﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ (النحل : ١٢٥) .

٣ ــ هدف الحوار :

يظل الحوار بين الأديان حواراً فعالاً لا يتحــول إلــى مجــرد حديــث منفرد ، طالما كان معبراً عن السعى الحقيقى من جانب المتحــاورين إلــى السلام والعدل والتوصل إلى تفاهم خالص بين الأديان . وهو يتطلــب مــن المشاركين فيه موقفاً إنسانياً ، هو وحده الذى يتيح لهم اختراق جدار التعصب والأحكام المسبقة والأفكار المغلوطة والنزعات الداعية إلى العنــف ، ذلــك الجدار الذى عهدناه لا يكاد ينهدم حتى يقوم من جديد بين الأديان . والمؤكــد كل التأكيد أن الله سبحانه وتعالى ــ وهو الذى لا يظلم أحداً ــ لا يمكــن أن يكون فى جانب من يلاحق الأبرياء ظلماً وعدواناً حتى ولو كان ذلك باســم الدين ، ولا فى جانب من ينظر فى بلادة إلى هذا الظلم والعدوان ولا يفعــل شيئاً . والتعاون بين البشر كافة ينبنى على قاعدة متينة ــ كما يبين القــرآن الكريم ــ تتمثل فى أنهم جميعاً قد خلقوا من نفس واحدة (النساء : ١) ، وهو ما يعنى أن الإنسانية جمعاء على نحو ما بمثابة أسرة واحدة كبيرة . ومن هنا فأى عدوان على أى فرد من أفرادها يعتبره الإسلام كأنــه عــدوان علــى البشرية كلها ، وفى المقابل يعد تقديم الخير لفرد من أفرادها بمثابــة تقديــم الخير للإنسانية كلها (المائدة : ٣٢) .

والإنسانية التى يدعو الإسلام إليها تحض على احــترام كرامــة كــل إنسان . والإنسان له كرامته حياً وميتاً . وفى هذا المعنى روى البخــارى أن النبى صلى الله عليه وسلم نهض واقفاً تعبيراً عن احترامه للميت عندما مرت به جنازة . فلما قيل له إنها جنازة يهودى ، قال :

[أليست نفساً ؟] (١) .

---

(١) أخرجه الإمام البخارى فى كتاب الجنائز باب من قام لجنازة يهودى .

وأمر المسلمين بأن يقوموا احتراماً للميت كلما مرت بهم جنازة بغض النظر عن المعتقد الديني للميت .

أما تنوع الأديان وتنوع الثقافات العديدة التى انبثقت منها على مدى تاريخ الإنسانية ، فإن ذلك يرجع إلى أن وراء ذلك كله رسالة دين حق توالت باستمرار في صور متعددة . وتتمثل نواة هذه الرسالة فى علاقة الإيمان الحميمة التى تقوم بين الإنسان وربه مؤكدة إسلام المرء وجهه إلى الله الذى يعينه ويهديه سواء السبيل .

ويستطيع الإنسان الفرد مستعيناً بعقله أن يختار لنفسه العقيدة الدينية فى حرية تامة . ويمثل هذا الاختيار الحر اقتحام الإنسان " العقبة " إلى إنسانيته الحقة ومسئوليته الذاتية .

ولابد من دعم تنمية إنسانية الإنسان عن طريق التربية الصحيحة والتثقيف الرشيد ، وهذا من شأنه أن يوقظ فى الإنسان مهارات إبداعية وأن يؤهله للعمل المستقل الرشيد .

وفى عصرنا الحاضر ، وفى مواجهة الظروف المضطربة التى يتعاظم اضطرابها يوماً بعد يوم ، تتضح لنا بجلاء متزايد حقيقة المهمة التى تقع على كاهل الأديان . لقد أسهمت رسالات الأديان على مدى التاريخ فى بناء أنظمة حياتية واجتماعية فى عالمنا من شأنها أن تتيح لكل الناس بقدر الإمكان فرصة للتنمية . وبهذا يمكن الإسهام فى بناء السلام المنشود بين البشر .

ويختلف الإنسان عن المخلوقات الأخرى كافة ، فى أنه وحده الذى يتحمل مسئولية تشكيل حياته تشكيلاً حراً ، وفى أنه يشترك مع البشر الآخرين المؤهلين لهذه المهمة فى حمل مسئولية تدبير شئون الخليقة (الأحزاب : ٧٢) . ولكل إنسان دائرة مسئولية محددة ، ولكن هدفها جميعاً

ينبغى أن يكون منصباً على التكامل بين هذه المسئوليات مـــن أجـل إقامـة التوازن المؤدى إلى السلام فى العالم .

وليس هناك أحد من حقه أن يجبر غيره على سلوك هـذا الطريـق أو ذاك . فالقرار ينبغى أن يكون نابعاً من أعماق الذات فى حرية تامة . ومـن هنا وجدنا القرآن يؤكد على أن الناس أحرار فى أن يؤمنـوا أو يكفـروا . وبعبارة أخرى أحرار فى أن يسلكوا طريق الصـواب أو طريـق الخطـأ (الكهف : ٢٩) .

٤ ـ عناصر مشتركة وإمكانات التعاون :

إن هناك عناصر عديدة مشتركة بين الأديان السماوية الثلاثة تجعل التعاون فيما بينها أمراً ممكناً . وعلى رأس هذه العناصر المشتركة الإيمان بالله الواحد خالق كل شيء ، والذى دعا الناس إلى الإيمان به ، وإلى العمل الصالح ، كما دعاهم جميعاً إلى دار السلام .

والأديان السماوية الثلاثة لديها مبدئياً نفس منظومة القيم الأخلاقية بسماتها الأساسية ، وهى منظومة ملزمة للمؤمنين كافة .

وهكذا يقوم الحوار بين الأديان السماوية الثلاثة نتيجة لهذه العناصر المشتركة على أساس عريض . ومن المهم جداً أن تؤخذ هذه الحقيقة فى الاعتبار . وبدلاً من الاسترسال على النهج القديم فى التشاحن حول المعتقدات الجزئية ، ينبغى على ممثلى الأديان أن يجتهدوا عندما يتحاورون فى إبراز العناصر التى تشترك فيها الأديان وفى أن يعوها كل الوعى ، وأن يجعلوا منها نقاط انطلاق نحو التعاون المطلوب .

وتشترك الأديان السماوية الثلاثة أيضاً فى سعيها الدءوب نحو إقامة السلام وتحقيق موازين العدل .

ولا يجوز للأديان أن تشغل نفسها بالتنافس من أجل السلطة الدنيوية ، بل من أجل خير الناس ــ كما يقول القرآن الكريم :

﴿ .. لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فى ما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات .. ﴾ (المائدة : ٤٨) .

وإن نظرة سريعة إلى عالمنا الذى نعيش فيه تبين لنا ــ أياً كان الاتجاه الذى ننظر إليه ــ أن منظومات القيم الأخلاقية فى العالم تتفكك تفككاً متزايداً . ولا غرابة فى ذلك ، إذا ما تبينا أن أثر الأديان فى العصر الحديث قد تراجع تراجعاً ملحوظاً وهذا أمر ينعكس بصورة مباشرة على منظومة الأخلاق فى المجتمع ، لأن مصدر القيم الأخلاقية فى الأصل هو الدين .

وفى هذا المعنى يقول النبى محمد صلى الله عليه وسلم :

[إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق] [1] .

ومن أجل ذلك ينبغى أن يركز الحوار الدينى اهتمامه تركيزاً محورياً على العناصر المشتركة بين منظومات القيم الأخلاقية فى الأديان السماوية الثلاثة . ويتصل بذلك اتصالاً وثيقاً العناية التامة بقيمة العدل ، لأن العدل يعد هدف كل عمل أخلاقى . والعدل قيمة لا تتجزأ ولا تعرف الاستثناءات .

والحوار الدينى الذى ينبنى على أساس من العناصر المشتركة بين الأديان يمكنه أن يجد إمكانات كثيرة للتعاون . فهناك مشكلات مشتركة كثيرة لا يمكن حلها إلا بالتعاون .

ومن بين هذه المشكلات ــ على سبيل المثال لا الحصر ــ ما يأتى :

أ ــ مشكلة حماية مؤسسة الأسرة التى تمثل الخلية الأولى لكل حضارة إنسانية معروفة لنا ، والتى تتعرض اليوم للانهيار .

ب ــ وهناك مشكلة رئيسية أخرى تتعلق بدور الأديان وما إذا كانت قادرة على التعاون فيما بينها من أجل منع الحروب التى لا ضرورة لها ، أو ما إذا كانت تستطيع أن تعمل على الحيلولة دون تخريب الموارد الاحتياطية للأرض نتيجة حروب عبثية لا معنى لها ؟

ج ــ كيف يمكن أن تشترك الأديان جميعاً فى وقف الحروب الدينية التى تضطهد البشر ظلماً وعدواناً ، وتضطهد شعوباً بأكملها بسبب العقيدة . وأضعف الإيمان أن تصدر الأديان بيانات صريحة تدين فيها ارتكاب مثل هذه الأعمال المنافية للإنسانية ؟

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الأدب المفرد .

د ـ كيف يمكن أن تسهم الأديان بالتعاون فيما بينها فى محاربة الإرهاب والتطرف فى كل مكان فى العالم ، وتنتصر للحق والعدل بالوقوف مع الحقوق المشروعة للشعوب بصرف النظر عن انتماءاتهم الدينية والعرقية ؟

ومن البديهى أن التعاون بين الأديان لا يمكن أن يتحقق طالما بقيت الأديان تنظر صامتة إلى شعوب كاملة تتعرض بسبب عقيدتها للقهر والاضطهاد اللاإنسانى . ولهذا فإن الاستناد إلى معلومات صحيحة عن الأديان وعن العناصر المشتركة بينها من شأنه أن يساعد على اتخاذ المواقف الدينية الصحيحة التى تتسم بالتسامح والعدل . إن هناك ـ على سبيل المثال ـ إرهاباً وتطرفاً فى كل ربوع العالم ، لا فى العالم الإسلامى وحده ، كما يزعم البعض . وسيتبين لكل إنسان يسعى لمعرفة الحقيقة الموضوعية أن الإسلام ، عندما يحيط به علماً على نحو جيد ، يرفض رفضاً مطلقاً كل شكل من أشكال الإرهاب والتطرف . ومن المعروف أن كل سورة من سور القرآن الكريم تبدأ بالبسملة التى تتضمن التوجه إلى الله الرحمن الرحيم . ورحمة الله سبحانه وتعالى فى نظر الإسلام تشمل البشر جميعاً دون استثناء . ومن هنا فإن عليهم فى المقابل أن يسعوا إلى تحقيق العدل والسلام .

والحوار بين الأديان على نحو يؤدى إلى التعاون البناء هو السبيل الوحيد للتصدى بنجاح للظواهر السلبية فى عصرنا مثل : الإلحاد والانحلال والإدمان والإيدز والتعصب والتطرف فى الفكر أو فى السلوك . كذلك من شأنه أن يحقق نجاحاً أكبر فى حل مشكلات التنمية الاجتماعية والسياسية فى البلاد النامية .

إن من الضرورى المسارعة إذن فى مد أواصر التعاون بين الأديان من أجل حل كل هذه المشكلات لأنها تمس الإنسانية كلها بشكل أو بآخر . ولقد

صور النبى عليه الصلاة والسلام فى حديث له بشكل رمزى البشرية محمولة على ظهر سفينة واحدة ، ولهذا فإن على البشرية أن تنمى الشعور بالتضامن الجماعى فيما بينها إذا أرادت لسفينتها ألا تغرق . فالأرض تحمل البشر جميعاً وهى تشبه السفينة الفضائية التى تسبح فى الفضاء الكونى .

ويبين حديث النبى عليه الصلاة والسلام الخطر الذى تتعرض له البشرية عندما تنقسم على نحو لا إنسانى إلى طائفتين ، طائفة تقيم فى أعلا السفينة ، وطائفة أخرى تقيم فى أسفلها . أما الذين فى أسفل السفينة فعليهم كلما احتاجوا إلى الماء أن يصعدوا إلى أعلا السفينة ، ولكنهم فى نهاية الأمر ضاقوا بهذا العمل ذرعاً وفرغ صبرهم ، فقرروا أن يخرقوا خرقاً فى قاع السفينة ليتزودوا منه مباشرة بالماء . وهذا بطبيعة الحال عمل خطير من شأنه أن يعرض السفينة للغرق ويعرض ركابها جميعاً للهلاك . وينصح النبى صلى الله عليه وسلم بأن يقدم الذين يعيشون فى أعلا السفينة العون إلى الذين يعيشون فى أسفلها ، لكى يحولوا دون إعطاب السفينة وهلاك ركابها جميعاً .

وإذا صح عزمنا على أن نقيم حواراً سلمياً بين الأديان ، فلا ينبغى أن ننفخ فى نار الكراهية وعقد الماضى من جديد . وأجدر بنا أن نفكر تفكيراً إيجابياً يتجه إلى صياغة مستقبل ينعم فيه العالم بالسلام الضرورى له . إننا نواجه اليوم أجيالاً جديدة وبالتالى عوالم جديدة ، أجيالاً لا تلام على مظالم العصور الماضية التى لم ترتكبها ، ولا تمتدح على الإنجازات الإيجابية التى أنجزها السابقون . إن ما تحتاج إليه الأجيال الجديدة منا هو ألا نضيع عليها فرصة بناء حياة خصبة ، بل نقدم إليها العون على ذلك .



الفصل الرابع

الصراع والتعددية والتضامن
فى التصور الإسلامى

١ ـ الإنسان والنزاع

٢ ـ الإسلام والنزاع

٣ ـ تعددية المجتمعات البشرية

٤ ـ الإسلام والتضامن بين الناس

٥ ـ إرادة السلام

٦ ـ صلة الإسلام بالديانات السماوية الأخرى

٧ ـ دور الأديان فى العصر الحاضر

الصراع والتعددية والتضامن
في التصور الإسلامى (*)

١ ــ الإنسان والنزاع

يشهد عصرنا الحاضر نزاعات وصراعات عديدة فى مناطق كثيرة من العالم . ولعل ما شهدته البشرية فى القرن العشرين من نزاعات مسلحة يعد أشد ما عرفه الإنسان عنفاً ودموية على مدى تاريخه الطويل . وتلك مفارقة غريبة . فالمفروض أن الإنسان كلما ارتقى فى سلم التقدم والحضارة كلما كان أكثر ميلاً إلى السلام والاستقرار ، وأكثر بعداً عن العنف والإرهاب . ولكن ما حدث ويحدث فى عالم اليوم قد فاق جميع التوقعات .

والواقع أن النزاع فى حد ذاته ليس بالأمر الجديد على الإنسان ، إنه قديم قدم الإنسانية ذاتها . فبعد أن كان الإنسان ــ كما هو معروف فى الأديان السماوية ــ يعيش فى الجنة التى هى دار السلام أهبطه الله إلى الأرض التى بدأ فيها قصة النزاع التى لاتزال وستظل فصولها تتوالى بشكل أو بآخر إلى نهاية العالم .

(*) بحث قدم إلى مؤتمر " التوحيد والنزاع : سبل الوقاية وحل النزاعات بين الأديان التوحيدية الثلاثة فى حوض البحر الأبيض المتوسط " الذى أقامه معهد (Istituto Suor Orsola Benincasa) فى مدينة نابولى بإيطاليا من ١٣ــ١٥ ديسمبر ١٩٩٥م .

ولقد جاء التنبؤ بذلك على لسان الملائكة فى القـــرآن الكريـم عندمـا أخبرهم الله تعالى بأنه سيخلق الإنسان ويجعله خليفـــة فـى الأرض يقـوم بعمارتها وسكناها ، فقالوا : ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدمــاء** ﴾ (البقرة : ٣٠) .

فقد تصور الملائكة أن الأرض بدون الإنسان ستكون واحة سلام ، وأن الإنسان هو الذى سيعكر صفوها ، وعقدوا مقارنة بين مـا سـيصدر عـن الإنسان من فساد وإفساد وما يصدر عنهم من تسبيح وتحميد لله . فـهم فـى طاعة دائمة ﴿**لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ (التحريم : ٦) . ولكن الله رد عليهم بقوله : ﴿ **إنى أعلم ما لا تعلمون** ﴾ (البقرة : ٣٠) . فقـد اختص الله الإنسان دون الملائكة بمعرفة أسماء الأشياء التى بها يعمر الكـون ويقوم النظام فى العالم ، وميزه بالعقل الذى يبين له الخير من الشر والنـافع من الضار ، ومنحه الحرية ، وحمله المسئولية عما يصدر عنه من أفعال .

ومن أجل ذلك كله أصبح الإنسان مؤهلاً للخلافة فى الأرض وإعمـار الكون . فإذا أحسن استخدام حريته وحكم عقله استقام سـلوكه ، وإذا أسـاء استخدام هذه الحرية ولم يحكم عقله انحرف سلوكه . ويـترتب علـى هـذا الانحراف فى السلوك النزاع والشقاق بين البشر . فالسلوك المنحـرف لـن يكون بطبيعة الحال فى صالح الآخرين ، بل سيصطدم لا محالة بحرياتـهم وحقوقهم فيحدث النزاع .

وقد حدث ذلك بالفعل عندما اختلف ابنا آدم : قابيل وهابيل مع بعضهما (المائدة : ٢٧) ، وانتهى الأمر بسفك الدماء الذى تنبأت به الملائكة .

٢ ـ الإسلام والنزاع :

إن النزاع ـ كما رأينا ـ أمر واقع بدأ مع الإنسان وسيستمر معه . ولعل ذلك يرجع إلى طبيعة الإنسان ذاتها . إنه مخلوق من مادة وروح ، وكل منهما له طبيعة مختلفة . وبصرف النظر عما قاله الفيلسوف الفرنسي ديكارت فى هذا الشأن وانتهى به المطاف إلى ثنائية حادة فى الإنسان فإننا نلمس فى داخلنا وحدة الإنسان .

وإذا التفت الإنسان إلى ما اشتمل عليه التكوين الإلهى للإنسان من إبداع ونظام وجمال فإن ذلك ينعكس بصورة إيجابية على رؤيته لكل ما حوله ومن حوله . فمن المعروف أن الإنسان إذا كان يشعر بالسعادة فى داخله والتوافق المتناغم بين جسمه وروحه فإنه يرى كل ما حوله جميلاً ، ويكون قادراً على رؤية إبداع الله فى كل شيء ، وبمعنى آخر يرى الله فى كل شيء فيشعر بالسكينة والاطمئنان ويبتعد عن كل أسباب النزاع والشقاق . أما إذا كان يشعر بالشقاء فى داخله فإنه لا يرى فيما حوله إلا البؤس والشقاء ولا يشعر بوجود الله .

والكون مملوء بالآيات الإلهية التى تذكر الإنسان بوجود الله ، ولكن لا يلتفت إليها إلا من يبحثون عن اليقين . يقول القرآن فى ذلك : ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾ (فصلت : ٥٣) . ويقول أيضاً : ﴿ **وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ؟ وفى السماء رزقكم وما توعدون** ﴾ (الذاريات : ٢٢) .

وفى هذه الآية الأخيرة إشارة إلى أن الغذاء الحقيقى لحياة الإنسان يأتى إليه من أعلى ، أى من الله . وهنا تأتى أهمية دور الوحى الإلهى الذى يلفت نظر الإنسان إلى أنه إذا ابتعد عن الله وأدار ظهره للخالق فإنه سيبوء بالخسران والضياع . ومن أجل ذلك يصف الله وحيه إلى الناس فى القرآن

الكريم فى مواضع عديدة بأنه رحمة من عند الله (الإسراء : ٨٢ على سبيل المثال) فالناس فى حاجة إلى هداية الدين ليعصمهم من الوقوع فى دائرة النزاع والشقاق . وبالنظر إلى استمرار وجود النزاع فى الأرض فسيظل الإنسان فى حاجة ماسة إلى الدين الذى يعمل على وقاية الإنسان من أخطار النزاع وما تحمله من تدمير وتخريب .

وقد أعان الله الإنسان على ذلك فغرس فى نفسه معرفة الله ، تلك المعرفة التى يستطيع الإنسان أن يكتشفها فى نفسه إذا صفت وتجردت من كل الشوائب . يقول القرآن فى ذلك : **﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا ﴾** (الأعراف : ١٧٢) . وحتى هؤلاء الذين يشركون مع الله آلهة أخرى يقول القرآن عنهم : **﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾** (لقمان : ٢٥ ، الزمر : ٣٨) .

فالكون له رب واحد خلقه وتعهده بالرعاية ، وشمله برحمته وعدله ، والجميع منه ومرجعهم إليه .

٣ ـ تعددية المجتمعات البشرية :

ولكن الله لم يخلق الناس على وتيرة واحدة . فهم مختلفون فيما بينهم ، وكل منهم له شخصيته المستقلة عن الآخر . ولو كان قد خلقهم على نمط واحد لكانوا قد خرجوا عن أن يكونوا بشراً . ولكن الله أراد لهم أن يكونوا بشراً مختلفين فى أشكالهم وألوانهم ولغاتهم وأجناسهم . يقول القرآن الكريم :

﴿ ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ﴾ (هود : ١١٨ــ١١٩) .

ولكن الإسلام من جانب آخر يرى أن تعددية الأجناس أو المجتمعات البشرية لا يجوز أن تكون عائقاً أمام توحيد جهود الناس وتآلفهم وتعاونهم فيما بينهم . فالتعددية ينبغى أن تفتح الطريق أمام الوحدة . وهنا تكمن المهمة الإنسانية التى ينبغى على الإنسان أن يتحمل مسئوليتها . ويشير القرآن إلى ذلك بقوله :

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾ (الحجرات : ١٣) .

فالإنسان لا يعيش وحده ، وإنما هو عضو فى جماعة بشرية . وتعرف الإنسان على الآخرين يسبقه تعرفه على ذاته . وهذه المعرفة للذات تتأكد بصورة أكثر وضوحاً حين يتعرف الإنسان على نفسه مرة أخرى فى الآخرين . وتعرفه على نفسه من خلال الآخرين يجعله قادراً على التعاون معهم والفهم الحقيقى لهم والتسامح معهم . إنه يدرك فى النهاية أنه مخلوق لله مثلهم . والذى يعرف نفسه على هذا النحو يرى الطرق المختلفة للجماعات الإنسانية بوصفها طرقاً توصل إلى نفس الهدف . فالطريق إلى السلام أمام الخلق مستقيم ولكنه فى الوقت نفسه متنوع .

والإسلام بالإضافة إلى ذلك يلفت نظرنا إلى وحدة الأصل الإنسانى على نحو يبين أن الناس جميعاً مخلوقون من نفس واحدة ـ كما يقول القرآن ـ : **﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحـــدة ﴾** (النســاء : ١) . وإذا كان الأمر كذلك فإن إساءتى لفرد آخر تعد فى الوقت نفسه إســاءة لــى أيضاً باعتبار أننا جميعاً ننحدر من أصل واحد . ومن هنا كان تعبير القــرآن فى هذا الصدد تعبيراً واضحاً حين ينهانا عن السخرية من الآخرين أو العيب فى حقهم فيقول : **﴿ ولا تلمــزوا أنفســكم ﴾** (الحجـرات : ١١) ، ويعنــى : لا تعيبوا على الآخرين ، فهم جزء منا ونحن جزء منهم . ومن أجــل ذلــك جعل القرآن الاعتداء على فرد واحد من أفراد البشر كأنـــه اعتــداء علــى البشرية كلها ، وفى المقابل جعل تقديم الخير لفرد واحد كأنه تقديـــم الخــير للبشرية كلها . وفى ذلك يقول القرآن :

﴿ من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنمـــا قتــل النــاس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ﴾ (المائدة : ٣٢) .

٤ ــ الإسلام والتضامن بين الناس :

وهذا كله يبين لنا أن التضامن بين البشر على اختلاف أجناسهم وألوانهم يعد ضرورة حياتية للجنس البشرى ، وله أساسه الذى أراده الله . ولذلك فإنه إذا حدث خلاف بين الناس فإن الإسلام يلفت نظرهم إلى أن هذا الخلاف من ناحية يعد أمراً طبيعياً ، ولكنه من ناحية أخرى لا يجوز له أن يتجاوز الحدود العادية ويتطور إلى نزاع يؤدى إلى تدمير للذات وتدمير للآخرين فى الوقت ذاته .

ومن أجل ذلك لفت النبى عليه الصلاة والسلام نظرنا إلى ضرورة البحث عن أسلوب للتضامن بين الناس إذا أرادوا ألا يكونوا عرضة للهلاك . وقد صور الإنسانية كلها كأنها تتجمع فى سفينة واحدة ، وقد استقر البعض فى أسفلها والبعض الآخر فى أعلاها ، وكان الذين فى أسفل السفينة إذا احتاجوا ماء صعدوا إلى أعلى السفينة ومروا على من فوقهم . وقد تعبوا من هذا الصعود والهبوط وإزعاج الركاب فى أعلى السفينة وقرروا إحداث خرق فى أسفل السفينة يأخذون منه حاجتهم من الماء . ويشير النبى صلى الله عليه وسلم إلى أنه إذا ترك الناس هؤلاء القوم يفعلون ما أرادوا هلك الجميع ، وإن منعوهم مما أرادوا نجا الجميع من غرق محقق [١] .

وهذا الخرق فى السفينة الذى ورد فى هذا المثال يذكرنا بثقب الأوزون الذى يهدد الآن عالمنا الذى نعيش فيه ، كما أن مثال السفينة يذكرنا أيضاً بأننا بالفعل محمولون على الأرض كما لو كنا فى سفينة عبر الفضاء . والعمل التضامنى المشترك يمكن أن ينقذ العالم من الدمار الذى يتهدده .

---

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج٥ ص ١٣٢ .

وهكذا يتضح لنا موقف الإسلام المبدئى ونظرته الشاملة للبشرية كلها بوصفها أسرة إنسانية كبيرة يختلف أفرادها فيما بينهم ويتنازعون ، ولكنهم إذا عادوا إلى رشدهم واستمعوا إلى صوت العقل ونداء الوحى الإلهى فإنهم سرعان ما يعودون إلى حظيرة السلام .

وهذا ــ على سبيل المثال ــ ما كان من أمر قبيلتى الأوس والخزرج فى بداية عصر الإسلام . فقد كانت هاتان القبيلتان فى المدينة قبل انتقال النبى إليها فى حروب وعداوات متصلة . ولكنهما بعد هجرة النبى إلى المدينة ودخول أفراد القبيلتين فى الإسلام أصبحوا إخوة متحابين متعاونين فيما بينهم . وقد عز ذلك على بعض أعداء الإسلام فحاولوا إثارة نار العداوة بينهما مرة أخرى مذكرين لهم بالقتلى من كلا الفريقين . وقد أفلحت هذه الجهود الشريرة فى إحياء نار العداوة القديمة . وكاد الأمر أن يتطور إلى نزاع مسلح بين القبيلتين .

وعندما سمع رسول الله ذلك خرج إليهم مذكراً لهم بالإسلام الذى وحد بينهم ، وقضى على ما كان بينهم من أحقاد وعداوات ، وأن ما يفعلونه الآن هو عودة إلى الجاهلية ، أى إلى إلغاء العقل وتحكيم الأهواء والانفعالات . فعادوا بعد ذلك إلى رشدهم وفطنوا إلى ألاعيب مثيرى الفتنة ودعاة الشقاق ، وأصبحوا مرة أخرى بنعمة الله إخواناً [1] . ويشير القرآن إلى ذلك فى قوله :

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾ (آل عمران : ١٠٣) .

---

(١) تفسير ابن كثير ــ طبع دار الحديث بالقاهرة ١٩٩٠م . سورة آل عمران (٣٦٦/١ ــ ٣٦٨) .

٥ ــ إرادة السلام :

وقد حرص الإسلام فى تعاليمه على أن يغرس إرادة السلام فى نفوس أتباعه ويربيهم على ذلك . ولا يعنى هذا إقامة السلام فيما بينهم فحسب بوصفهم أتباع دين واحد ، ولكنه يعنى أيضاً إقامة السلام مع كل الناس بصرف النظر عن أجناسهم وأديانهم وألوانهم .

فهناك تطابق تام بين الإسلام والسلام . فكلمة الإسلام فى العربية مشتقة من نفس الأصل الذى اشتقت منه كلمة السلام . وتحية المسلمين فيما بينهم هى السلام . والمسلم يتجه فى نهاية كل صلاة من الصلوات الخمس اليومية بتحية الإسلام وهى السلام يميناً وشمالاً ، الأمر الذى يرمز إلى نصف العالم يميناً ونصفه الآخر شمالاً ، معبراً بذلك عن أمنية المسلمين بالسلام للعالم كله .

وقد وضع الإسلام للمسلمين مبدأ عاماً للتعايش السلمى بينهم وبين غيرهم من الشعوب يتلخص فى ضرورة التعايش مع الآخرين أياً كانوا ، ومعاملتهم بالعدل والإنصاف والتسامح ، طالما أن هؤلاء لم يصدر منهم أى عدوان على المسلمين ، ولم يتعاونوا مع أعداء المسلمين ضد المسلمين وفى ذلك يقول القرآن :

﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ (الممتحنة : ٨) .

والعدل المشار إليه فى هذه الآية يترتب عليه التسامح الإيجابى ، وهذا التسامح هو ثمرة الرحمة التى تعد الوجه الآخر للعدل .

وهناك حدود لإرادة السلام ، ولكن ليس هناك حدود للعدل . فهو قيمة مطلقة ينبغى أن تكون . والقرآن لا يطلب من المسلمين فوق ما يطيقون . فالتسامح مع الأعداء المستمرين فى عدوانهم ليس أمراً سهلاً . والقرآن

يعترف بهذا الواقع الإنساني . ومن هنا فإنه ليس من العدل والتسامح أن يتخذ المسلمون من أعدائهم الذين يريدون تدميرهم أصدقاء لأنهم بذلك يظلمون أنفسهم ويساعدون الآخرين على ظلمهم . ولذلك نهى القرآن عن مصادقتهم فقال عقب الآية السابقة :

﴿ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾ (الممتحنة : ٩) .

فإذا توقف المعتدون عن ظلمهم للمسلمين فينبغي على المسلمين أن يكونوا على استعداد للتجاوب معهم إذا رغبوا فى السلام ــ كما يقول القرآن ــ : **﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ﴾** (الأنفال :٦١) .

وإذا كان السلام لا يقوم إلا على العدل فإن المفهوم الإسلامى للعدل لا يمكن حصره فى دائرة الشكل القانونى . فالعدالة فى الإسلام تدع للآخرين فى الوقت نفسه الطريق إلى السلام مفتوحاً ، وذلك عن طريق الرحمة التى تعد الوجه الآخر للعدل كما سبق أن أشرنا . وهذا يعنى أن الإنسان تحت ظروف معينة ينبغي عليه أن يعطي لعدوه فرصة للسلام شريطة أن يكون هذا العدو على استعداد للسلام أيضاً .

وتاريخ المسلمين يعرف أمثلة كثيرة رجحت فيها كفة الرحمة على مجرد العدالة القانونية . وهنا نشير إلى صلاح الدين الأيوبى الذى ضرب مثلاً حياً على السلوك الإسلامى العادل والرحيم فى تعامله مع الصليبيين بعد أن استعاد القدس عام ١١٨٧ . فقد عامل الصليبيين العائدين إلى بلادهم بتسامح منقطع النظير ، ولم يمنحهم حريتهم فحسب ، بل زود الفقراء منهم بما يكفيهم من المؤونة فى طريق عودتهم إلى بلادهم ، ولم يمس أماكنهم

المقدسة بسوء على الرغم من أن بعض المسلمين طالبوه بمعاملة الصليبيين بمثل ما عاملوا به المسلمين عندما استولوا على القدس عام ١٠٩٩ .

ولكن صلاح الدين نهرهم عن المساس بالأماكن المقدسة وأمر باحترامها والتزام روح التسامح تجاه المسيحيين [١] .

وإذا كان الإسلام قد أمر المسلمين بالتجاوب مع الرغبة فى السلام من جانب الأعداء فإنه من ناحية أخرى فى حالة ما إذا لم يبد العدو أى رغبة فى السلام وأصبحت الحرب أمراً ضرورياً للدفاع عن الأرض والأنفس والأموال لا يجد الإسلام مفراً من السماح للمسلمين بقتال الأعداء بشرط ألا يتجاوز المسلمون مهمة الدفاع إلى العدوان . فالطريق إلى السلام لا يسمح إلا بالفعل الأخلاقى وفى ذلك يقول القرآن : ﴿ **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ﴾ (البقرة : ١٩٠) .

ومن هنا حرّم الإسلام التمثيل بالقتلى فى الحرب أو إساءة معاملة الأسرى ، أو قتل غير المحاربين من الشيوخ والنساء والأطفال . وهكذا حرّم الإسلام على المسلمين كل شكل من أشكال الأمور المنافية للإنسانية .

ولكن الحرب الدفاعية ضد العدو ليست هى نهاية المطاف . فالهدف الأسمى للمسلمين هو محاربة العداوة والكراهية فى قلوب الأعداء ، ومن هنا لا يجوز للمسلمين أن يفقدوا الأمل فى ذلك لأن الأمل هو ملاذ السلام . يقول القرآن : ﴿ **عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة** ﴾ (الممتحنة : ٧) .

ويوصى القرآن بعدم النزول إلى مستوى هؤلاء الذين يمارسون الظلم ويتبعون طريق الشر . وفى ظروف معينة يوصى بالرد على السيئة بالحسنة

---

(١) انظر : سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٧٩٠ــ٧٩٥ ، القاهرة ١٩٧٦م .

فإن ذلك قد يعطى للظالم الفرصة لإعادة النظر فى موقفه ، وبذلك ينقلب العدو إلى صديق . وهذا ما يشير إليه القرآن فى قوله :

﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾ (فصلت : ٣٤) .

والإسلام فى الوقت الذى يجعل فيه الدفاع عن حرية الإنسان وكرامته وحقوقه الإنسانية العامة واجباً دينياً بالإضافة إلى كونه واجباً إنسانياً فإنه يدعو إلى الوقوف فى وجه الظلم . ومن هنا يتساءل القرآن مستنكراً عدم مواجهة الظلم الواقع على الضعفاء من الناس قائلاً :

﴿ وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ﴾ (النساء : ٧٥) .

كما يقول النبى أيضاً : **[انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً . قالوا يا رسول الله : ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً ؟ قال : تمنعه من الظلم فذلك نصره]** [١] .

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الإكراه باب (٧) .

٦ ـ صلة الإسلام بالديانات السماوية الأخرى :

والإسلام فى كفاحه ذلك من أجل خير الإنسان وسعادته يقف موقفاً متسامحاً إلى أبعد الحدود من الديانات السماوية السابقة ، ويبدى استعداده للتعاون معها من أجل سلام العالم . فالديانات رسالتها رسالة سلام . فقد أرسل الله منذ بدء الخليقة رسله وأنبياءه بالوحى إلى الناس لهدايتهم إلى طريق الحق والرشاد وإبعادهم عن طريق الغواية والضلال . والإسلام يعترف بكل أنبياء الله الذين حملوا رسالته إلى الناس على مر العصور . فالإسلام يؤمن بوحدة الدين . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ (الشورى : ١٣) . ونظراً لأن الإسلام يعترف من حيث المبدأ بكل الديانات السماوية السابقة عليه فإنه يستطيع دون عقبات أن يعيش فى سلام معها وأن يتعاون معها من أجل إرساء دعائم السلام فى العالم .

وإن تعددية الأديان ، والحضارات التى انبثقت منها على مر التاريخ ، ترجع فى نظر القرآن إلى دين واحد جاءت به رسالات عديدة ترمى إلى هداية الإنسان ومساعدته على تطوير شخصيته . والتربية الدينية الصحيحة يمكن أن توقظ فى الإنسان الكثير من الإمكانات والقدرات الإنسانية التى تجعل منه شخصية متماسكة لها أصل ثابت فى الأرض ولكنها متصلة فى الوقت نفسه بالسماء .

والإسلام يهيئ أتباعه للسلام مع الآخرين ويربيهم على ذلك . ويمكننا فهم ذلك بطريقة أوضح إذا عرفنا أن السلام فى التصور الإسلامى يمكن تلخيصه فى صورة ثلاثة دوائر متداخلة . أما الدائرة الأولى فإنها تتمثل فى السلام النفسى الذى يحظى به الإنسان فى داخله . وهذا السلام النفسى يكون

ممكناً عن طريق الدائرة الثانية ، أى عن طريق السلام مع الله كما يتمثل ذلك فى العقيدة الدينية . وكلا الدائرتين يجعلان الدائرة الثالثة ممكنة وهى التى تتمثل فى السلام مع الآخرين ومع العالم الذى يحيط بنا . والدوائر الثلاثة جميعها يؤثر كل منها فى الآخر .

وهناك عناصر مشتركة بين الأديان السماوية يمكن أن تشكل أساساً راسخاً لقيام تعاون مشترك بين أتباع هذه الأديان . ومن أهم جوانب الاتفاق بين الأديان السماوية الثلاثة : الإسلام والمسيحية واليهودية ، أنها جميعاً تؤمن بإله واحد أوحى إلى عباده عن طريق الرسل . وهذا الإيمان يتضمن سلوكاً مستقيماً ودعوة إلى السلام والمحبة بين الناس . وفضلاً عن ذلك فإن كلا من هذه الأديان الثلاثة لديه منظومة من القيم الأخلاقية متشابهة فى أسسها وملزمة لكل المؤمنين .

والقرآن يبين لنا أن واجب الأديان ليس التنافس على مطامع دنيوية وإنما التسابق فى فعل الخير للناس . وهذا ما يعبر عنه القرآن بقوله :

﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات ، إلى الله مرجعكم جميعاً ﴾ (المائدة : ٤٨) .

وبدلاً من أن يتنازع ممثلو الأديان فيما بينهم من جديد حول بعض المعتقدات الجزئية فإن عليهم أن يسعوا فى الحوار فيما بينهم على التأكيد على جوانب الاتفاق وأن يكونوا على وعى بذلك أيضاً . فهذه الجوانب المشتركة تمثل منطلقاً للتعاون البناء بين الأديان السماوية الثلاثة .

وإن نظرة سريعة على عصرنا الحاضر تبين لنا أننا حيثما توجهنا نجد أن هناك ازدياداً مستمراً فى تراجع القيم الأخلاقية . وهذا أمر ليس بمستغرب إذا علمنا أن دور الأديان ازداد أيضاً تراجعاً فى العديد من مناطق العالم .

فمصدر الأخلاق فى الأساس هو الدين . فهناك ترابط وثيق بينهما أكد عليـــه النبى صلى الله عليه وسلم حين قال : **[إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق]** [1] .

---

(1) رواه الإمام البخارى فى كتاب الأدب المفرد .

٧ ــ دور الأديان فى العصر الحاضر :

من كل ما سبق يتضح لنا الموقف الأساسى للإسلام ، وهو موقف داعم للسلام ، مؤيد لحق الإنسان فى الحرية والكرامة والعدل . وفى عصرنا الحاضر الذى تقترب فيه الجماعات الدينية والحضارية المختلفة من بعضها بعضاً بصفة مستمرة فى " قرية كونية " ــ تصبح قضية السلام والعدل بين الناس من القضايا الملحة التى تتطلب العثور على حلول رائدة للمشكلات المعقدة التى تقف عائقاً أمام البشرية فى سعيها نحو السلام . والفهم الصحيح للأديان ولدورها الرائد فى النهوض بالبشرية يمكن أن يسهم بشكل فعال فى العثور على حلول مناسبة للمشكلات القائمة . وهناك العديد من المشكلات المشتركة لا يمكن حلها إلا بالتعاون بين الأطراف المعنية .

ومن بين المشكلات الكثيرة فى هذا الصدد [1] ما نطرحه هنا فى صورة تساؤلات : كيف يمكن التعاون بين الأديان فى سبيل حماية نظام الأسرة التى تمثل الخلية الأصلية لكل حضارة إنسانية ؟

وكيف يمكن للأديان بالتعاون فيما بينها أن تمنع حدوث حروب عبثية لا طائل من ورائها ؟

وكيف السبيل أمام الأديان للإسهام فى منع تدمير الحروب التى لا ضرورة لها للموارد الاحتياطية للأرض ؟

وكيف يمكن للأديان أن تتعاون معاً فى وقف الملاحقات الظالمة والاضطهادات للناس فى كل مكان أفراداً كانوا أم جماعات أم شعوباً ؟

ومن الضرورى أن يكون لممثلى الأديان مواقف بعيدة عن التعصب ومبنية على معلومات صحيحة عن هذه الأديان ، وعلى وعى بالجوانب المشتركة بين هذه الأديان .

---

(١) لقد سبقت الإشارة أيضاً إلى هذه المشكلات فى الفصل الثالث .

فالإرهاب والتطرف مثلاً من الظواهر المنتشرة فى العالم كله وليس فى العالم الإسلامى فقط ــ كما يزعم البعض ــ .

والمعرفة الصحيحة بالإسلام تبين أنه دين يقف ضد كل شكل من أشكال التطرف والإرهاب ، وأن مفهوم الرحمة يعد من المفاهيم الرئيسية فى تعاليم الإسلام . ومن هنا تبدأ كل سورةٍ من سور القرآن الكريم باسم الله الرحمن الرحيم . ورحمة الله واسعة تمتد لتشمل كل شيء وكل إنسان يسعى جاهداً لتحقيق العدل والسلام .

وبالحوار بين الأديان الذى يقود إلى تعاون بناء يمكن مكافحة العديد من الظواهر السلبية لعالمنا ، كما يمكن أيضاً الإسهام فى إيجاد الحلول لمشكلات التطور الاجتماعى والسياسى للدول النامية . وكل ذلك يسهم إسهاماً فعالاً فى الوقاية من النزاعات المحتملة ، كما يمهد الطريق لحل النزاعات القائمة .

وكل هذه المشكلات وغيرها من مشكلات فرعية أخرى تحتاج منا جهداً كبيراً للبحث عن حلول لها لأنها تهم العالم كله بشكل أو بآخر . فنحن جميعاً نجلس فى زورق واحد ــ كما سبق أن أشرنا إلى ذلك فى مثال السفينة الوارد عن النبى صلى الله عليه وسلم ــ .

وإذا أردنا أن نجرى حواراً مثمراً بين الأديان ، ونصل إلى تعاون مشترك فيما بينها فإنه لا يجوز لنا أن نستعيد دائماً فى ذاكرتنا وحواراتنا عوامل الكراهية القديمة والعقد الموروثة من أزمان غابرة وأن نحييها من جديد ، بل ينبغى بدلا من ذلك أن نتبنى فكراً إيجابياً يسعى إلى بناء مستقبل مشرق ينعم فيه العالم بالسلام .

ونحن اليوم نواجه أجيالاً جديدة وعوالم جديدة لم يكن لها ذنب فى أى ظلم وقع فى العصور السابقة ، كما أنها لا تمتدح أيضاً على الأعمال الإيجابية للأجيال السابقة . وإن ما تحتاجه منا الأجيال الجديدة أن نتيح لها الفرص المناسبة فى بناء حياة مثمرة وأن نساعدها فى الوصول إلى ذلك .



الفصل الخامس

عيسى عليه السلام
فى القرآن الكريم

ـ تمهيـد

أولاً : رسالات الأديان

ثانياً : السيدة مريم وميلاد عيسى عليهما السلام

ثالثاً : عيسى عليه السلام :

أ ـ عيسى عليه السلام بوصفه عبداً لله

ب ـ عيسى عليه السلام بوصفه رحمة من عند الله

رابعاً : عيسى عليه السلام وحواريوه

ـ خاتمة



عيسى عليه السلام فى القرآن الكريم (*)

تمهيد

قبل أن أبدأ الحديث عن " عيسى عليه السلام فى القرآن الكريم " أود أن أشير إلى أننى شخصياً لا أحبذ إجراء حوارات دينية تتصل بالعقائد الأساسية لأصحاب الديانات السماوية ، وذلك لسببين : أولاً : لحساسية هذا الموضوع بشكل لا يمكن إنكاره ، الأمر الذى قد يؤدى إلى مزيد من التباعد بين أتباع الأديان المختلفة ، وليس إلى التقارب فيما بينها كما هو المأمول من حوار الأديان . وثانياً : لأن الحوار حول العقائد لن يؤدى إلى نتيجة . فكل أصحاب دين لن يتخلوا عن عقائدهم الأساسية . ومن أجل ذلك ينبغى أن يركز الحوار بين الأديان على القواسم المشتركة بين الأديان بهدف إيجاد أسس مشتركة للتعاون بين أتباع الديانات السماوية .

ولكن معهد اللاهوت بجامعة زيوريخ بسويسرا ـ ممثلاً فى الأستاذة الدكتورة سوزانا هاينه Susanne Heine ـ قد طلب منى عام ١٩٩٣م محاضرة حول موضوع " عيسى عليه السلام فى القرآن الكريم " . واستجابة لهذه الرغبة أعددنا هذه المحاضرة التى أعقبها نقاش علمى جاد انطلاقاً من رغبة حقيقية فى التعرف على التصورات الإسلامية حول هذا الموضوع . وقد شجعنا ذلك

(*) محاضرة ألقيت في جامعة زيوريخ، سويسرا، معهد اللاهوت، ١٩٩٣. Vortrag. Universitaet Zürich, Theolog. Seminar, 1993.

على نشر المحاضرة فى كتابنا الذى صدر عام ٢٠٠٠م بالألمانية تحت عنـــوان " **مدخل إلى الإسلام** " . وفى الصفحات التالية يجد القارئ الكريم ترجمـــة لـــهذه المحاضرة .

وقبل أن أتحدث بالتفصيل عن عيسى عليه السلام في القرآن الكريـم ، أود أن أشير إلى حقيقة هامة وأساسية ، وهى أن الإسلام لم يحاول قط أن يفـــرض على المسيحيين مفاهيمه عن عيسى عليه السلام. ويرجع ذلك إلى تعاليم القـــرآن الكريم المبدئية التي تقرر أنه ﴿ **لا إكراه فى الدين** ﴾ (البقرة : ٢٥٦) . ولا يعنـــي هذا فقط أن أمور الدين لا إكراه فيها ، ولكنه يعنى أيضاً أن الدين واتخاذ الإنسان قراراً باعتناقه بإرادة حرة أمران لا ينفصلان . والدين هو عودة الارتباط الحـــر للإنسان بربه الخالق لهذا الكون والحافظ لوجوده ، وهو الذى يتيح للإنسان هـــذه الحرية. وموقع الدين هو أعمق أعماق الإنسان، ألا وهو القلب.

وهناك اتفاق أساسى بين الأديان السماوية كلها فيما يتعلق بالإيمـــــان بـــالله الواحد والإيمان بيوم الحساب وبالأعمال الصالحة . وفى ذلـــك يقـــول القـــرآن الكريم : ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمـــن بـــالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليـــهم ولا هـــم يحزنون** ﴾ (البقرة : ٦٢) . أما فيما يتعلق بعيسى عليه السلام فمن المعروف أن هناك اختلافات كثيرة حوله بين الأديان .

وأفضل مدخل إلى صورة عيسى عليه السلام في القرآن الكريم هو شـــرح التعاليم القرآنية الخاصة بالنبوة . وطبقاً لها يُعد عيسى عليه السلام واحداً من أهم الأنبياء الذين أنعم الله عليهم والذين تتابعوا منذ بداية الإنسانية لدعوة الناس إلـــى

الإيمان بالله الواحد . وكانت رسالتهم جميعاً واحدة ، فقد كلفوا بأن يحضّوا الناس على الابتعاد عن طرق الضلال وأن يتجهوا إلى الله .

وكل إنسان بفطرته يعرف الله معرفة مغروسة فى أعماقه ، حتى وإن نسيها. يقول القرآن فى ذلك : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى** ﴾ (الأعراف : ١٧٢) . فإذا عبد الإنسان الآلهة الدنيوية الزائفة التي لا حول لها ولا قوة ، فإن مسلكه هذا يؤدى به دون شعور منه إلى التمزق الداخلي المستمر وبذلك يبدد الإنسان نفسه فى كل الاتجاهات جرياً وراء الصور الخادعة ، وينتهى به الأمر إلى الضياع فى طرق الضلال.

أما عودة الإنسان إلى اكتشاف الصلة الحميمة بينه وبين الله فإنها تمنحه السلام الداخلى والنعيم الباطنى اللذين يهفو إليهما من صميم قلبه. ولهذا فإن الدين الحق الوحيد هو عبادة الله، لا الأصنام الزائفة. وباتباع الدين الحق يتغلغل الإيمان بالله فى قلب الإنسان على نحو حقيقى .

ومن هنا دعا الأنبياء الناس إلى أن يخضعوا لإرادة الله وأن يعبدوه. والأنبياء أنفسهم يتميزون بهذا الخضوع لله. والرسالات المنزلة كلها تبين للإنسان الطريق إلى عبادة الله ، واختلاف الرسالات يعكس التدبير الربانى .

وارتباطاً بمفهوم قدرة الله الواحد المطلقة يطالب القرآن المسلمين (النساء : ١٥٠-١٥٢) بالإيمان بكل الأنبياء بوصفهم رسلاً من عند الله جلت قدرته، وتوقيرهم، وعدم التفرقة بينهم. وبهذا الإيمان الذي يتسم بتبجيل الأنبياء والرسل جميعاً دون تمييز ينال المسلمون رحمة الله وغفرانه :

﴿ والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحدٍ منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ (النساء : ١٥٢) .

ويطالب القرآن الكريم المؤمنين في وضوح تام بالإيمان بكل الأنبياء والرسل وبكل ما أوحى إليهم :

﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيّون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ (البقرة : ١٣٦) .

وإذا كان القرآن الكريم من ناحية يسوى بين الأنبياء جميعاً بوصفهم رسلاً من عند الله ، فإنه من ناحية أخرى يتحدث عن درجات مختلفة للأنبياء وفقاً لترتيب إلهى .

﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله، ورفع بعضهم درجات ﴾ (البقرة : ٢٥٣) .

ولكن المؤمنين لم يؤمروا بإجراء ترتيب جوهرى ونهائى للرسالات السماوية ، فهذا أمر اختص به الله وحده . والمطلوب من المؤمنين ، بدلاً من ذلك أن يركزوا كل اهتمامهم على من أرسل الرسالات كلها إلى الناس بالآيات البينات تلو الآيات ، لا مقطوعة ولا ممنوعة . وما ينبغى للبشر أن يتعجلوا الاستنتاج ، فالله وحده هو الذى سوف يفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه .

ويبين لنا القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى لم يترك عباده عبر التاريخ الإنسانى ــ منذ آدم حتى محمد عليهما السلام ــ دون أن يذكرهم باستمرار عن طريق رسالاته إليهم بما فيه صلاحهم وسعادتهم فى دنياهم وأخراهم . فتاريخ

الإنسانية جمعاء ، وتاريخ كل فرد على حدة ، هما تاريخ الفعل الإلهى المتمثـــل فى الرسالات السماوية وفى الكون كله ورد الفعل الإنسانى على ذلك .

وهكذا نجد الرسالات السماوية المتتابعة تصحح ما اقترفه البشر من تأويلات خاطئة ضمّنوها ما وضعوه من مذاهب دينية.كذلك تأتى الرسالات السماوية ، فى هذا السياق، وإزاء موقف البشرية، بعِلمٍ جديد.وكل رسالة سماوية ــ عندما تبيــن وتمهد للمؤمن الصراط المستقيم ــ تحمل إليه أولاً وقبل كل شيء آخر بُشــــرى؛ وتحمل إليه تحذيراً بأن ينأى بنفسه عن الأوهام وما يرتبط بها من فتنـــة الدنيــا وتحضه على أن يحرر نفسه بالتوجه إلى الله سبحانه وتعـــــالى، فـــهو الحقيقـــة الوحيدة المطلقة .

والقرآن يبين لنا أنه لا يجوز أن يحول شىء بين الله والإنسان يعوق إســلام وجهه إلى الله . والأنبياء أنفسهم ليسوا إلا رسلاً يوجهون الناس إلى طريق الله . ولكن الإنسان هو الذى يسلك الطريق بنفسه دون وساطة بينه وبين ربه .

ولقد علَّم عيسى عليه السلام من خلال حياته وتعاليمه هذا الخضـــوع لإرادة الله . وقال ، بناء على ما ورد فى القرآن الكريم ، إنه يعبد الله ربه ورب الناس جميعاً الذين يحق عليهم أن يعبدوه لينالوا رحمته (آل عمران : ٥١؛ وغيرها) .

والقرآن الكريم يثبت بعبارة قاطعة لا ريب فيها مكانة عيسى عليه الســـــلام الخاصة بين الأنبياء ، وأنه من مجموعة الأنبياء الذين ميزهم الله واصطفـــاهم . ويقول القرآن عنه إنه " وجيه " فى الدنيا وفى الآخرة ، وإنه مـــــن المقربيــن . (آل عمران : ٤٥) .

وجدير بالذكر أن القرآن الكريم قد أشار إلى أنبياء كثيرين، ولكنه لم يذكر بالاسم منهم إلا خمسة وعشرين، يحتل نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد مكانة خاصة [1].

فما هى بحسب تعاليم القرآن الكريم الميزة الخاصة التي امتاز بها عيسى نبياً؟ هناك إشارات كثيرة إلى هذا التميز يجدر بنا أن نكشف عنها. نعود إلى الآية ٢٥٣ من سورة البقرة التى تبدأ كما يلى :

﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ، ورفع بعضهم درجات ﴾ .

بعد هذه الكلمات مباشرة نقرأ:

﴿ وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾ .

تميز عيسى عليه السلام بالبينات التي آتاه الله اياها، وبتأييد الله إياه بالروح القدس، وسنشرح فيما بعد معنى البينات ومعنى التأييد بالروح القدس في إطار صورة عيسى في القرآن الكريم. وهناك إشارة هامة إلى قيمة هذين العنصرين في صياغة العقيدة الإسلامية نجدها في بقية الآية المذكورة:

﴿ ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكنَّ الله يفعل ما يريد ﴾ (البقرة : ٢٥٣) .

وإرادة الله سبحانه وتعالى تقضى بأن يتجه الإنسان بإيمانه إلى الله ذاته وأن يلتمس هدايته. وهذا العمل المتمثل في قيام الإنسان بالاستسلام لإرادة الله هو

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، المجلد ٤، ص ١٧٢، بيروت ١٩٦٩.

عمل إرادى لا يمكن أن تحققه البيناتُ بالإكراه ، كما أن الأنبياء المؤيدين بالروح القدس لا يمكنهم أن يحلوا محله ويكونوا بديلاً عنه.

وتعاليم القرآن الكريم المتعلقة بوحدانية الله تعبر فى الوقت نفسه عن حريـــة الإنسان الثمينة التى ينالها بالإيمان بالله وعبادته.

أولاً : رسالات الأديان :

إن وراء العدد الكبير من الأديان ومن ثقافات الإنسانية التي نبعت منها ــ كما يقرر القرآن الكريم ــ رسالة تكرر ظهورها منذ بداية الخلق هي رسالة الدين الواحد الحق . وتقوم هذه الرسالة على علاقة الإيمان الشخصية التى تربط بين الله والإنسان .

والبوصلة ــ إذا صح هذا التعبير ــ التى يتبعها الإنسان المؤمن فى طريقه إلى الله هى ، بحسب تعاليم القرآن الكريم ، قلبُه الذى ينأى عن ميوله الأنانية ويخضع لله . وقد دعا كل الأنبياء برسالاتهم إلى هذا الطريق الإيمانى ، كما دعوا الناس إلى أن يطيعوهم لأنهم مكلفون من الله سبحانه وتعالى بتبليغ الرسالة .

وكما أن آيات القرآن المنزلة تأمر المسلمين بأن يطيعوا النبي محمداً صلى الله عليه وسلم (آل عمران : ١٣٢؛ المائدة : ٩٢؛ وغيرها) ، كذلك عيسى عليه السلام عندما جاء الناس بالبينات من ربه أمرهم بأن يطيعوه . فالأنبياء يبلغون رسالات الله . يقول القرآن الكريم :

﴿ ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون . إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ . (الزخرف : ٦٣-٦٤) .

وهكذا فالأديان كلها، عندما نتأملها على هذا النحو، تمثل طرقاً أقرها الله تتجه نحو نفس الهدف . ولما كان الهدف منذ آدم عليه السلام وإلى محمد صلى الله عليه وسلم هدفاً واحداً (الشورى : ١٣) فإن الدين، بناءً على هذا ، فى أساسه

دين واحد، يتمثل الهدف والطريق إليه فى الإسلام لله ، والإسلام كلمة تعنى الخضوع والانقياد . وبناء على تعاليم القرآن الكريم فإن الدين منذ آدم بهذا المعنى العام هو الخضوع لله ، هو الإسلام :

﴿ شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذى أوحينا إليك [= يا محمد] وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه.. ﴾ (الشورى : ١٣) .

و ﴿ **أقيموا الدين** ﴾ تعنى الخضوع لله والإسلام له. وتأمر الآية الكريمة الناس ألا يسيئوا فهم الدين وألا يتوسلوا به إلى التفرق إلى أحزاب مختلفة يحارب بعضها بعضاً.

ويقول القرآن الكريم إن من يقيم الدين ولا ينكر بينات الله (آل عمران : ١٩) يجد الصراط المستقيم، ويصف المؤمنين بقوله :

﴿ الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ﴾ (آل عمران : ١٧) .

والتصميم على الإيمان بالله ، الواحد ، رب العالمين ، وإله الناس ، كل الناس ، تصميم امتاز به النبيون على نحو مثالى . فقد امتازوا بصبر يغلب كل شيء ، صبر الصمود ، وصبر اتباع آيات الله فى العالم كله ، فى الآفاق وفى البشر أنفسهم ، وهى الآيات التى كثيراً ما تحدث عنها القرآن الكريم (فصلت : ٥٣ وغيرها) . وبهذا أصبح الأنبياء أنفسهم من آيات رحمة الله .

ثانياً : السيدة مريم وميلاد عيسى عليه السلام :

وعيسى عليه السلام آية من آيات الله . وقد وصف القرآن الكريم عيسى عليه السلام وأمه بأنهما من آيات الله (مريم : ٢١؛ المؤمنون : ٥٠) . وعلى الرغم من أنهما بشر ـــ وهذه حقيقة يؤكدها القرآن ـــ فإنهما يعتبران بإسلامهما لله آية ، جعلهم الله سبحانه وتعالى آية للناس .

ويسجل القرآن الكريم أن أمَّ السيدةِ مريم، تميزت في أعمالها بالخضوع لله، فعندما كانت حاملاً نذرت لله ما في بطنها، فلما وضعت مريم دعت الله أن يحفظها (آل عمران : ٣٥- ٣٦) . فاستجاب الله لها تقديراً لتقواها (البقرة : ٢٥٥؛ الزخرف : ٨٦؛ وغيرها) . يقول القرآن الكريم :

﴿ **فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً** ﴾ (آل عمران : ٣٧) .

وأصبحت مريم صدّيقةً، صدّقت بكلمات ربها وكُتُبِه، وواحدةً من القانتين، ومَنَّ الله عليها بالروح الإلهية، يقول القرآن الكريم:

﴿ **وصدّقت بكلمات ربها وكتبه ، وكانت من القانتين** ﴾ (التحريم : ١٢) .

وتعتبر مريم طبقاً لتعاليم القرآن الكريم مثلاً أعلى للنساء جميعاً. وأبلغتها الملائكة أن الله قد اصطفاها ، وأن عليها أن تقنت لربها، وأن تركع فى خشوع. هذا ما قالته لها الملائكة كما جاء فى سورة آل عمران:

﴿ **وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ، يا مريم اقنتي لربك واسجدى واركعى مع الراكعين** ﴾ (آل عمران : ٤٢-٤٣) .

وبُشرت مريم بمعجزة مولد عيسى عليه السلام بوصفه مولد " **كلمة من الله** " . يقول القرآن الكريم:

﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يُـبشرك بكلمة منه اسمه المسـيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين. ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين ﴾ (آل عمران : ٤٥-٤٦) .

فلما سألت مريم الـملَك كيف يمكن أن يكون لها ولدٌ ولم يمسسها بشر، قال لها : **﴿ الله يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمراً فإنمـا يقـول لـه كـن فيكـون ﴾** (آل عمران : ٤٧) .

وطبقاً لما قاله الـملَك فإن معجزة مولد عيسى بغـير أب تحـدث بـالأمر الإلهى " كُن " . وهذا هو تفسير التراث الإسلامي لوصف عيسى بأنه "كلمة مـن الله" كما جاء في بشارة الـملَك. وعن ميلاد عيسى عليه السلام يقـول القـرآن أيضاً:

﴿ إن مثَلَ عيسى عند الله كمثل آدم، خلقه من تراب، ثم قال لـه كُـن فيكون ﴾ (آل عمران : ٥٩) .

وقد تبعت معجزة ميلاد عيسى عليه السلام معجزات عديدة في حياته، بدأت بعد مولده مباشرة. فعندما وجه الناس اللوم إلى مريم لأنها ولدت طفـلاً دون أن تكون متزوجة، وهي من أسرة شريفة، أشارت، كما يقول القرآن الكريـم، إلـى عيسى عليه السلام، فسألوها:

﴿ قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبياً ﴾ (مريم :٢٩) .

وهنا حدثت المعجزة وتكلم عيسى صبياً فى المهد .

ومريم ، كما ذكر القرآن الكريم ، " صِدِّيقة " (المائدة : ٧٥) أى متمسكة كـل التمسك بالصدق. وذلك قضاءُ الله سبحانه وتعالى مع البشر، وتلك إرادتـه. لقـد أسلمت مريم لله بحسب التعبير الإسلامى وخضعت لهدايته.

وبرغم كل ما أنعم الله به على مريم وعيسى عليهما السلام فإنهما ، طبقـــاً لتعاليم القرآن الكريم بشر ، يحتاجان إلى هداية الله. ولقد ذكرنـــا مـــن قبـــل أن القرآن وصفهما بأنهما آية من آيات الله، وبأنهما بشر.

وأثبت القرآن هذه الحقيقة مبيناً أنهما كانا من البشر، فقـــد ﴿ **كانـــا يـــأكلان الطعام** ﴾ (المائدة : ٧٥) . كانا آيتين من آيات قدرة الله سبحانه وتعالى، وســـنبين فيما يلي أنهما كانا كذلك آيتين من آيات رحمة الله . ويذكر القرآن الكريـم أن الله أنعم على مريم وعيسى عليه السلام بروح من عنده لِـما حرصا عليـــه مـــن الخضوع والخشوع لله فجعلهما آيتين من آيات الله. أما وصف عيسى عليه السلام بالألوهية فيرفضه القرآن الكريم كل الرفض (المائدة :١٧) . فهذه الصفة تتنـــاقض مع الإيمان بالله الواحد الخالق البارئ رب الناس، رب العالمين (المائدة : ٧٣) .

ولكن الدرجة الرفيعة التي تتبوؤها مريم في القرآن الكريم تظل على رفعتها لا ينقص منها شيء على الإطلاق . والقرآن يطلق على سورة كبيرة من ســـوره اسم مريم. كذلك يشهد على تكريم القرآن الكريم لها أنها المرأةُ الوحيدة التي ذكر القرآن اسمها.

ويقول القرآن الكريم عن مريم وابنها عيسى عليه السلام:

﴿ **وجعلناها وابنها آية للعالمين** ﴾ (الأنبياء : ٩١) .

وفى الآية التالية من نفس السورة:

﴿ **إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** ﴾ (الأنبياء : ٩٢) .

والأمة التي تتحدث عنها الآية الكريمة هي أمة البشر كافة. وعلى البشر أن يفهموا أنفسهم أعضاء أمة واحدة، وأنهم ينتمون إلى جماعـــة واحـــدة. وعليـــهم جميعاً أن يعبدوا الله وأن يسلموا أنفسهم لهدايته. فنجاة الإنسان لا تتحقق إلا بـــأن يضع نفسه بإرادته بين يدى الله الذى يمسك فى قبضته كل شيء .

ثالثاً : عيسى عليه السلام :

كان عيسى عليه السلام عبد الله . وكان "رحمة" من الله، أو كما ذكر القرآن الكريم: " رحمة منا " (مريم :٢١) . ويصف القرآن الكريم تلاميذ المسيح، وهم الحواريون، بأنهم أنصار الله (آل عمران : ٥٢) .

(أ) عيسى عليه السلام بوصفه عبداً لله

ظهر عيسى عليه السلام إنساناً حراً في عالم انقاد فيه الناس للآلهة المادية المزيفة انقياد المستعبدين . ويشير القرآن الكريم المرة تلو المرة، دعماً لرسالته، إلى ضرورة دراسة التاريخ. فقد حدث في أزمان مختلفة أن أعلن أناس كثيرون أنفسهم آلهة أو أشباه آلهة، وعبدهم العامة. وألغى عيسى هذا الوهم الذي أحاط ببشر من عامة الناس وبقِلَّةٍ من المتعالين الذين نسبوا أنفسهم غياً إلى الألوهية. ودعا الناس، على العكس من ذلك، إلى عبادة الخالق الواحد إله الناس وملك الناس، من خلال نصرة الفقراء والمظلومين والمضطهدين. دعا هذه الدعوة بوصفها طريقاً لنيل رحمة الله، تماماً كما دعا إليها من بعده النبي محمد صلى الله عليه وسلم بوضوح دونه كل وضوح، وذلك هو صراط الله المستقيم.

والقرآن الكريم يبين لنا (المائدة : ١١٦، وغيرها) أن عيسى عليه السلام لم يقل للناس قط أن يتخذوه وأمه إلهين من دون الله، بل وقف صراحة فى وجه مثل هذه الادعاءات . وعلى العكس من ذلك بين أنه رسول الله إلى بنى إسرائيل (آل عمران : ٤٩) وأن الله سبحانه وتعالى ربه ورب العالمين.

ويقص علينا القرآن الكريم ما قاله عيسى عليه السلام لبنى إسرائيل بقوله :

﴿ .. أنى قد جئتكم بآية من ربكم، أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وأبرئ الأكمهَ والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم، إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين. ومصدقاً لما بين يديَّ من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حُرِّم عليكم، وجئتكم بآية من ربكم، فاتقوا الله وأطيعون . إن الله ربي وربكم فاعبدوه، هذا صراط مستقيم ﴾ (آل عمران : ٤٩-٥١) .

والقرآن الكريم عندما يتحدث ــ كما فى الآية السابقة ــ عن تقوى الله حيث يقول " **فاتقوا الله ..** " ، فهو يتحدث عن الدواء الوحيد الناجع ضد الخوف من البشر المستبدين الذين يستعبدون الناس . ولهذا نقرأ فى آية أخرى:

﴿ فلا تخشَوُا الناسَ واخشَوْن ﴾ (المائدة : ٤٤) .

ورسالة عيسى عليه السلام هى رسالة هداية إلى صراط الله المستقيم. وهى فى الوقت نفسه تصديق للرسالات السماوية السابقة ، وبشرى تتمثل فى الإنجيل الذى فيه هدى ونور. يقول القرآن الكريم:

﴿ وقفّينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة، وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين ﴾ (المائدة : ٤٦) .

وتشتمل رسالة عيسى عليه السلام على موعظة للناس تحضهم على ألا تكون طاعتهم للوصايا الإلهية التى جاءت فى التوراة لمجرد الشرعية أو خوفاً من الناس، بل عليهم أن يطيعوها على العكس من ذلك بوصفها وصايا صادرة من الله الذى يريد من البشر أن يستجيبوا له ويطيعوه، فتكون فى

الاستجابة والطاعة نجاتُهم. ولا ينبغي للإنسان أن يعبد الدنيا التى لا قيمة لها فى حد ذاتها، بل عليه أن يعبد الله وحده، الخالق الرازق الحافظ .

فإذا فعل الإنسان ذلك، فقد وعى نظام الأشياء الحقيقي، فالأشياء كما خلقها الله ليست مادية خالصة. وإذا ما خطا الإنسان هذه الخطوة، اقترب من هدفه، من الحقيقة .

وعيسى عليه السلام ــ بكل ما أنعم الله به عليه ــ ليس إلهاً ، وما هو إلا رسول من عند الله الواحد الذى لم يلد ولم يولد . يقول القرآن الكريم:

﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا ثلاثة، انتهوا خيراً لكم، إنما الله إله واحد، سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السموات وما في الأرض، وكفى بالله وكيلاً ﴾ (النساء : ١٧١) .

إن الموضوع الأساسى للدين ــ الداعى إلى عبادة الإله الواحد الأحد، والمحذر من الخسران المبين نتيجة التكبر وما يستتبعه من الانفصال عن الله ــ يتلقى ــ بإرادة الله ــ تكملة جديدة وحاسمة من خلال عيسى عليه السلام الذى أوتى بينات من عند الله وتأييد من الروح القدس . فقد دعا عيسى عليه السلام إلى عبادة الله والبر بمخلوقاته وتلك الدعوة هى الصراط المستقيم. ومعجزات الرحمة التى أجراها الله على يديه ، عندما أبرأ الأعمى والأكمه والأبرص ، بل وأحيا الموتى بإذن الله ، تؤكد هذا المعنى كما تؤكده حياته كلها. يقول القرآن الكريم عنه:

﴿ لن يستنكفَ المسيحُ أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ﴾ (النساء : ١٧٢) .

وعيسى عليه السلام علَّم الناس من خلال حياته وكلماتـــه مــا ينبغــى أن يحرص عليه الإنسان ، ألا وهو إسلام الوجـــه لله رب العـــالمين عــن إيمـــان به ينبع منه الاجتهاد فى العمل فى ضوء العدل والرحمة واللتين هما من صفـات الله .

ولهذا فإن الآية التى تلى الآية التي استشهدنا بها لتونا تؤكد عبودية عيســـى عليه السلام لله سبحانه وتعالى:

﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله، وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ (النساء : الآية ١٧٣) .

ونحن عندما نتكلم عن عبادة الله ينبغى أن نعـــى مـــا جــاء فــى القـرآن الكريم عن رب العبـــاد (الأنعـــام : ١٣٣) مـــن أنـــه جـلّ شـــأنه غنـــى عــن العالمين .

إن عبادة الله فى حديث القرآن الكريم تعنى أن الذى يعبد الله يحرر نفسه في الوقت نفسه من عبودية الدنيا. هذه هى البشرى، وهذا هو الصــــراط المســـتقيم، وهذا هو الدين الحق.

ومن هنا يعلمنا القرآن الكريم أن من الخطأ أن يحاول الإنسان الوصول إلى الله عن طريق معوج يستعين فيه بولى أو معين. يقول القرآن الكريم:

﴿ ألا لله الدين الخالص .. ﴾ (الزمر : ٣).

ثم تقول الآية الكريمة:

﴿ ... والذين اتخذوا من دون الله أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار ﴾ (الزمر : ٣) .

ويقول القرآن الكريم إن الله يطلب من الإنسان الذى يسعى إليه أن يلجأ إليه هو مباشرة :

﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾ (البقرة : ١٨٦).

ويقرر القرآن الكريم أن عيسى عليه السلام نفسه فهم نفسه على أنه رسول الله وعبده عندما جاء بالبينات:

﴿ ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه ، فاتقوا الله وأطيعون . إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه، هذا صراط مستقيم ﴾ (الزخرف : ٦٣ـ ٦٤) .

وصدَّق عيسى على ما بين يديه من التوراة، وأشار إلى رسول يأتى من بعده. وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾ (الصف : ٦).

هكذا أشار عيسى عليه السلام إلى إيمان المسلمين بالنبى محمد ﷺ ــ كما يقرر القرآن الكريم ــ .

(ب) عيسى عليه السلام بوصفه "رحمة " من عند الله

إذا أردنا أن نفهم على نحو أفضل لماذا وصف عيسى عليـــه الســـلام فـــى القرآن بأنه " آية " ، كان علينا أن نلتمس وصفاً آخر أطلقه عليه القرآن الكريـــم ونتخذه منطلقاً ، ونعنى به وصفه بأنه "رحمة " من الله. والنص كما جـــاء فـــى سورة مريم (الآية ٢١) هو : " رحمة منا " ، أى من الله . ولقـــد بيـــن عليـــه السلام الصراط المســـتقيم إلى التدين الخالص الذى يعلو علـــى مجـــرد تقنيـــن الأحكام. ولهذا وصف أيضًا فى القرآن الكريم بأنه " علمٌ للساعة ":

﴿ وإنه لعلمٌ للساعة، فلا تمترنّ بها واتبعـــون هـــذا صـــراط مســـتقيم ﴾ (الزخرف : ٦١) .

والسؤال عما إذا كان المقصود بهذا الوصف الأخير التنبؤ بأن عيسى عليه السلام سيظهر فى آخر الزمان ــ كما يذهب إلى ذلك بعض المفسرين ــ ســـؤال لا يمكن الإجابة عنه بطريقة قطعية اعتماداً على النصوص القرآنية .

فالذى يتضح من النص القرآنى بجلاء تام أن رسالة عيسى عليـــه الســـلام بوصفه " رحمة منا " ترتبط بناءً على هذا فى علاقةٍ وثيقة لا تنفصـــم برســـالة العدل الإلهى وترتبط بالتالي بيوم الحساب. ومن هذا المنطلق يتضح مضمـــون عبارة قرآنية أخرى عن عيسى عليه السلام وهى :

﴿ ... ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾ (النساء : ١٥٩).

والحق أنه ليس من الرحمة فى شىء الزعم بأن حكم الله ســـبحانه وتعـــالى على سعي الإنسان وعمله يستند إلى الرحمة الإلهية وحدها، ولا يســـتند إلـــى العدل الإلهى . ومن هنا لا يصح، عند تأمل رحمة الله ، أن ننسى أنـــها الوجـــه الآخر لعدل الله الذى شاءت إرادته ألا يغفل عن أى إنســـان. ولهذا جـــاء بعـــد

الحديث عن وصف عيسى عليه السلام بأنه "علمٌ للساعة " ــ والساعة هى يــوم القيامة ــ قوله تعالى :

﴿ ... فلا تَمْتَرُنَّ بها واتَّبِعُونِ هذا صراطٌ مستقيم ﴾ (الزخرف : ٦١).

فعيسى عليه السلام الذى هو "رحمة منا"، أي من الله، علّم النـــاس أن تقــوى الله وخشيته ليستا من الأمور الظاهرية ، بل هما تتبعان من إسلام المرء وجهـــه إلى الله . والله كما جاء فى القرآن الكريم أقرب إلى الإنسان من "حبل الوريـــد " (ق : ١٦) . والله يحب المقسطين الذين يؤمنون به ويعملون الصالحات.

وقد جاء في الحديث الشريف في شأن العلاقة الحميمة بين الله والإنسان فــى العبادة وما يرتبط بها من العمل الصالح:

[اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك] (١) .

والإيمان هو التوجه الذى لا يتزعزع إلى الحقيقة الكبرى التى لا تطاولـــها حقيقة أخرى ــ والتى تلوح لنا آياتها فى آفاق العالم ــ وهى حقيقة وجود الله جل شأنه. والأعمال الصالحة هى الأعمال التي تنبت وتربو من هذا التوجه، وهـــى التى تتحقق بهداية الله .

وربما أســـاء البعض فهم ما يشير إليه القرآن الكريم مــــراراً مـــن أن الله سبحانه وتعالى يهدي من يشاء، ويشرح صدر من يشاء للإيمان. ولكن ســـــياق القرآن في كماله وجوهر رسالته يبين بوضوح وجلاء أن رحمة الله تتجـــه فـــى الواقع إلى الناس كافة، وما عليهم إلا أن يفسحوا لها مكاناً فى حياتهم بأن يســـعوا

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الإيمان ــ باب تطوع قيام رمضان من الإيمان .

ما وسعهم الجهد إلى صالح العمل. والتربة إذا كانت متحجرة أشد التحجر لا ينفذ المطر من خلالها ولا يُنبت فيها شيئاً. كذلك الحال بالنسبة إلى القلب القاسي المتحجر الذى ينغلق فى وجه كل خلجة من خلجات الرحمة.

وآيات الله الدالة على الحقيقة لا تحصى ولا تعد ـ كما بين القرآن الكريم ـ . ورحمة الله آية من هذه الآيات ، يتجلى بها على كل إنسان يبتغي وجه الله ويسعى فى أن يرى نفسه فى الآخرين الذين يشاركونه فى الإنسانية ، كما يجتهد فى السعى إلى سلوك طريق العدل والاستقامة .

وعن آيات الله التى لا تنتهى يقول القرآن الكريم عقب الآية السابقة مباشرة:

﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ (فصلت :٥٣) .

وعيسى عليه السلام ـ الذى جاء فى القرآن الكريم أنه رحمة من الله ـ دعا الناس إلى نبذ العنف والسعى إلى السلام. وقد طلب لنفسه السلام عندما تكلم فى المهد ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم:

﴿ ... ولم يجعلنى جباراً شقياً. والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً ﴾ (مريم : ٣٢ـ٣٣).

رابعا : عيسى عليه السلام وحواريوه

عندما أرسل الله عيسى عليه السلام برسالته إلى بنى إسرائيل، وتبين ــ كما يقول القرآن الكريم ــ (آل عمران : ٥٢)، أنهم لا يؤمنون الإيمان الحق، سأل:

﴿ **من أنصارى إلى الله؟ قال الحواريون: نحن أنصار الله. آمنا بالله، واشهد بأنا مسلمون. ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين** ﴾ (آل عمران : ٥٢ــ٥٣) .

ويبين لنا القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى قد توفاه ورفعه إليه وطهره من الذين كفروا أى أخرجه من بينهم، وأن الله قال له:

﴿ **إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة** ﴾ (آل عمران : ٥٥).

وهذا يعنى أن الله لم يمكن أعداء عيسى عليه السلام من قتله أو صلبه :

﴿ **وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم** ﴾ ، ﴿ **وما قتلوه يقينا . بل رفعه الله إليه** ﴾ (النساء : ١٥٧ــ١٥٨).

وهكذا حفظ الله عيسى عليه السلام، ونجاه من الذين اضطهدوه، ورفعه إليه. وهذه الحقيقة تعنى أملا لكل المضطهدين ظلما، وكل المقهورين، فى أن الخير لابد أن ينتصر فى النهاية حتى إذا لم يظهر على هذا النحو فى بعض الأحيان، وأن الإنسان يستطيع أن يسهم فى تحقيق هذا الهدف بما يبذله من سعى جاد، وأن الخير، حتى إذا بدا قليلا، ينتصر فى آخر الأمر على كم الشر حتى إذا بدا كثيرا غالبا. فهناك على كل حال هذا الأمل الذى لا يمكن أن يصلب.

لقد كان عيسى عليه السلام رحمة من الله ، ولقد ظهرت النعمة التى أنعم الله بها عليه ، لا فى حياته هو فحسب، بل فى قلوب الحواريين الذين اتبعوه. حيث جعل الله فيها : " رأفة ورحمة " (الحديد : ٢٧) . ولهذا يعتبر القرآن الحواريين أنصار الله (آل عمران : ٥٢_٥٣) .

ويوجه القرآن الكريم فى موضع آخر الحديث إلى النبى محمد صلى الله عليه وسلم قائلا له إن النصارى أقرب الناس للذين آمنوا، وإن هذا القرب يقوم على شىء يذكره القرآن الكريم دائما كلما دار الحديث حول القلب، ألا وهو المودة أى المحبة، يقول القرآن الكريم:

﴿ ..ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ﴾ (المائدة : ٨٢) .

ولكن القرآن الكريم ينبه النبى محمد صلى الله عليه وسلم إلى التحريفات البشرية التى اختلطت بتعاليم الإنجيل الإلهية الصحيحة ، ويبين له أن القرآن الكريم الذى أنزله الله إليه بالحق قد جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل ومهيمنا عليهما:

﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ﴾ (المائدة : ٤٨) .

كلمة ختامية

وفي ختام هذا العرض للتصور الإسلامى لعيسى عليه السلام نجد أن الكلمة المحورية هنا هى : السلام . لقد طلب المسيح السلام ، والمسلمون يرجون السلام. والقرآن الكريم يبين لنا أن هناك طرقاً مختلفة إلى السلام الذى هو نعمة من عند الله :

﴿ ... لكلٍ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فى ما آتاكم، فاستبقوا الخيرات ... ﴾ (المائدة : ٤٨).

وعلى المسلم عندما يجادل أتباع الأديان الأخرى أن يجتهد في أن يكون قدوة لغيره متمسكاً بالجدال بالتى هى أحسن وملتزماً بآداب الإسلام وتعاليمه ، يقول القرآن الكريم:

﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلـهنا وإلـهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾ (العنكبوت : ٤٦) .

ومن هنا لا يجوز للمسلمين أن يحاولوا فرض التصور الإسلامى على غيرهم من أهل الكتاب . فالله وحده هو الذى سوف يفصل بين الجميع فى النهاية: ﴿ **إلى الله مرجعكم جمعياً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون** ﴾ (المائدة : ٤٨) .

ومن سماحة الإسلام التى تفوق كل تصور أن القرآن الكريم قد وعد أصحاب الديانات الأخرى بأن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون إذا استوفوا شروطا ثلاثة هى : الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر والعمل الصالح ، وذلك

دون الدخول فى أى تفاصيل أخرى تتعلق بالمعتقدات وفى ذلك يقول القرآن فـــى صراحة ووضوح :

﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (المـــائدة : ٦٩) . وقـــد تكرر هذا المعنى أيضا فى آية أخرى فى سورة البقرة (الآية ٦٢) .

الفصل السادس

الإسلام وحقوق الإنسان

- تمهيد

أولاً : الحق فى المساواة

ثانياً : الحق فى الحرية

- كلمة ختامية



الإسلام وحقوق الإنسان(*)

تمهيـد :

لقد أصبح موضوع حقوق الإنسان فى العصر الحاضر من الموضوعات المثيرة للاهتمام والتى يدور حولها جدل كثير ونقاش عريض وتتصدر اهتمام المجتمع الدولى . وقد تكونت فى مختلف أنحاء العالم منظمات كثيرة لحقوق الإنسان للدفاع عن الإنسان الذى هو أكرم خلق الله .

ويكثر اللغط بين الحين والآخر حول موقف الإسلام من هذه القضية. وعلى الرغم من أن الإسلام قد اعتبر الكفاح من أجل تحقيق العدل من ألزم واجبات الإنسان الذى يتقى الله ، فهناك من يزعمون أن حقوقَ الإنسان إنجازٌ من إنجازات العصر الحديث وأن الإسلام لا يعرف ما يسمى بحقوق الإنسان . ولست أريد في هذه المحاضرة أن أشتغل بتفنيد هذه المزاعم التي تقلب الحقائق ، وأن أكشف عن أسبابها ، وإنما أريد أن أعرض الموقف الأساسى للإسلام تجاه هذه القضية .

ويمكننا أن نرد حقوق الإنسان العامة إلى حقين أساسيين: حق الإنسان فى المساواة وحقه فى الحرية. والإنسان يمتلك هذين الحقين منذ مولده على أساس إنسانيته. وحقوق الإنسان الأخرى تتفرع من هذين الحقين .

(*) محاضرة ألقيت فى المجلس الإسلامى فى بون بألمانيا عام ١٩٩٥ Islamisches Konzil, Bonn, 1995

ونحن عندما نمعن النظر فى مَصدري الإسلام وهمـــا : القـــرآن الكريـــم وصحيح الحديث النبوى ، ونفهمهما حق الفهم ، نتبين أن الإسلام يعـــترف فـــى وضوح وجلاء بحق الإنسان في المساواة وحقه فى الحرية وبالحقوق الأخــــرى التي تتفرع منهما. ويشدد القرآن على أن كل هذه الحقوق تقوم على أساس مبـــدأ الإخاء بين البشر جميعاً ، أى مبدأ الإنسانية .

أولاً : الحق في المساواة :

وحق الإنسان فى المساواة تبرهن عليه تعاليم القرآن الكريم التي تنص على الوحدة المبدئية للجنس البشرى . فالبشر جميعا كما يقرر القرآن الكريم قد خلقـوا من " نفس واحدة " كما جاء فى الآية الأولى من سورة النساء .

﴿ يأيها الناسُ اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدة وخلق منها زوجـــها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساء... ﴾ .

فأصلُ البشر كافة واحدٌ، كلهم من ذرية آدم وحـــواء. وليـــس فـــي الديـــن الإسلامى طبقات أو فئات أو أجناس أو أمم لها امتيازات طبيعية تمتاز بها علـــى الآخرين. فالبشر كلهم يحصلون منذ مولدهم على نفس التكريم، فقد كرمـــــهم الله جميعاً بوصفهم بنى آدم كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم :

﴿ ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم مـــن الطيبـــات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ (الإسراء : ٧٠) .

وفى هذه الآية إشارة إلى أن الله كرّم البشر وفضلهم على كثير من خلقـــه . فما هى مقومات هذه الكرامة ؟

إن البشر جميعاً متساوون مبدئياً، بغض النظر عن بعض الفروق الثانوية مثل الجنس ولون البشرة الخ ومن هنا فإن الوضع الطبيعي هو أن تقوم بينهم علاقة الأخوّة. ولكن هذا الوضع المبدئى الطبيعى تتراكم فوقه الفروق الشعوبية والثقافية والدينية . ولا شك فى أن الوعى الحقيقى بالمبدأ الإنسانى عن طريق التربية والتثقيف من شأنه أن يحمل الإنسان على أن يعامل إخوانه من البشر على أساس من التسامح الحقيقى واحترام حقوقهم الإنسانية . والإسلام لا يعترف إلا بفارق وحيد بين البشر له أثره الحاسم فى مصيرهم . ويتمثل ذلك فى التقوى ـ كما ورد فى القرآن الكريم ـ ، أو بتعبير آخر : العمل الصالح :

﴿ يا أيها الناسُ إنّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (الحجرات : ١٣) .

فبينما يطمح الناس، كما نعلم، إلى التميز من خلال السلطة أو الثروة المادية أو الوجاهة الاجتماعية ، يعلمنا القرآن أن الله يفاضل بين الناس بناء على مقياس آخر وهو التقوى التى هى الثروة الباطنة الكامنة فى الإنسان التقى ، ويرتبط بهذه الثروة الباطنة المكانة الروحية الذى ينالها الإنسان بأعماله الصالحة. ومن البديهي أن هذه التقوى تتمثل في علاقة خالصة بالله تدفع الإنسان إلى بذل كل الجهود فى النضال من أجل تحقيق العدل لخير الناس كافة .

والإنسان المؤمن يبتغى رضاء الله، يبتغى وجه ربه الأعلى ، كما يقول القرآن، ويسعى إلى ما فيه صالح البشر. والناس جميعاً متساوون : " سواسية كأسنان المشط " كما بين النبى محمد ﷺ فى خطبة الوداع. ولهذا فمن الظلم البين، أن يظن ظان أنهم مختلفون كل الاختلاف منذ مولدهم، وأن يعاملهم على

هذا الأساس. لقد أدى مبدأ المساواة الإسلامى بين البشر جميعاً إلى قاعدة المساواة أمام القانون الذى لا يفرق فيها الإسلام بين فقير وغنى ، ولا بين حاكم ومحكوم .

وقد جاء في الأثر أن النبي ﷺ، رفض شفاعة أسامة بن زيد لديه من أجل تبرئة امرأة من أسرة مرموقة من بنى مخزوم، أدينت بالسرقة . ويشهد الحديث الذي رواه مسلم أن النبى شدد على المساواة عند التقاضى وعلى ضرورة تطبيق معيار واحد علىَ الجميع، فلو كانت المذنبة هى فاطمة ابنته ، لحكم عليها بنفس الحكم الذى يحكم به على غيرها.

كذلك أكد الخليفة الأول أبو بكر الصديق فى أول خطبة له بعد توليه الخلافة وعلى نحو حاسم كل الحسم مساواة الناس جميعاً أمام القانون ، وفى ذلك يقول رضى الله عنه : " أيها الناس، إنه والله ما فيكم أحدٌ أقوى عندى من الضعيف حتى آخذ الحق له ، ولا أضعف عندى من القوى حتى آخذ الحق منه " . ويزخر التاريخ الإسلامى بالعديد من الأمثلة على أن المسلمين تمسكوا كل التمسك بالمساواة وبالمعاملة العادلة لجميع الناس .

أما أن هذا المبدأ ضروري ضرورة قاطعة غير مشروطة وأننا كثيراً ما نشكو من أنه لا يتبع، فهذا ما يظهر بوضوح في كلمة شهيرة وجهها الخليفة الثاني عمر بن الخطاب إلى واليه على مصر عمرو بن العاص :

" متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ! "

وقد قال الخليفة عمر هذه العبارة فى أعقاب حادثة كان واليه على مصر عمرو بن العاص طرفاً فيها، فقد أتاه يوماً رجل من مصر يشكو إليه ظلم الوالى

عمرو بن العاص . فقد اعتدى ابن عمرو بن العاص بالضرب على المصرى بلا أدنى حق، فلما رفع المصرى القضية أمام الوالى لم يعطه حقه، بل سجنه حتى لا يشد رحاله إلى الخليفة عمر ويشكو إليه ما وقع عليه من ظلم. ولكن السجين استطاع أن يهرب من السجن، وأن يسافر إلى الخليفة عمر بن الخطاب ويقص عليه القصة كلها. واستدعى الخليفة إليه الوالى عمرو بن العاص وابنه ، وتأكد من صحة شكوى المصرى . فبمَ حكم الخليفة ؟ لقد أعطى المصرى درته وأمره بأن يضرب بها ابن عمرو بن العاص ، فضربه . ثم أمره بعد ذلك بأن يضرب الأب وهو الوالى لأن الابن قد ارتكب ما ارتكب نتيجة لنفوذ الأب. ولكن المصرى قال: لقد ضربت من ضربنى ، وهذا يكفينى [١] .

ولا ينطبق مبدأ المساواة بين البشر جميعاً أمام القانون على المسلمين فقط ، بل يشمل كذلك إخوانهم من غير المسلمين. والمبدأ القانونى الإسلامى فى هذا الصدد ينص على أن : (**لهم ما لنا وعليهم ما علينا**) .

ولقد دعا النبى محمد ﷺ مراراً ، كما تبين لنا أحاديثه، إلى حسن معاملة الجيران ، مسلمين كانوا أو غير مسلمين ، فقال ﷺ على سبيل المثال :

[ليس منا من بات شبعان وجاره جائع] [٢] .

وينطبق هذا الأمر على الجار المسلم والجار غير المسلم. وقد أُثر عن ابن عباس ــ ابن عم الرسول الكريم ــ أنه قال لغلامه وقد ذبح شاة :

" لا تنس جيراننا اليهود " .

---

(١) على الطنطاوي وآخرون: أخبار عمر، ص ١٨٣ وما بعدها، دمشق ١٩٥٩.

(٢) رواه الطبرانى والحاكم والبيهقى .

والشريعة الإسلامية ترى أن من حق غير المسلمين أن توفر لهم الدولـة احتياجاتهم وترعاهم. ولهذا عندما رأى الخليفة الثانى عمر بن الخطاب يـهودياً هرماً يتسول فى المدينة قرر له معاشاً ثابتًا من بيت مال المسلمين .

ويشدد الإسلام كذلك على المساواة بين الرجل والمرأة نظراً لأنه ليس هناك بينهما من منظور الإنسانية فرق على الإطلاق. كذلك من ناحية الكرامة الإنسانية لا يوجد شيء يفرق بينهما (الإسراء : ٧٠) فهما من " بنى آدم " الذين كرمـهم الله دون تمييز . وطلب العلم فرض عليهما معًا . والزواج يُعد وسيلة لغرس " المـودة والرحمة " (الروم : ٢١) بين الرجل والمرأة . والله يزن أعمال الرجال والنسـاء بميزان واحد كما يؤكد ذلك القرآن الكريم :

﴿ أنى لا أُضِيعُ عملَ عاملٍ منكم مِن ذَكَرٍ أو أُنثى، بعضُكـم مـن بعـض ﴾ (آل عمران : ١٩٥) .

فالرجال والنساء ينالون الجزاء الذى يستحقونه من الله على أعمالهم ووفائهم بالتزاماتهم على نحو واحد دون تمييز :

﴿ للرجال نصيبٌ مما اكتسبوا وللنساء نصيبٌ مما اكتسبن﴾ (النساء : ٣٢) .

وقد أعطى الإسلام المرأة الحق فى أن تتصرف مستقلة فـى مالـها الـذى لا يحق للزوج أن يأخذ منه شيئًا إلا بإذنها . فلها ذمة مالية مستقلة تمامًـا عـن الرجل . كذلك حرم الإسلام إكراه المرأة على الزواج من رجل لا تحبه.

وليست هناك فروق بين الرجل والمرأة إلا تلك التي تتصل بالطبيعة، وعلى الرجل التزامات مالية حيال زوجته وأولاده . أما فيما عدا ذلك فالرجل والمـرأة ندان ، متساويان كل التساوى .

ثانياً : الحق فى الحرية :

أما الحق الأساسي الثانى ، وهو الحق في الحرية ، فيمكن القول بأن الإسلام قد أعطى الإنسان الحق فى الحرية بكل صورها. فهو يعطيه مبدئياً الحرية السياسية والفكرية والدينية والمدنية .

فكل إنسان بالغ عاقل له الحق في أن يشارك فى اختيار رئيس الدولة ، وفى اختيار النواب الذين يمثلونه. ومن حقه أن يرشح نفسه لأعلى منصب فى الدولة . وشكل الحكومة وأسلوب الشورى يمكن اختيارهما فى حرية، وليس هناك من شرط إلا أن يكونا قائمين على العدل واحترام الحقوق الأساسية للمواطنين .

ولقد أدرك الخليفة الأول أبو بكر الصديق والخليفة الثاني عمر بن الخطاب ضرورة تحديد سلطة الخليفة الذى هو رأس الدولة . ولهذا طلب كل منهما من المسلمين فى خطبتهما الأولى عند توليهما المنصب بأن يعينوهما فى شئون الحكم عند الضرورة ، وبأن يردوهما إلى الصواب إن أخطآ . وهذه الإشارات تدلنا على ما عرفه الإسلام من إدراك مبكر لضرورة الرقابة على إدارة الدولة.

وفى القرآن الكريم أمر الله النبى محمدًا ﷺ ــ الذى جعله قدوة للمسلمين ــ بأن يستشير المسلمين . وجاء هذا الأمر واضحًا وصريحًا فى القرآن الكريم :

﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾ (آل عمران : ١٥٩) .

وفى موضع آخر يقول القرآن الكريم عن المؤمنين :

﴿ **وأمرُهم شورى بينهم** ﴾ (الشورى : ٣٨) .

أما الحرية الفكرية فإن الإسلام قد ضمن للبشر جميعًا الحق في حرية الرأى. والعلماء الذين يدرسون الكون كله بما فيه الإنسان ينعمون بحرية البحث العلمى. وليس من قبيل المصادفة أن القرآن الكريم قد وصف شوق الإنسان إلى العلم، وقدرته على تحصيله فى جميع المجالات ، بأنهما ما يميز الإنسان ويسمو به على الكائنات الحية الأخرى جميعاً.

والشرط الأساسى الذي يضعه الإسلام لذلك، كما يؤكد مراراً، هو التفكير النقدى ، ويشمل ذلك بطبيعة الحال التفكير القائم على النقد الذاتى . فهذا التفكير يمكن من الفهم المستقل ومن العمل المبدع. والإسلام لا يضع حدوداً لمجال البحث العلمى فى أى اتجاه. ويحض القرآن الإنسان على أن يجمع العلم من كل مكان ، من السماء والأرض وما بينهما ، بل ومن داخل النفس البشرية ، ويحضه على أن يستخدم العلم والقوانين المكتشفة لنفع البشر .

وفى الحديث الشريف [1] :

[من سلك طريقاً يبتغى فيه علماً سهّل الله له طريقاً إلى الجنة] .

أما فيما يتصل بحرية العقيدة فقد قرر الإسلام المبادئ التالية :

١ ــ لا يجوز أن يجبر أحد على التخلى عن دينه واعتناق الإسلام.

يقول القرآن الكريم فى ذلك :

﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ (البقرة : ٢٥٦) .

وفى موضع آخر يقول :

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى .

﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ (الكهف : ٢٩) .

ولهذا السبب ضمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب لأهل القدس (إيلياء) من المسيحيين أمنهم ، فقد أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبريئها وسائر ملتها : أنه لا تسكن كنائسهم ولا تُهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صليبه ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم ولا يُضار أحدٌ منهم .. » [1]

٢ ــ يقرر الإسلام حرية المناقشات الدينية. وفى ذلك يقول القرآن الكريم:

﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن﴾ (النحل : ١٢٥) .

وفى موضع آخر يقول:

﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ﴾ (العنكبوت : ٤٦) .

٣ ــ الإيمان الخالص يقوم على الاقتناع واليقين ، لا على مجرد التقليد أو الإكراه .

ويمكن القول فى إيجاز بأن الإسلام يدعو فى أمور الدين إلى التفكير العميق والتأمل وعدم القبول إلا بالبراهين الحقيقية .

أما الحرية المدنية فإن الإسلام يشترط في شأنها أن يكون الإنسان رشيداً بمعنى أن يكون قد بلغ سن الرشد واكتمال العقل قبل أن يقدم على إبرام العقود وتدبير أمور حياته فى استقلال مثل الشراء والبيع والهبة والزواج والوصية .. إلخ .

---

(١) نقلاً عن عبقرية عمر تأليف عباس العقاد، طبعة وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ١٩٦٨، ص ١١٩.

كلمة ختامية :

لقد اتضح لنا مما سبق أن حقوق الإنسان في الإسلام كانت في عصر النبى ﷺ ثابتة الأركان ، ليس على المستوى النظرى فحسب ، ولكن أيضا على مستوى التطبيق العملى .

وهناك فى هذا السياق حقيقة لها أهمية خاصة لا ينبغى أن تغيب عن الأذهان . وتتمثل هذه الحقيقة فى تأكيد الإسلام على الدور الحاسم للمعنى الإنسانى فى تحقيق العدل . فالتراحم بين البشر ، وهو ما يمكن تسميته أيضًا بالأخوة ، يمثل فى نظر الإسلام شرط تحقيق العدل. ولهذا فمن الأهمية بمكان تربية الإنسان على " الإنسانية " بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ، وهذه التربية هى مهمة الدين، لأن الدين يعلمنا ما هو الإنسان. وكل فرد من البشر يرتبط بالآخرين برباط الإنسانية . وهناك حديث نبوى يقول : **[من لا يَرحم ، لا يُرحم]** أى من لا يرحم الناس لا يرحمه الله (رواه البخارى) .

ويشدد الإسلام بصفة خاصة على العمل المسئول الذي يقوم به الفرد. والفرد يملك حقوق الإنسان التي تصون كرامته، وعليه أن يمثل هذا الكرامة وأن يحفظها فى تعامله مع إخوانه من البشر ، وذلك من أجل نفسه ومن أجلهم. ولهذا استهدفت مقاصد الشريعة الإسلامية منذ البداية حفظ الإنسان، فهي تنص صراحة على حفظ حياته وحفظ دينه وحفظ عقله وحفظ ماله وأسرته (النفس والدين والعقل والنسل والمال) من خلال ما قررته من أحكام . ومن حق كل إنسان المطالبة بهذا الضمان .

والمعروف أن كل حق يقابله واجب، فمن أراد حفظ حقوقه، فإن عليه أن يؤدي واجباته. وكل إنسان يتحمل، بما يأتيه من أفعال، المسئولية حيال إخوانه من البشر، وهو ما يعنى صون حقوق الآخرين .

فلا يجوز فى نظر الإسلام أن يتمسك الإنسان بحقوقه هو وينظر فى سلبية إلى معاناة الآخرين الذين لا حيلة لهم فى حفظ حقوقهم . يقول القرآن الكريم فى ذلك :

﴿ وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ﴾ (النساء : ٧٥) .

ولابد لنا فى الختام أن نشير إلى أن التاريخ الإسلامى قد شهد بعض الفترات التى انتهكت فيها حقوق الإنسان ، وتنطبق هذه الإشارة على ما يجري من انتهاكات لحقوق الإنسان على يد غير المسلمين في أجزاء كثيرة من العالم فى عصرنا الحاضر. ولكن هذه الوقائع لا تبرر بحال من الأحوال اتهام الإسلام بأنه ضد حقوق الإنسان ، انطلاقًا من بعض تصرفات حمقاء صدرت أو تصدر من بعض أبناء المسلمين فى الماضى أو الحاضر . فمثل هذه التصرفات تصدر أيضًا من بعض أتباع الديانات الأخرى ، ولا تتحمل هذه الأديان مسئولية ذلك . والمصادر الإسلامية المعتمدة تنفى هذا الاتهام نفياً قاطعاً. فالإسلام يضع كرامة الإنسان فى بؤرة الاهتمام . والإسلام يعلمنا أن الإنسان ينال كرامته من خلال نضاله فى سبيل تحقيق العدل والرحمة ، أى فى سبيل إنسانية الإنسان .

وعلينا أن نعترف بأن هناك مسلمين لا يتبعون اليوم أحكام الإسلام كل الاتباع، إما لأنهم لا يفهمونها، وإما لأنهم يغفلونها. وليس هناك شك فى أن

المسلمين إذا أرادوا أن يُحترم دينُهم وأن يمكِّنوا لأنفسهم فى عالم اليوم، وأن يعلو شأنهم ، فإن عليهم ليس فقط أن يفهموا دينهم الفهم الصحيح، بل عليهم أن يتبعوا أيضًا تعاليمه فى تعاملهم مع الآخرين . وعندئذ يكونون قادرين علـــى صـــون حقوق الإنسان المسلم التي تنتهك بطريقة همجية في أجزاء كثيرة من العالم، كما حدث مؤخراً على نحو خاص فى البوسنة وكوسوفا وفى الشيشان وفى فلسطين . ومن المؤسف أن دول العالم المتحضر التى تساند عادة حقوق الإنسان تنظر إلى هذه الانتهاكات الهمجية متبلدة لا تفعل شيئاً. ولهذا يجــب علــى المســلمين أن يتعلموا الدفاع عن حقوقهم على نحو أفضل .

يقول القرآن الكريم : ﴿ **إن الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفســهم** ﴾ (الرعد : ١١) .

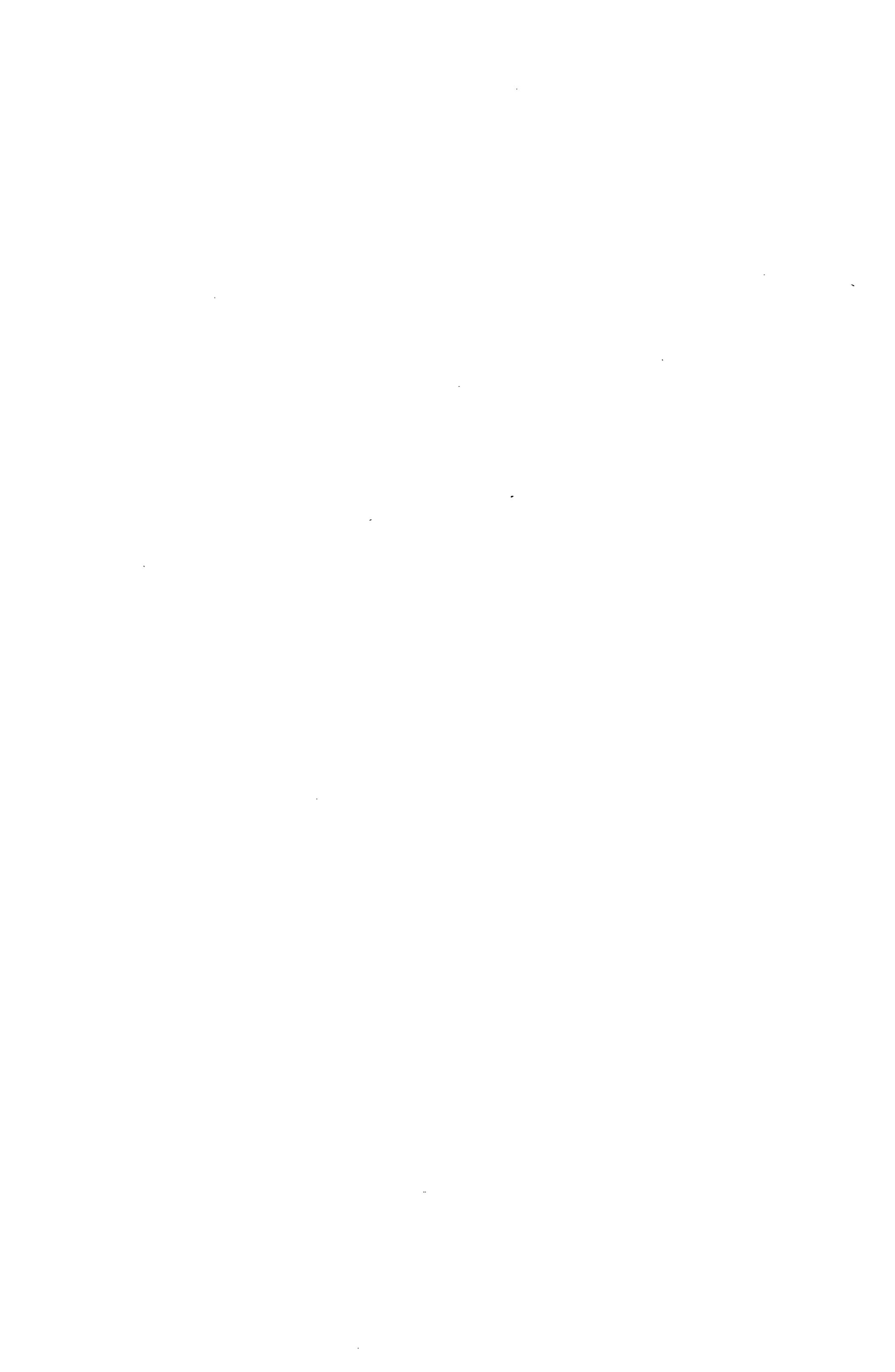
وفى الآية نفسها : ﴿ **وما لهم من دونه من والٍ** ﴾ أى من ناصر ، وعليــهم أن يدركوا هذه الحقيقة .

و "العدل " و " الرحمة " من أسماء الله الحسنى. والإنسانية توجــب علــى الإنسان ، بما هو خليفة الله فى الأرض ، أن يناضل فى سبيلهما حتــى يتحققــا وينعم البشر بالسلام والاستقرار .

الفصل السابع

حرية العقيدة
وحقوق الإنسان فى الإسلام

- تمهيد
- أولاً : الحرية الدينية والحرية المبدعة
- ثانياً : الدفاع عن حقوق الإنسان مهمة دينية
- ثالثاً : التعددية الثقافية فى الإسلام
- رابعاً : الحرية الدينية فى الإسلام التزام دينى
- خامساً : الحرية الدينية فى تاريخ الإسلام :
  - ١ ـ الحوار الدينى
  - ٢ ـ التعددية الدينية وحقوق الأقليات
  - ٣ ـ الوضع الراهن للحرية الدينية فى الإسلام
  - ٤ ـ قضية الردة
  - ٥ ـ تسامح صلاح الدين الأيوبى



حرية العقيدة
وحقوق الإنسان فى الإسلام [*]

تمهيـــد

ليس هناك من شك فى أن قضية حقوق الإنسان، وبخاصة حرية العقيـــدة، تمثل مشكلة من أهم المشكلات في عالمنا المعاصر . وتعد قضية الحرية الدينيـة قضية فلسفية حضارية بالإضافة إلى كونها تدخل فى إطـــار حقــوق الإنســان الأساسية . فالدين ــ كما يتضح من علم فلسفة الحضارة ــ يعــد أســاس كــل حضارة . ومن هنا يمكن أن يطرح سؤال له ما يبرره عما إذا كان الديــن فــى العصر الحاضر لا يزال حيا وفعالا فى حياة الناس ومؤثرا فى البناء الحضــارى المعاصر أم لا .

ودون الدخول فى تفاصيل هذا الموضوع المتشعب الجوانب نود أن نركــز فى هذا البحث على عرض وشرح المبادئ الإسلامية الأساسية التى تتعلق بحرية العقيدة فى إطار التصور الإسلامى لحقوق الإنسان . ومن خلال ذلك ســـيتضح مدى خصوصية الفكر الإسلامى فى معالجة هذا الموضوع .

(*) بحث تم تقديمه للمؤتمر الذى أقامته الأكاديمية الكاثوليكية فى برلين فى الفترة من ١٧ــ١٨ سبتمبر ١٩٩٩م تحت عنوان : حقوق الإنسان .. هل يمكن أن تكون بدون أديان التوحيد العالمية؟ Menschenrechte ohne die monotheistischen Weltreligionen? . Katholische Akademie in Berlin

لقد أعلن الإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان ضرورة الإقرار بحقوق الإنسان التى تشمل البشر جميعاً بلا استثناء، علـــى أســاس المســاواة المبدئية بين الناس جميعا ، وبناء على الكرامة والحرية الفطريتين . ومن هنـــا ينظر الإسلام إلى هذه الحقوق على أنها ضرورات إنسانية . ويشهد التــاريخ أن الإسلام لم يكتف بإقرار حقوق الإنسان وإعلانها، بل إنه أدخلها بنجاح باهر فـــي كل البلاد التي كان المسلمون في عصر الازدهار الإسلامي يحكمونــــها. ولقــد تحقق ذلك لأن الإسلام أقر صراحةً حق كل إنسان في الحرية كما أقر التعـــايش السلمي الإيجابى للثقافات والأديان ، بمعنى أنه : أقر التعددية الثقافية .

وسأبين فيما يلى كيف أن الحرية الدينية تدخل في عداد حقـــوق الإنســان العامة التي يعتبرها الإسلام مبادئ وقواعد قاطعة يقوم عليها كل نظام اجتمــاعي عادل. والحرية الدينية بحسب المفهوم الإسلامي مبدأ طبيعي . وهذا يعني أن من طبيعة الإنسان أن تتاح له الحرية في أن يؤمن وفي ألا يؤمن بما يشاء . وهـــو عندما تتاح له ممارسة حريته فإن ذلك يعنى إتاحة الفرصة أمامه لتربية نفســـه تربية ذاتية ، وبالتالي إمكان ممارسة التدين الصادق.

ولكن الإنسان في التصور الإسلامي ليس مستقلاً استقلالاً تامًا ، كمـــا أن الحرية التى يتمتع بها ليست حرية مطلقة . فالحرية المطلقة لا وجود لـــها فـــى عالم الإنسان . والقرآن يبين لنا أن الإنسان لو تُرك دون توجيه روحى وأخلاقى فإنه يميل عادة إلى تبديد حريته ، وإلى الاستسلام لكل تيار جارف وهو ما يؤدي به إلى الخضوع لتأثير البيئة المحيطة به خضوعاً مفرطاً. وكل هذا من شــأنه أن يعرقل بدرجة خطيرة تربيته الذاتية الضرورية لنمو شخصيته.

وكثيراً ما يؤدي إهمال التربية الدينية (ونعني بطبيعة الحال التربية الدينية في أفضل مفهوم لها) إلى الصلف والكبر والطغيان. وفي هذا يقول القرآن الكريم : ﴿ **كلا إنّ الإنسانَ لَيطغى * أنْ رآهُ استغنى * إنّ إلى ربك الرُّجْعى** ﴾ (العلق : ٦-٨).

ويتصل بهذه الآيات مباشرة التنبيه إلى ضرورة الحرية الدينية ، ويضرب القرآن مثلا لعبد مُنع من تأدية الصلاة، وذلك المنع بلا شك ظلم بيِّن، لأن لكل إنسان الحق في حرية ممارسة دينه الذي اختاره لنفسه بنفسه : ﴿ **أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى، أرأيت إن كان على الهدى، أو أمر بالتقوى**﴾ (العلق : ٩-١٢) .

وليس لأحدٍ أن يمنع إنسانا أو أن يُكرهه على اعتناق دين آخر . ويؤكد القرآن المبدأ الإسلامي فى الحرية الدينية بقوله: ﴿ **لا إكراهَ في الدِّين** ﴾ (البقرة : ٢٥٦) . والمعنى واضح وصريح وهو أنه لا يجوز بأى شكل من الأشكال أن يُكرَه إنسانٌ على اعتناق دين من الأديان ، لأن الحرية جزء لا يتجزأ من الدين.

ولكن الإنسان إذا كان من ناحية حراً في أن يؤمن أو لا يؤمن، وفي أن يؤمن بما يريد، فإنه من ناحية أخرى مفطور بطبيعته على اتخاذ دين من الأديان ، حتى إذا منعه من ذلك الجهل بالغاية من خلقه ، أو الطغيان أو المادية أو الصلف وما إلى ذلك من أسباب الجهل بمهمته. يقول القرآن الكريم: ﴿ **يا أيها الإنسان ما غرك بربِّك الكريم * الذي خلقك فسوّاك فعدَلك * فى أى صورةٍ ما شاءَ ركَّبك** ﴾ (الانفطار :٦-٨).

فالإنسان عندما يعرف كيف تم خَلقُه ، أي عندما يعرف الحقيقة المتمثلة في أنه لم يخلق عبثًا أو بالصدفة من عدمٍ ما، يستطيع أن يكون قادراً على تولي مهمته الدينية التي فُطِر عليها . وهذه المعرفة تمكنه من تربية نفسه ذاتيا ومن تنمية شخصيته على نحو يتسم بالإبداع . وهكذا نصل إلى قضية الحرية المبدعة أو الخلاقة .

أولاً : الحرية الدينية والحرية المبدعة :

إن الإسلام يعلمنا أن الإنسان لا تكون لديه سعة أفق كافية تجعله يعترف للآخرين بنفس الحريات والحقوق التي يتمناها لنفسه إلا عندما يتبع فطرته الحقيقية التى فطر عليها منذ خلقه .

وقد تحدث القرآن في سياق حديثه عن نظام المجتمع العادل عن ثلاث نعم أنعم الله بها على الإنسانية ، وهي : (١)

١ ــ الكتاب (أي آيات التنزيل المدونة) .

٢ ــ الميزان وهو رمز العدل .

٣ ــ الحديد وهو رمز قوة التشريع وقوة السلاح الذى يستخدم في الكفاح ضد العدوان .

هذه النعم الثلاث تمثل الركائز الضرورية لتحقيق حقوق الإنسان والحريات التي يقوم عليها نظام المجتمع العادل وهو النظام الذي يمكِّن أفراد المجتمع من

---

(١) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ﴾ (الحديد : ٢٥) .

تنمية إنسانية طبيعية . وفيما يلى نتناول أهم هذه العناصر التى تتمثل فى الكتاب أو "الدين الخالص" :

تُعَد الحرية الدينية شرطا لا محيص عنه لنظام أى مجتمع عادل . وتتمثل الحرية الدينية فى أن الناس ، على الرغم من أنهم مفطرون على الدين يجب أن تترك لهم الحرية لاتباع هذه الفطرة أو رفضها أيضًا . وقد حَرّم الإسلام الإكراه في الدين، فاعتناق الدين عمل قوامه الحرية، والله سبحانه وتعالى نفسه يدع للإنسان، كما يقول القرآن، الحرية فى أن يؤمن به أو لا يؤمن، على الرغم من أنه سبحانه ، وهو القادر بلا حدود ، كان يستطيع أن يجعل الناس جميعا مؤمنين : ﴿ **ولو شاءَ ربُّك لآمن مَن في الأرض كلُّهم جميعاً** ﴾ (يونس : ٩٩) .

فإذا كان الله جلّ وعلا يدع للبشر حرية العقيدة، فكيف يخطر ببال إنسان أن يحاول إكراه البشر على أن يؤمنوا؟ هذا سؤال يطرحه القرآن بحق فى تكملة للآية السابقة : ﴿ **أفأنت تُكرِه الناسَ حتى يكونوا مؤمنين** ﴾ (يونس: ٩٩).

فالإنسان حر في أن يعتقد ما يشاء . والحرية ضرورية للإيمان . وهذه الحرية تلقائية لا يمكن ضبطها من خارجها ، لأنها تنبع من داخل الإنسان . والقرآن يقول: ﴿ **فمن شاءَ اتخذ إلىَ ربه سبيلاً** ﴾ (الإنسان : ٢٩).

والإنسان الذي قرر الإيمان ، لا يتصرف فى اللحظة ذاتها انطلاقا من إرادة غير منضبطة . لقد اختار طريقا معينا يرقي بطبيعته الروحية لأنه يهبه حرية مبدعة . فالإنسان إذن حر في أن يؤمن أو لا يؤمن ، ولكنه في الوقت نفسه بفطرته مكلف بالتوجه إلى الدين أو الإيمان الذى يسميه القرآن " الدين القيم " أو " الدين الخالص " : ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ (الروم :٣٠).

والإسلام يبين لنا أن الإنسان إذا لم تحل بينه وبين تطوره الطبيعي عقبات ما ، فإنه يتجه تلقائياً إلى الدين الخالص . هذا الدين الذى دعا إليه ـ كما جاء في القرآن الكريم ـ كل الأنبياء والمرسلين في مختلف العصور (يونس : ١٣-١٥ وغيرها). وهذا الدين الخالص هو الدين الذي تقوم عليه كل الأديان من لدن آدم حتى محمد عليه الصلاة والسلام .

لقد كان هناك منذ البداية تطابق تام من الناحية العملية بين الدعوة الإسلامية والدعوة إلى العدل، أي أن الدعوة الإسلامية وقفت مبدئياً وبقوة مع حقوق وحريات الآخرين كما وقفت بقوة مع حقوق الفرد وحرياته. ولقد كانت مهمة النبي محمد ﷺ ، كما يقول القرآن الكريم ، تتمثل فى إقامة العدل: ﴿ **وأمرت لأعدل بينكم** ﴾ (الشورى : ١٥) ، وذلك فى إطار الرحمة التى هى هدف الرسالة الإسلامية كلها : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ (الأنبياء : ١٠٧) .

ومفهوم العدل مفهوم شامل إلى أبعد الحدود . فالعدل قيمة لا تتجزأ وترتبط ارتباطا وثيقاً بحرية الإنسان . ويعبر حديث رسول الله ﷺ فى بساطة شديدة عما يجعل الإنسان خيرا بقوله : [**من أحب أن يتزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويأتى الناس ما يحب أن يؤتى إليه**] [1] .

وهذا يعنى تحمل الإنسان المسئولية كاملة لعواقب اختياره الحر للعقيدة وللتعامل مع الآخرين . وهذا ما يؤكده القرآن في مواضع عديدة من أن الإنسان

(١) (رواه كل من الإمام مسلم والإمام أحمد) .

هو الصانع الحر لمصيره ، وأنه نتيجة لذلك مسئول عن أفعاله أمام الله . وهذه الحقيقة هي لب رسالة الإسلام، وقد حَسمت الجدل فى هـــذه القضيـــة وجعلـــت المشاحنات والمحاجات الدينية فيها لا جدوى منها ولا معنى لها . ولـــهذا يقـــول القرآن الكريم: ﴿ **لنا أعمالُنا ولكم أعمالُكم لا حجةَ بيننا وبينكم اللهُ يجمعُ بيننـــا وإليه المصير** ﴾ (الشورى : ١٥).

أما أن الإنسان يتحمل مسئولية أعماله (وهذا أمر يتولى الكشـــف عنـــه بوضوح ضمير الإنسان إذا كان حيا ومتيقظًا) فهو ما يدل على أنه كائن حـــر. ولكن هذه الحقيقة كثيراً ما يغفل الناس عنها. وهنا نصل إلى مسألة أخرى هامـــة من مسائل العقيدة الإسلامية التى يُسَاء فهمها فى كثير من الأحيان ، وهي كيـف يمكن التوفيق بين ما يقول به الإسلام من الهيمنة الكاملة لله وبين حرية الإنسان .

إن علينا هنا أن نفرق بين نوعين من الحرية ، أولهما هو الحريـــــة غـــير المنضبطة ، وثانيهما يتمثل فى شكل آخر من الحرية أعلى وأسمى، وخير اســـم نطلقه عليه هو الحرية المبدعة (١) ، لأنها تجعل الإنسان في وضع يكـــون فيـــه قادراً على إبداع شيء جديد ، أى إبداع شيء لم يكن موجوداً من قبل..

---

(١) عندما يرتبط الإنسان بالله فى علاقة إيمانية فإن ذلك يجعله يستخدم حريته على نحو معقول له مغزى ومـــن ورائه حكمة ، لأن له هدفاً سامياً يسعى لتحقيقه بإرادة واثقة وعزم أكيد . ومن هنا يمكن أن يطلـــق علـــى هذه الحرية أنها حرية مبدعة ، وذلك فى مقابل الحرية غير المنضبطة التى تنطلق فى جميـــع الاتجاهـــات على غير هدى وعلى نحو لا يتقيد بالمعقولية ، بل يخضع للأهواء والرغبات . ومن أجل ذلك تكون هـــذه الحرية عرضة للضياع ، وتنتهى بصاحبها إلى التمزق والتشتت مثل حال هذا الذى يصفه القرآن بقولـــه : ﴿ **ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق** ﴾ (الحـــج : ٣١).

والقرآن الكريم يشير إلى هذه الحرية المبدعة عندما يذكر أن هناك عــاملين مؤثرين في قرار الإيمان هما :

١ ــ القرار الذى يتخذه الإنسان من جانبه بالإيمان .

٢ ــ القرار الإلهى فى هذا الشأن بإيمان هذا الإنسان .

فقرار الإنسان أن يسلك السبيل إلى ربه هو فى الوقت نفسه مشــيئة إلهيــة بالهداية إلى هذا السبيل . ويعبر القرآن عن هذه الحقيقة بقوله : **﴿ فمــن شــاء اتخذ إلى ربه سبيلاً * وما تشاءون إلا أن يشاء الله ﴾** (الإنسان : ٢٩-٣٠) .

والإسلام يبين لنا أن الإنسان الذى يطيع الله عن إيمان خالص يرتبط عــن طريق الروح الذى نفخه الله فيه عند خلقه (الحجر: ٢٩) ارتباطاً روحياً بخالقــه الذي يلهمه. وما يأتى به الإنسان فى هذه اللحظة من فعل يكــون فعــل حريــة مبدعة .

ومن منظور هذه المناقشات التي تناولت تكوين الإيمان والحريــة المبدعــة يتضح بجلاء لماذا تعتبر الصفات الروحية في الإسلام ــ مثل العدل والرحمــة والسلام وما إليها ــ من صفات الله ، فالإنسان لا يمكنه أن يتصف بــها إلا إذا استطاع أن يسمو على ذاته.

والإسلام يوجه الإنسان إلى السعي إلى الحق وإلى التوكل على الله ، لأن رحمة الله من وجهة النظر الإسلامية تلعب دوراً حاسماً بالنســبة إلــى مصــير الإنسان. وقد جاء في حديث نبوي شريف: [**لن يُنجي أحداً منكم عملُــه. قــال رجل : ولا إياك يا رسول الله؟ فقال: ولا إياي إلا أن يتغمدني الله منه برحمــة، ولكن سددوا**] [1] .

---

(١) صحيح مسلم، القاهرة ١٩٨٧، دار الريان، ج ١٧، ص١٥٩.

وفى حديث آخر عن الرحمة يقول النبى عليه الصلاة والسلام : **[من لا يَرحم لا يُرحم]** [1] .

ويتضح من هذا الحديث الأخير أن الإنسان صانع مصيره وهذه حقيقة لا سبيل إلى التزحزح عنها من منظور الإسلام.

وإذا نظرنا إلى التصور الإسلامي لقدرة الله وعرشه الذي يشمل السموات والأرض (البقرة : ٢٥٥) من منظور مسئولية الإنسان عن عمله في هذه الدنيا ، بدت لنا قدرة الله في ضوء آخر. وكثيراً ما يسيء البعض فهم قدرة الله ويصوّرونها فى صورة حكم إلهي مستبد مما يؤدي إلى فكر قَدَري عقيم. وهذه التفسيرات الخاطئة لا يمكن القول بها إلا إذا استند قائلوها إلى آيات قرآنية متفرقة نزعت من سياقها. والقرآن الكريم يرشدنا إلى مكمن أسباب إساءة تفسير رسالته عندما يقول: ﴿ **فأما الذين في قلوبهم زَيْغٌ فيتَّبعون ما تشابَهَ منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله** ﴾ (آل عمران : ٧) .

ومن الواجبات الدينية أن يدرس المرء تعاليم الإسلام دراسة واعية وأن يفهمها الفهم الصحيح. وطلب العلم بمعناه الشامل للعلوم الدينية والدنيوية يعد فريضة على كل مسلم ومسلمة ، ولهذا يحظى العلم فى الإسلام بتقدير كبير . ومن هنا جاء قول النبىﷺ : **[من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سهّل الله له طريقاً إلى الجنة]** [2] .

(١) رواه البخارى فى كتاب الأدب ، مسلم فى كتاب الفضائل .

(٢) رواه الإمام مسلم فى صحيحه .

وخير مثال يصور لنا ائتلاف إرادة الله المهيمنة وإرادة المؤمن هو ما تتضمنه تعاليم الإسلام من اختيار الإنسان خليفة لله ــ وكيلاً ونائباً عنه ــ في الأرض .

ويشير القرآن الكريم إلى أن الله قد سخر للإنسان كل شيء في العالم ، وأنعم عليه بنعم لا تحصى . ولكنه اشترط عليه أن يشكر ربه بالغيب، وأن يقوم كل فرد ــ كلٌّ في دائرة حياته ــ برعاية إخوانه من البشر ورعاية بيئته على نحو مسئول. وكما أن نائب الملك يتصرف في غيبته طبقاً لرغبات الملك وتعليماته فإنه مع ذلك عليه أن يتصرف على نحو مبدع ومسئول مسئولية ذاتية، كذلك الإنسان يحمل في نطاق دائرة حياته مسئولية أعماله وعليه عاجلاً أو آجلاً أن يقدم لربه كشف الحساب .

ولا يكفي أن يتم إعلان مبادىء العدل والرحمة أو حقوق الإنسان العامة. بل يجب أن يواكب القول العمل ، ويتطابق الإعلان مع الممارسة .ومن أقوال الخليفة عمر بن الخطاب فى رسالته فى القضاء التى كتبها إلى أبى موسى الأشعرى : " **إن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك ، وأنفذ إذا تبين لك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له** .. " [1] . وهذا الموقف المثالى من جانب عمر يلقى الضوء على الحقيقة ويوضحها ويقربها إلى الأفهام . والخليفة عمر بن الخطاب نفسه هو صاحب العبارة الشهيرة: "**متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً**."

والدين يدعو إلى تحرير الإنسان من العبودية. وحرية العقيدة والحرية الدينية من منظور الإسلام شرط لا محيص عنه للدين. فبدونهما تتقلص رسالته.

---

(١) حقوق الإنسان فى الإسلام للدكتور / على عبد الواحد وافى ص ٨ ــ طبعة وزارة الأوقاف (دون تاريخ) .

ثانياً : الدفاع عن حقوق الإنسان مهمة دينية :

تقوم المطالبة بحقوق الإنسان في الإسلام على أساس مفاهيم تختلف فى نهجها عن النهج الغربي. ولكن حقوق الإنسان التى أعلنت في الغرب فى العصر الحديث تتفق من حيث المبدأ مع حقوق الإنسان التى حرص الإسلام على صونها منذ أربعة عشر قرنا من الزمان . ومن المعروف أن مقاصد الشريعة الإسلامية تتمثل فى حفظ النفس والعقل والدين والمال والنسل (الأسرة) .

فأسباب المطالبة بحقوق الإنسان وسياقاتها متباينة في الثقافتين. فعلى العكس مما حدث في العالم الغربي الذي أعلن في العصر الحديث مبدأ العلمانية (بمعنى فصل أمور الدين عن أمور الدنيا) واستقلال الإنسان الذاتي لم يشهد العالم الإسلامي مثل هذا الانفصال . ولم تكن هناك ضرورة لإعلان مثل هذا الفصل بين الدين والدنيا. فقد شجّع الإسلام منذ البداية توجه الإنسان المؤمن إلى الدنيا بصفتها مجالا لنشاطه الخاضع لمسئوليته. والمؤمن مسئول مباشرة أمام الله عن أعماله، ولقد علمه الإسلام أن أهم واجباته أن يدافع بقوة عن حقوقه وحقوق الآخرين من إخوانه من البشر المشاركين له في الإنسانية.

فالبشر جميعاً طبقاً لتعاليم الإسلام متساوون ، ينحدرون من أصل واحد، ولهذا فإن لهم جميعاً الحق نفسه في الحرية والكرامة. ثم إنهم جميعاً مكلفون بمهمة واحدة وهي عمارة الأرض، تلك الأرض التي تلقوا من الله الأمر بالحفاظ عليها. والناس جميعاً خلقوا من نفس واحدة، وهم أجزاء من هذه النفس الواحدة، وكلهم نالوا بمولدهم نفس الكرامة ونفس الحرية، فكلهم بنو آدم كما يسميهم

القرآن (الإسراء : ٧٠) . ولهذا فإن النتيجة الطبيعية هي أن تقوم بينـــهم علاقـــة الأخوّة وأن يكون موقف الأخوة هو الموقف الطبيعي لكل منهم حيال الآخر.

ولكن هناك أمورا عديدة قد غطت على هذه المساواة المبدئية تتمثـــل فـــى الفكر التنافسى السلبى والتربية الخاطئة والتباين فى ظروف الحياة والاختلاف فى الجنس والثقافة والدين .

فإن روح التنافس الإيجابى والتسابق الطبيعي التي تعد محرك التطور والتي يشجعها الإسلام ويوصي بها حيث يقول القرآن الكريم:﴿ **فاســتبقوا الخــيرات** ﴾ (المائدة : ٤٨) ، هذه الروح كثيرًا ما تنقلب بسهولة إلى عدوانية ومادية.

فإذا نحن أخذنا بتربية دينية أساسية من شأنها أن تمكّن الإنسان من تربيـــة ذاته على نحو سليم (تلك التربية التي تصنع في نظر الإسلام الفرق الهام الوحيد بين الناس) ، أمكننا أن ننمي الصفات اللازمة لقيام مجتمـــع إنســانى حقيقــى ـــ أعنى مجتمعاً يقوم أيضاً على التعددية الثقافية ـــ وأمكننا أن ننمي التفكير الحر المستقل والاستعداد للتفهم والتفاهم مع الآخرين ، والتسامح الإيجـــابى معـــهم ، ولأمكننا قبل هذا وذاك أن ننمي ضميراً حيا وفعالا . وتلك هي أهـــداف التربيـــة الإسلامية إذا فهمناها الفهم الصحيح.

ثالثاً : التعددية الثقافية في الإسلام :

إذا أراد المرء أن يفهم أصحاب ثقافة أخرى فهماً حقيقياً (وهذا أمر أصبح ضروريا في عالمنا الذي يسمونه القرية الكونية) فلابد أن يكون ـ بالإضافة إلى دراسته لثقافة الآخرين ـ على وعى بأصوله الثقافية وجذوره الحضارية . وبدون هذين الأمرين لا يمكن أن يتحقق تبادل حقيقي للأفكار ، وحوار مثمر وتعايش ناجح مع الآخرين . ولا شك فى أن ذلك الفهم المتبادل من شأنه أن يحقق مصلحة عامة لخير كل الأطراف .

وقد أعلن الإسلام منذ البداية أنه على الرغم من أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الناس مختلفين فإنه يريد لهم أن يتعارفوا ويتعايشوا معا ويتسابقوا فى الخيرات : **﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾** (الحجرات : ١٣) . وفى موضع آخر : **﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾** (البقرة : ١٤٨) .

والتسامح الإيجابي الذي يأمر به الإسلام لا يعنى مجرد قبول التعايش مع الأديان والحضارات الأخرى فحسب ، بل يعنى أيضاً احترامها والتعاون معها ، ويترتب على ذلك الحفاظ الناجح على حقوق الإنسان العامة، وبخاصة الحرية الدينية ، وهذا التسامح الإيجابى ـ الذى يعد شرطاً أولياً لأى ازدهار حضارى كما هو معروف ـ قد مكّن الإسلام من الازدهار والتقدم الذي استمر على مدي قرون عديدة وكان له تأثير واضح ومثمر على تطور أوروبا ذاتها في القرون الوسطى وما بعدها .

وقد نعم المسيحيون واليهود في ظل حكم الإسلام في الأندلس – على سبيل المثال – بهذا التسامح الإيجابي الذي قام على أساسه تعاون مثمر مع المسلمين نهضت من خلاله الثقافة في الأندلس نهضة عظيمة.

ومن المعلوم أن صحيفة المدينة ـ التى أعلنها النبى صلى الله عليه وسلم بعد هجرته إلى المدينة ـ قد أقرت التعددية الدينية على نحو صريح لا يقبل التأويل . وقد مارس المسلمون فى علاقتهم بالآخرين التعددية فى شتى صورها انطلاقا من تعاليم الإسلام الذى علّم المسلمين السلوك الذى رسخ جذور هذه التعددية ، وهو السلوك المتسامح القائم على العدل والبر كما جاء فى القرآن الكريم :

﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ (الممتحنة : ٨) .

رابعاً : الحرية الدينية في الإسلام التزام ديني :

لقد سبق أن أشرنا إلى أن تسامح الإسلام مع الأديان الأخرى تسامح إيجابي فعال ، فهو ليس مجرد القبول بالتعايش الحيادى مع هذه الأديان الأخوى بل يعنى في الوقت نفسه احترامها. وقد اعتمد هذا التسامح الإيجابي على أصلين أساسيين هما :

أولاً : يطالب الإسلام مبدئياً بأن يتخذ الإنسان حيال البشر جميعاً موقفاً متسامحاً عادلاً، لا يستثنى منهم بطبيعة الحال إلا الجماعات المعادية.

ثانياً : يؤكد الإسلام أن كل الأديان السماوية من عند الله، ولهذا يفرض على المسلمين الإيمان بهذه الأديان واحترامها واحترام أنبيائها ــ مثل موسى وعيسى وغيرهما ــ بوصفهم رسلا من عند الله . ويستتبع هذا بداهة الالتزام بالحرية الدينية ،تلك الحرية التى سبق أن بينّا أنها منبثقه بالضرورة من جوهر الدين نفسه.

وإذا كانت كل الأديان تعد سبلاً منزلة من السماء تؤدي إلى الله، كما يبين لنا القرآن، فمن البديهي أن يعترف بها كلُّ المؤمنين، اعترافاً قوامه التسامح الإيجابي لا مجرد التسامح السلبي. فالإسلام لم يُقر فقط التعددية الثقافية، بل أقر أيضاً التعايش السلمي الإيجابى بين الأديان.

وليس هناك من شك في أن هذا التسامح الإيجابى بين الأديان يمثل تحدياً للعقل البشرى ، حيث يوحى بالجمع بين أمرين يبدوان متناقضين ؛ فكل دين من شأنه أن يطلب لنفسه الحق فى امتلاك الحقيقة المطلقة ، وهذا يعنى أنه يستأثر بالحقيقة دون غيره . فكيف يتفق ذلك مع الاعتراف بالأديان الأخرى ؟ .

إن الجمع بين هذين الأمرين يعد ممكنا من وجهة النظر الإسلامية. فالإسلام يرى أن الاعتراف بالأديان الأخرى ، وبأنها مبدئياً تعد سبلا منزلة من السماء تؤدي إلى الله ، لا يعني بأي حال الانتقاص من قدر ديننا، بل إلى تحققه بكامل إمكاناته . وبهذا نقضي على كل أشكال التعصب وضيق الأفق ورفض الآخر .

إن الدراسة الدقيقة للأديان جديرة بأن تبين لكل من يسعى إلى الفهم الحقيقي لرسالة الأديان أنها جميعا في أساسها ــ كما يبين لنا القرآن الكريم ــ تتضمن الرسالة الإلهية، رسالة العدل والرحمة، ورسالة السلام الذي ينتج عنهما.

ولا يتمثل دور الأديان في أن تقيم أو تساند تنافساً أجوفاً من أجل السلطة الدنيوية ــ وإن كان هذا كثيراً ما يحدث للأسف ــ بل يتمثل في الحض على التنافس والتسابق من أجل "الخيرات" كما يقول القرآن الكريم في صراحة ووضوح : ﴿ **لكلٍ جعلنا منكم شِرعةً ومنهاجاً، ولو شاء اللهُ لجعلكم أمةً واحدة، ولكنْ ليَبلُوكم في ما آتاكم فاستَبِقوا الخيرات، إلى اللهِ مَرجِعُكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون** ﴾ (المائدة: ٤٨).

وإذا لم يوفق المؤمنون في اجتياز الابتلاء المشار إليه في الآية الكريمة، ولم يستبقوا الخيرات، فعليهم أن يتوقعوا أن يعرض الله عنهم وأن يختار غيرهم لتنفيذ مقاصده. ولهذا جاء في القرآن الكريم : ﴿ **فلا تتبعوا الهوى أنْ تَعْدِلوا، وإن تَلْوا أو تُعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً** ﴾ (النساء : ١٣٥).

﴿ **إنْ يشأ يُذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً** ﴾ (النساء : ١٣٣).

خامساً : الحرية الدينية فى تاريخ الإسلام :

بعد هذا العرض الموجز للمبادئ الإسلامية المتعلقة بحقوق الإنسان العامة والحرية الدينية على وجه الخصوص أود أن أشير فيما يلي إلى بعض قضايا تاريخ الحرية الدينية في الإسلام . وسأتناول هنا على وجه الخصوص النقاط التالية التي تهم المراقبين الغربيين بصفة خاصة . وهذه الموضوعات هى :

ـ الحوار الديني .

ـ التعددية الدينية وحقوق الأقليات .

ـ الوضع الحالي للحرية الدينية في الإسلام .

ـ قضية الردة فى الإسلام .

ـ صلاح الدين بوصفه نموذجاً للتسامح الديني الإيجابي كما يفهمه الإسلام .

ومن المهم أن نشير بادئ ذي بدء إلى أن المسلمين قد ظلوا مبدئياً على مدى تاريخهم كله وإلى اليوم يتبعون تعاليم الإسلام فى هذا الصدد بضمير واع، فلم يُكرهوا أحدا قط من المسيحيين أو اليهود أو أى جماعات أخرى على اعتناق الإسلام. فالإسلام، كما أوضحنا من قبل ، يرى أن الإكراه على اعتناق دين من الأديان دون اقتناع من شأنه أن يولد منافقين لا مؤمنين . والإيمان المترتب على ذلك إيمان زائف لا قيمة له . ومن هنا حرّم الإسلام أن يُكرَه أي إنسان على الدخول في الدين. وفي توافق مع هذا الموقف دعا الإسلام بدلاً من الإكراه، كما بينّا، دعوة مبدئية إلى تسامح إيجابي حيال الأديان الأخرى وحيال البشر جميعاً، واتبع المسلمون هذه الدعوة.

١ ــ الحوار الدينى :

يعد الإسلام أول دين أكد ضرورة الحوار الصريح بين الأديان، ولقد تمكن الإسلام من اتخاذ هذا الموقف لأنه أول دين يعترف بالأديان السماوية بوصفها طرقا إلى الله . وليس هناك في رأي الإسلام فرق من الناحية المبدئية بين هذه السبل، بل يرى أن المهم أن يحرص أتباع هذه الأديان صادقين على العمل الذى يتسم بالعدل والإخلاص . يقول القرآن الكريم: ﴿ **ولا تجادلوا أهلَ الكتابِ إلا بالتي هي أحسن، إلا الذين ظَلَموا منهم، وقُولوا آمنّا بالذي أُنزل إلينا وأُنزل إليكم وإلـهُنا وإلـهُكم واحدٌ ونحن له مسلمون** ﴾ (العنكبوت : ٤٦) .

ويتطلب الحوار بين الأديان من المنظور الإسلامي سعة الأفق والتسامح، والوعي بأن الإنسان من شأنه أن يخطئ ، وإدراك المعنى الذي عبر عنه القرآن الكريم في قوله : ﴿ **ادعُ إلى سبيلِ ربِّك بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ وجادِلْهُم بالتي هي أحسن، إنّ ربَّك هو أعلمُ بمن ضل عن سبيلِه وهو أعلمُ بالمهتدين**﴾ (النحل : ١٢٥).

وحتى لو لم يكن الهدف الصريح للحوار القائم هو اجتذاب الجانب الآخر للدخول في معسكر الداعي للحوار، فلا يصح أن تتخذ الحوارات الدينية ذريعة لسب دين الآخرين، أو الاستهزاء به. كذلك لا يصح أن يشتغل الإنسان المشارك في الحوار بين الأديان بموضوعات هدفها المماراة والمخاصمة ، بل عليه أن يجتهد في استخلاص النقاط المشتركة بين الأديان، أي أن يتخذ منها موقفاً إيجابياً. وفي هذا المعنى يقول القرآن الكريم: ﴿ **قل يا أهلَ الكتابِ تعالوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ألا نعبدَ إلا اللهَ ولا نشركَ به شيئاً ولا يتخِذَ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله** ﴾ (آل عمران : ٦٤).

ومثل هذه الحوارات الدينية الصريحة بين الأديان أو بين المذاهب المختلفة كانت على سبيل المثال تقام في العصر العباسي وكان الخلفاء يدعمونها بل كثيراً ما كانوا يترأسونها. وكانت تجري في جو من الصراحة الكاملة وتتضمن مناقشات علمية بين علماء يمثلون مختلف الطوائف والمذاهب بل والأديان . [1]
وقد كان أول حوار فى الإسلام بين المسيحية والإسلام هو ذلك الحوار الذى أجراه النبى عليه الصلاة والسلام مع وفد نصارى نجران فى مسجده بالمدينة المنورة .

٢ ــ التعددية الدينية وحقوق الأقليات :

لقد أعلن القرآن الكريم في صراحة ووضوح رفضه لكل أشكال التميز الظالمة بين البشر ، وأمر بدلاً منها بالتسامح الإيجابي . يقول القرآن الكريم فى الآية التى سبقت الإشارة إليها : **﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تَبَرُّوهم وتُقسطوا إليهم إن اللهَ يحب المقْسطين ﴾** (الممتحنة : ٨).

وإذا تأملنا هذه الآية وأنعمنا فيها النظر فسيتضح لنا أن للقرآن في كثير من الأحوال لا يستخدم أسلوب الأمر بطريق مباشر ، بل يستخدم بدلا منه أسلوب التوجيهات التى تتسم بالرفق واللطف ، لأنه يدعو الإنسان إلى التأمل الحر واتخاذ القرار، فلا يفرض بالإكراه شيئاً من شأنه ألا يفرض بالإكراه. فمنهج

---

(١) راجع : حقوق الإنسان فى الإسلام للدكتور علي عبد الواحد وافى ص ١٣٧ (مرجع سابق) .

القرآن يقوم على تقديم حل المشكلة المطروحة على نحو متدرج، وعلـــى تقديــم شرح التعاليم على نحو متدرج أيضاً، بحيث يناسب الحل والشرح مستوى ثقافـــة الفرد. فليس الهدف الذي يرمي إليه القرآن هو الطاعة الآلية أو العمياء ، وإنمـــا الطاعة التي تكون ناتجة عن اقتناع.

وطبقاً لمبدأ الحرية الدينية وضع النبي محمدﷺ بعد هجرته إلـــى المدينـــة المنورة دســـتوراً للمدينة يضمن التعايش السلمي للأديان وبالتالي يضمن حقـــوق الإنســـان المتساوية لجميع قبائل المدينة . وفي هذا الدستور المدني الديموقراطي الذي تقرر قبل أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان ، وُصِـــف اليـــهود الذيـــن يعيشـــون في المدينة بأنهم أمة تشكِّل مع أمة المسلمين في المدينة جماعة واحدة. وبهذا كان لليهود ما للمسلمين من حقوق وعليهم ما عليهم من واجبـــات ســـواء بسواء، مع تأكيد صريح على الاختلاف بين الأديان. هكذا تبنـــى النبـــي عليـــه الصلاة والسلام منذ البداية وبتصميم لا يلين قضية الحريـــة الدينيـــة والتعدديـــة الدينية وقَبِل اختلاف العادات والتقاليد [١] .

كذلك أعلن النبي أمام جميع أسرى الحرب وسكان المناطق المفتوحة إعلانـــاً واضحاً صريحاً أن لهم أن يقرروا بأنفسهم وفي حريةٍ أمر دينهم ، وأنـــهم لـــن يُكرهوا بحال من الأحوال على الدخول في الإسلام. ذلك لأنه كان يعطي حريـــة اتخاذ القرار في شأن العقيدة أهمية كبرى. وكان لهذا السبب لا يفتأ يحذر من أى محاولة لإجبار أحد على الدخول فى الإســـلام، وقد كتب في إحدى رسائله إلـــى أهل اليمن: " إنه من كان على يهودية أو نصرانية فإنه لا يُفتن عنها" [٢] .

---

(١) راجع : محمد حسين هيكل . حياة محمد، القاهرة ١٩٦٥، ص ٢٢٥ وما بعدها . مكتبة النهضة المصرية .

(٢) كتاب الأموال ، لأبي عبيد القاسم بن سلام ، بيروت ١٩٨٦م ، تحقيق وتعليق محمد خليل هـــراس ، ص ٣٢.
انظر Batzli, Menschenbilder..Menschenrechte, Zürich 1994, S. 159

كذلك كان النبيﷺ شديد الاهتمام بالحفاظ على حقوق الإنسان لغير المسلمين. ولهذا كتب على سبيل المثال في رسالة من رسائله إلى أهل نجران: "ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله ﷺ على مالهم وأنفسهم وأرضهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته وليس عليه دنية" (١)

وعلى هذا الأساس ضمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب للسكان المسيحيين في القدس [أهل ايلياء] أمنهم : " أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها: إنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صليبه ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم " (٢)

فلغير المسلمين في كل البلاد تحت الحكم الإسلامي نفس وضع المسلمين، أي عليهم نفس الواجبات ولهم نفس الحقوق (٣).

وليس هناك من شك في أن هذه المبادئ الإسلامية المتمثلة في الحرية الدينية والتسامح الإيجابي تتعرض من جانب بعض المسلمين على نحو فردى لسوء الفهم والتفسير. ولكننا في هذا المقام لا ندخل في تفصيلات هذه المسألة التي تخرج بنا عن إطار هذا البحث وهو عرض رأي الإسلام الصحيح لا التفسير المغلوط وتطبيقه على يد بعض المسلمين أو المجموعات المتعصبة.

---

(١) انظر للمرجع السابق ص ١٥٩ وما بعدها ، وفيه الإحالة إلى كتاب الخراج، لأبي يوسف يعقوب بن ابراهيم، طبعة القاهرة ١٩٩٩، تحقيق طه عبد الرءوف سعد وسعد حسن محمد، ص ٨٥.

(٢) انظر : عبقرية عمر لعباس العقاد ، ص ١١٩ . طبعة التربية والتعليم ١٩٦٨م .

(٣) انظر : Batzli, *Menschenbilder..Menschenrechte,* P. 166

٣ ـ الوضع الراهن للحرية الدينية فى الإسلام :

أما فيما يتعلق بالوضع الحالي للحرية الدينية في البلاد التي تحت الحكم الإسلامي فإننا نتبين مبدئيا أن المسيحيين مندمجون كل الاندماج في الجماعة الإسلامية: فهم يمارسون دينهم بحرية ويدخلون بإرادتهم في القوات المسلحة ويشاركون في الدفاع عن الوطن، ويدفعون للدولة الضرائب مع المسلمين سواء بسواء [١] .

٤ ـ قضية الردة :

من خلال العناوين الطنانة التي تنشرها بعض الصحف فى الغرب عن الإسلام والمسلمين ، يكون همها الأول هو الأخبار المثيرة ، ويحلو لها، إما عمدا أو عن جهل، إغفال توضيح التعاليم الدينية، ويتجلى ذلك بصفة خاصة فى قضية " الردة " حيث يقرأ المرء أخبارا مثيرة ملفقة، يظل أصحابها ينفخون فيها، ويبثون فيها الحياة طويلا ، وهى أخبار من شأنها أن تثير رعبا لا مبرر له لدى الرأي العام العالمي ، في الوقت الذي تتمثل فيه الأخطار الحقيقية التي تهدد عالمنا اليوم ـ وقد انكمش وأصبح قرية كونية ـ في التعصب حيال الثقافات الأخرى. فإذا كان هناك متعصبون فرادى أو جماعات يفسرون تعاليم الإسلام تفسيرا مغلوطا بالفعل ويقلبونها رأسا على عقب، فلا ينبغي لنا أن ننسى أن التعصب يظهر بين الفينة والفينة في كل مكان من عالمنا بين أتباع الأديان المختلفة وليس فقط بين أبناء المسلمين . ولكن الشيء المؤسف والذى ليس له ما

---

(١) انظر : Batzli, Menschenbilder..Menschenrechte, S. 169

يبرره أن يتم التركيز على الإسلام في الإعلام الدولي بإذاعة أخبار مغلوطة عنه والترويج لها في أرجاء العالم لخلق حالة من الرعب وإثارة الخوف من الإسلام .

ورأى الإسلام بشأن الردة يقوم على أساسين هامين :

أولهما : أن كل عقيدة ترتكز على اقتناع شخصي ويقين ذاتي، فهي ليست ناتجة عن مجرد تقليد أو إكراه بأى شكل من الأشكال . ومعنى هذا أن كل إنسان حر في عقيدته، ولكل إنسان الحق في أن تكون له آراؤه الخاصة حتى لو كان ما يعتقده في نفسه أفكارا إلحادية . ولهذا فإنه لا يجوز العدوان على إنسان أو إيذائه بسبب آرائه . ولسنا مأمورين بأن نفتش في صدور الناس عن معتقداتهم الدينية .

ثانيهما: أن هذه الحماية العامة لحرية الرأي والعقيدة تقوم طالما احتفظ الفرد برأيه لنفسه. أما إذا أراد أن ينشر على الملأ بأى وسيلة من وسائل النشر آراءه الخاطئة التي تناقض معتقدات وأخلاقيات مواطنيه، فإنه في هذه اللحظة يخرج على النظام العام للدولة التي يعيش فيها، لأن آراءه الخاطئة يمكن أن تنشر الشك بين مواطنيه مما قد يؤدي إلى إحداث بلبلة وإثارة فتنة . وكل من يسلك هذا المسلك في أى مكان في العالم يعاقب، بل قد توجه إليه تهمة الخيانة العظمى، لا لأنه ارتد عن عقيدته، وإنما لأنه يثير فتنة في المجتمع نتيجة نشر أفكاره ولأنه يخرج بذلك على النظام العام في الدولة . والفتنة ــ كما جاء في القرآن الكريم ــ أشد من القتل (البقرة : ١٩١،٢١٧) . [1] .

---

(١) انظر كتابنا : حقائق إسلامية في مواجهة حملات التشكيك . ط٣ سلسلة قضايا إسلامية ــ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . وراجع : الحرية الدينية في الإسلام للشيخ عبد المتعال الصعيدي ــ دار المعارف .

٥ ـ تسامح صلاح الدين الأيوبى :

وختاما أود أن أسوق مثلا رائعا من التاريخ الإسلامي يدل دلالة واضحة على المفهوم الإسلامي للحرية الدينية والتسامح ، وهو مثل ـ كما سنرى ـ يبين على نحو نموذجي السمة الفريدة للعقيدة الإسلامية وقدرة المسلمين الحقيقيين على ترجمة المبادئ الإسلامية إلى واقع ملموس .

إن التاريخ يذكر لنا أن السلطان صلاح الدين الأيوبى قد عامل الصليبيين بعد أن انتصر عليهم معاملة تعبر تعبيرا واضحا عن المفهوم الإسلامي للعدل والتسامح ، وكان سلوكه فى هذا الصدد مستلهما من مبدأ الرحمة – التي تعد ـ فى نظر الإسلام ـ الوجه الآخر للعدل، ولم يكن متبعا لمبدأ الشرعية وحده . ويعبر عن ذلك أحد المؤرخين المعروفين بقوله : " لعل أهم ما يسترعي الانتباه في ذلك الدور من أدوار الحروب الصلاحية [١] (التي انتصر فيها على الصليبيين) هو اعتدال صلاح الدين وبعده عن التطرف، وتمسكه بمبادئ الأخلاق والرحمة والتسامح، وهو الأمر الذي شهد له به كافة المؤرخين، الغربيين والشرقيين على السواء .. ولم يلبث أن وجد الصليبيون داخل عكا قلبا رحيما كبيرا فوهب لهم عصمة الأنفس والأموال ... وهنا نلاحظ أنه إذا كان صلاح الدين قد استولى على معظم المدن والقلاع والمراكز الساحلية في جنوب بلاد الشام، إلا أنه ترك من فيها من الصليبيين أحرارا كما ترك لهم حرية البقاء والخروج ... وعند

---

(١) نسبة إلى صلاح الدين الأيوبى .

استيلاء صلاح الدين على عسقلان في أوائل سبتمبر ١١٨٧ اقتيد أهلها من الصليبيين إلى الدلتا، حيث قضوا فصل الشتاء في الإسكندرية متمتعين بحماية صلاح الدين ورعايته، حتى رحلوا إلى غرب أوروبا في مارس من العام التالي .. وفي الوقت نفسه وافق صلاح الدين على إرسال رسالة للأميرة سيبل زوجة جاى في بيت المقدس لدعوتها للحضور إلى نابلس لتقيم إلى جانب زوجها الأسير جاى لوزنجان .. وتصرف صلاح الدين مع من بداخل المدينة (بيت المقدس) تصرفاً كريماً، فسمح بخروج الملكة ماريا كومنين أرملة عموري الأول وزوجة باليان وسمح بحراستها من بيت المقدس حتى طرابلس، كما سمح لغيرها من النساء والأطفال بالخروج من المدينة آمنين .. وفي يوم الجمعة ١٢ أكتوبر ١١٨٧ دخل صلاح الدين بيت المقدس المقدس .. وكان الملك العادل في صحبة أخيه صلاح الدين عند دخول بيت المقدس فأظهر تسامحاً كبيراً تجاه فقراء الصليبيين الذين عجزوا عن دفع الفدية ... وقد نادى بعض المسلمين بمعاملة الصليبيين بمثل ما عاملوا به المسلمين عندما استولوا على بيت المقدس سنة ١٠٩٩ ... ولكن صلاح الدين نهرهم عن ذلك وأمر باحترام الأماكن المقدسة المسيحية في بيت المقدس والتزام روح التسامح تجاه المسيحيين ... أما اليتامى والشيوخ من الصليبيين، فإن صلاح الدين لم يكتف بإطلاق سراحهم دون فداء، بل منحهم أيضاً مساعدات مالية من ماله الخاص. وهكذا بدا الفرق عظيماً بين سلوك صلاح الدين عندما استولى على بيت المقدس سنة ١١٨٧، وبين ما فعله الصليبيون بالمدينة وأهلها عندما سقطت في أيديهم سنة ١٠٩٩." (١)

---

(١) انظر : سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية، الجزء الثاني ، ص ٧٨٠-٧٩٣. مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٦م .

ويمكن القول بأن صلاح الدين ، من منظور الإسلام ، قد استرد " القدس الخالدة " التي لا تمثل " القدس الدنيوية " إلا مجرد قبس منها. وهذه الصفحة من تاريخ الإسلام لا ينبغي أن ننساها ، إذا صحت إرادتنا على ألا ننسى الإسلام .

الفصل الثامن

مفهوم العدل فى التصور الإسلامى

١ ـ تمهيد
٢ ـ الأمل والعدل
٣ ـ العدل والرحمة
٤ ـ للعدل جانبان
٥ ـ العدل لا يتجزأ
٦ ـ العدل ومسئولية الإنسان
٧ ـ العدل والحرية
٨ ـ العدل فى تاريخ العالم
٩ ـ العدل والحق
١٠ ـ العدل بداية جديدة
١١ ـ مفهوم العدل لدى المتكلمين



مفهوم العدل فى التصور الإسلامى : [1]

١ ـ تمهيد :

مفهوم العدل فى التصور الإسلامى يمكن أن يبحث من جوانب مختلفة ، أو منطلقات متعددة . فهناك مثلاً منطلق علم الكلام الإسلامى وما قاله علماء الكلام فى قضية العدل ، وبصفة خاصة لدى المعتزلة الذين اشتهروا بأنهم أصحاب التوحيد والعدل ، ويمكن أن يبحث أيضاً من منطلق الفكر الفلسفى الإسلامى الذى جعل العدل أحد أمهات الفضائل ، بل جعله على رأس الفضائل ، ويمكن أن يبحث كذلك من منطلق التاريخ الإسلامى لبيان مدى تطبيق قيمة العدل فى تاريخ المسلمين . ولكن قبل كل ذلك وبعده يأتى بحث مفهوم العدل فى التصور الإسلامى من منطلق المصادر الأساسية للدين الإسلامى ، ونعنى بذلك القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة .

وقد آثرنا أن يكون هذا هو منطلقنا بالدرجة الأولى للبحث فى موضوع العدل لاعتبارات أهمها أن الفكر الإسلامى فى جوانبه المتعددة قد اغترف من هذين المنبعين بصورة أو بأخرى ، ومن هنا فإنه لا يمكن فهم الجوانب

---

(١) قدم هذا البحث فى الأصل باللغة الألمانية إلى الندوة العلمية التى عقدت بجامعة مونستر بألمانيا عام ١٩٩٢م ، وكان موضوعها : العدل والسلام فى التصور الإسلامى المسيحى . وقد أعدنا النظر فيه وقدمناه إلى المؤتمر المسيحى الإسلامى الأول الذى نظمه مركز الأبحاث فى الحوار المسيحى الإسلامى (حريصا ـ لبنان) . حول موضوع (العدل فى المسيحية والإسلام) ١٧ـ١٩ نوفمبر ١٩٩٥م .

الأخرى إلا بفهم الأساس الذى بنيت عليه . فقد احتفظت هذه الجوانب المتعددة للفكر الإسلامى بوصف " الإسلامى " تعبيراً عن أنها لم تخرج عن الإطار العام للإسلام . ولكن منطلقنا هذا لن يحول بيننا وبين رؤية بعض زوايا الجوانب الأخرى .

وفى البداية نشير بصفة عامة إلى أنه من المعروف أن العدل يعد لدى كل الشعوب والحضارات قيمة من القيم الكبرى التى ينبغى على الإنسان أن يسعى إلى تحقيقها فى هذا العالم من أجل خير الإنسان وسعادته . والإنسان فى أصل فطرته الصافية يميل إلى العدل وينفر من الظلم . ولا نعدو قول الحق إذا قلنا إن العدل يُعد ضرورة حياتية لا يستطيع الإنسان أن يحيا حياة حقيقية بدونه .

والإسلام عندما يدعو إلى العدل فإنه بذلك يدعو فى الوقت نفسه إلى حرية الإنسان وكرامته وتأكيد حقوقه الإنسانية العامة . فالكفاح من أجل رفع الظلم عن المظلومين وإقرار العدل ، وبالتالى إقرار الكرامة الإنسانية ، يُعد واجباً إنسانياً وواجباً دينياً فى الوقت نفسه كما يؤخذ ذلك من الآية القرآنية :

﴿ وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ﴾ (النساء : ٧٥) . ولذلك جاء الأمر بالعدل ومقاومة الظلم فى القرآن الكريم صريحاً لا يحتمل التأويل :

﴿ إن الله يأمر بالعدل ﴾ (النحل : ٩٠) . كما جاء أيضاً فى الحديث القدسى المشهور : **[إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا]** (١) .

(١) صحيح مسلم ، ج٤ ص ١٩٩٤ ــ القاهرة ١٩٥٥م .

٢ ــ الأمل والعدل :

وهذا الأمر الديني يعزز الجانب الإنساني الذي يرتكز على الطبيعة الإنسانية النقية التي تميل إلى العدل وتنفر من الظلم . وتضافر الجانب الديني مع الجانب العقلي يقوي عزم الإنسان وتصميمه على سلوك سبيل العدل ومقاومة الظلم في شتى صوره وأشكاله ، وتمسكه بالأمل في تحقيق العدل وعدم الركون إلى اليأس . فالأمل يعد المحرك الحاسم للتطور البشري ، ويرتبط ذلك ارتباطاً وثيقاً بتطلع الإنسان إلى حياة حرة كريمة تليق بالإنسان من حيث هو إنسان .

إن الإنسان إذن مسئول مسئولية دينية وأخلاقية عن إقامة العدل الذي هو أساس العمران في هذه الدنيا . وهذا يعني ضرورة التغلب على نوازع الأنانية وتغليب جانب العقل . وهذا بدوره يعني بقاء الأمل في تحقيق العدل حياً في النفوس . وهذا الأمل يشكل دافعاً قوياً على التصميم على السعي نحو تحقيق العدل ، الأمر الذي يمكن أن يؤدي في نهاية الأمر إلى أن يصبح العدل في حياتنا حقيقة واقعة ، وأن يوجه سلوكنا ويحدد تصرفاتنا . ومن هنا يُعد الكفاح من أجل إقامة العدل كفاحاً ضد كل شكل من أشكال الأنانية ، وفي الوقت نفسه يُعد كفاحاً من أجل سيادة العقل ، وبالتالي يُعد عملية أخلاقية وليس كفاحاً من أجل القوة .

إن الحياة بدون العدل وبدون الأمل في تحقيقه تعد جحيماً لا يطاق . ومن هنا يمكن أن يطلق على المكان الذي لم يعد فيه وجود للأمل اسم الجحيم الدنيوي ، أي ذلك الكهف المظلم الذي لم يعد يشرق فيه نور العقل الإنساني . وفي المقابل يمكن أن يطلق اسم الفردوس الدنيوي على المكان الذي يتحقق فيه الأمل ويسود فيه العدل والإنصاف .

٣ ــ العدل والرحمة :

وطبقاً لتعاليم القرآن الكريم يتجلى العدل فى الرحمة الإلهية التى تعم العالم كله بما فيه ومن فيه كما جاء فى القرآن :

﴿ ورحمتى وسعت كل شىء ﴾ (الأعراف : ١٥٦) ، تلك الرحمة التى لا تفرق بين الناس الذين هم جميعاً خلق الله يحكم بينهم بالعدل ويشملهم برحمته . وكل إنسان مطالب بالسعى إلى إقامة العدل والأمل فى تحققه من منطلق الرحمة الإلهية :

﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعًا إنه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له ... ﴾ (الزمر : ٥٣ــ٥٤) .

والإيمان بالعدل والتصميم عليه والأمل فى تحققه يحرر الإنسان من كل القيود التى تقف عقبة فى سبيل توجهه نحو السلوك العادل . وفى هذا التحرر تكمن الكرامة الفريدة للإنسان الذى جعله الله خليفة فى الأرض والذى ينبغى عليه أن يحرم الظلم على نفسه كما حرمه الله على نفسه ، وإذا لم يفعل ذلك فإنه يكون قد خان مسئولية خلافته فى الأرض ، تلك الخلافة التى أكد القرآن عليها فى مناسبة خلق الإنسان بقوله :

﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ (البقرة : ٣٠) .

٤ ـ للعدل جانبان :

وعند التأمل فى مفهوم العدل يتضح لنا أن للعدل جانبين لا يجوز أن ينفصل أحدهما عن الآخر . فالإنسان من حيث طبيعته ، أى من حيث هو كائن عاقل فى حاجة إلى العدل يطلبه ويسعى إليه . ولكن هناك وجهاً آخر للعدل يسير جنباً إلى جنب مع حاجة الإنسان له وطلبه إياه ، ونعنى بذلك أن العدل نفسه يحتاج إلى الإنسان بوصفه كائناً عاقلاً حراً من أجل تحقيقه والعمل على إقراره . فالإنسان بدون العدل لا يستطيع أن يحيا حياة حقيقية على هذه الأرض . والعدل كقيمة مثالية ليست شيئاً دون أن يكون هناك إنسان يعمل على تحقيقها فى عالم الواقع . فالعدل ضرورى للإنسان مثلما أن الإنسان ضرورى لتحقيق العدل . ولكن هذه الحقيقة البسيطة غالباً ما تغيب عن الإنسان ، أو بمعنى آخر غالباً ما يتجاهلها الإنسان . وحينئذ يستخدم العدل كستار أو كشعار لبلوغ أهداف ذاتية للشخص نفسه أو للفئة التى ينتسب إليها .

وبذلك الفكر الأنانى المتحزب يبتعد المرء عن طريق العدل ويخطئ الطريق إليه ، ويجد نفسه سائراً فى طريق الظلم . فكل فكر متحزب يؤدى لا محالة إلى الظلم .

ومن هنا يطلب القرآن منا أن ننظر إلى العدل على أنه أمر يعلو على التحزب . فالله هو إله كل الناس ، وليس إلهاً لجماعة معينة أو شعب معين . فالعدل مطلوب لكل الناس من حيث المبدأ دون استثناء . وإنه لمن التحيز البغيض أن يطلب المرء العدل لنفسه فقط فى أية صورة من الصور متجاهلاً أن العدل قيمة ينبغى أن تكون ، ولكن مجرد العلم بقيمة العدل لا يجدى فتيلاً إذا ما نسيه المرء ، وإذا لم يؤد بنا إلى إدانة الظلم الذى يتعرض له

الآخرون ، وإذا لم يؤد بنا أيضاً إلى كفاح هذا الظلم وطلب العدل لكل من تنتهك حقوقه ظلماً وعدواناً . فمجرد العلم بقيمة العدل بالمعنى السقراطى ليست له قيمة ، ولا أهمية له فى الحياة العملية .

والإسلام يذكرنا بمطلقية العدل ويحثنا على الوقوف بجانبه فى كل مكان ، وليس فقط من أجل تحقيق أهداف خاصة . فالعدوان فى المفهوم القرآنى ليس فقط هو العدوان على حقوق الآخرين ، بل يشمل أيضاً العدوان الذى يرتكبه المرء فى حق نفسه . والأنانية فى طلب العدل ليست فقط عدواناً على الآخرين ، بل هى أيضاً عدوان على الذات . فالآخرون فى حاجة إلى العدل كما أن المرء نفسه فى حاجة إلى العدل . ومن لا يعدل مع الآخرين لا يجوز له أن ينتظر منهم أن يعدلوا معه .

٥ ــ العدل لا يتجزأ :

وإذا كان الأمر كذلك ــ وهو كذلك بالفعل ــ فإن العـــدل لا يتجــزأ ؛ فالمرء لا يمكنه أن يطلب العدل لنفسه وفى الوقت نفسه يريد إبعاده من نفسه ثانية بارتكابه الظلم فى حق الآخرين ، فالناس جميعاً قد خلقــوا مــن نفــس واحدة ــ كما يقول القرآن الكريم (النساء : ١) ــ وعلى هذا الأســاس ينبنــى التضامن بين الناس والذى يقتضى العدل للجميع . ومن أجل ذلك فإن الــذى يمس الآخرين من الناس يمسنى أيضاً على نحو معين . فنحــن مشــتركون جميعاً فى الإنسانية ذاتها ، ونحن جميعاً ننحدر من نفس واحدة . ومن هنـــا يشير القرآن الكريم إلى أن من قتل نفساً بغير حق فكأنه قد اقترف جريمـــة القتل فى حق الإنسانية كلها ، وفى المقابل فإن من يقدم الخير لفـــرد مــن أفراد الإنسانية فكأنه قدم الخير للإنسانية كلها كما يقول القرآن الكريم ﴿ **مــن قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل النـــاس جميعــاً ومــن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً** ﴾ (المائدة : ٣٢) .

فكل منا ــ على نحو ما ــ مسئول عن مصير الإنسانية . وما يراد منـا هو أن نقرر بإرادتنا الحرة سلوك سبيل العدل فى حياتنا وتصرفاتنا .

وإن اختلاف الجماعات الإنسانية سواء كان هذا الاختلاف يتعلق بالجنس أو اللون أو الدين أو ما شاكل ذلك يهدف فى نهاية الأمر ــ كما يشير القرآن الكريم ــ إلى أن يتعرف الناس على بعضهم ، وأن يكتشفوا عن طريق هــذه الاختلافات معنى الإنسانية فى الآخرين من الناس والذين هم متساوون معــهم كما يقول القرآن : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكــر وأنثــى وجعلنـــاكم شعوباً وقبائل لتعارفوا** ﴾ (الحجرات : ١٣) .

ونحن فى عالمنا المعاصر ندرك بشكل ملحوظ ليس له نظير فى السابق مدى أهمية وحدة العدل ، كما ندرك أيضاً مدى صعوبة تحقيق ذلـــك . فقـــد أصبح عالمنا بمثابة قرية كونية يعتمد كل من فيها على الآخر بشـــكل مـــن الأشكال . أما لماذا لا يتحقق العدل فى حياتنا إلا نادراً فهذا ما يطرحه القرآن متسائلاً :

﴿ وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنســـاء والولدان ﴾ (النساء : ٧٥) .

٦ ـ العدل ومسئولية الإنسان :

والقرآن الكريم يبين لنا المكانة الرفيعة التى يحتلها صاحب السلوك العادل فى مقابل هذا الذى لا يرجى منه خير فيقول :

﴿ وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هلى يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ﴾ (النحل : ٧٦) .

إن الله يحب المقسطين الملتزمين بالعدل فى كل أحوالهم . (المائدة :٤٢) كما أن رسالة الأنبياء جميعاً ترمى إلى التزام الناس بالعدل وتربيتهم على ذلك كما يقول القرآن أيضاً :

﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ (الحديد : ٢٥) ، والذين يؤمنون بالله إيماناً حقاً يجعل الله لهم نوراً يمشون به ويغفر لهم ذنوبهم (الحديد : ٢٨) ، ويغمرهم بفضله ، ولكنه سبحانه لا يظلم أحداً (الكهف :٤٩) ، فهذا الظلم من الأمور التى يجلبها الإنسان ذاته على نفسه : فالإنسان حر مختار يبين له الدين طريق الخير والشر ، والعدل والظلم ، وعليه أن يختار لنفسه ويقرر بمحض إرادته أى طريق يختار وعليه أيضاً أن يتحمل نتائج اختياره إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

وقد وردت الإشارة إلى ذلك فى العديد من الآيات القرآنية . من ذلك على سبيل المثال لا الحصر : **﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾** (الزلزلة : ٧ـ٨) .

وقوله : **﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ﴾** (فصلت : ٤٦) .

٧ ـ العدل والحرية :

وهذا يوضح لنا أن العدل مرتبط ارتباطاً وثيقاً بحرية الإنسان . ومن أجل ذلك فإن فهم التصور الإسلامى للعدل يتوقف على فهم الدور الحاسم للحرية فى الإسلام .

ويجد المرء إشارة لذلك ـ على سبيل المثال ـ فى التأصيل الفقهى للحكم فى قضية يدور الأمر فيها حول الحرية . فلو حدث نزاع بين مسلم وغير مسلم حول طفل ـ وقال المسلم : هذا الطفل عبدى . وقال غير المسلم : إن هذا الطفل ابنى فعلى القاضى أن يحكم فى هذه الحالة بإثبات بنوة الطفل للأب غير المسلم نظراً لأن الطفل بموجب هذا الحكم سيكون حراً وليس عبداً [١] .

ويمكن القول بأن هذا التأكيد على حرية الإنسان كان يتردد فى التاريخ الإسلامى دوماً عندما تنطلق الشكوى من العدوان على الحرية ، والذى كان يحدث بين الحين والآخر . وفى هذا الصدد نورد هنا مثالاً على ما نقول تلك العبارة المشهورة التى أطلقها الخليفة الثانى عمر بن الخطاب فى مواجهة العدوان على حرية بعض الأفراد من جانب بعض أصحاب النفوذ حين قال : " **متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟** " . وقد قال ذلك بمناسبة حادثة مشهورة تتصل بوالى مصر عمرو بن العاص فى ذلك الوقت . فقد شكا أحد المصريين والى مصر وابنه لدى الخليفة من الظلم الذى تعرض له حيث اعتدى ابن الوالى بالضرب على هذا المصرى دون مبرر ، وبدلاً من أن ينصف الوالى هذا الرجل أودعه السجن حتى يمنعه من إيصال شكواه إلى الخليفة . وقد استطاع المصرى أن يهرب من السجن ويذهب إلى

---

(١) حاشية ابن عابدين ، ج٤ ص ٤٦٥ ، القاهرة ١٣٢٥هـ .

الخليفة ويعرض عليه شكواه . فاستدعى الخليفة الوالى وابنه ، وبعد أن تحقق من صحة ما قاله المصرى أعطاه عصاه وطلب منه أن يضرب بها ابن الوالى قصاصاً منه لضربه إياه ففعل المصرى ذلك وضرب ابن الوالى . وطلب الخليفة من المصرى بعد ذلك أن يضرب الوالى أيضاً ويقتص منه نظراً لأن ابن الوالى ما كان يستطيع أن يضربه إلا بنفوذ والده . ولكن المصرى اكتفى بضرب من ضربه . وعقب ذلك قال الخليفة هذه العبارة التى أشرنا إليها : " **متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً** " مما يؤكد ارتباط العدل بالحرية [1] .

ويرى أحد العلماء المسلمين من رواد التنوير فى مصر فى العصر الحديث وهو رفاعة الطهطاوى (١٨٠١ـ١٨٧٢) أن العدل والحرية متماثلان فقد قال الطهطاوى : " وما يسمونه الحرية (فى فرنسا) ويرغبون فيه هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والإنصاف . وذلك لأن معنى الحكم بالحرية هو إقامة التساوى فى الأحكام والقوانين بحيث لا يجور الحاكم على إنسان " [2] .

ويرى الطهطاوى أن العدل مفهوم جامع لكل الفضائل وأن جميع ما عداه من الفضائل متفرع عنه . وأن الإسلام يطلب الحرية والحقوق الإنسانية العامة لكل الناس بلا تمييز وأن الإسلام لا يعد مسئولاً عما ارتكبه بعض الحكام المسلمين من مظالم خالفوا بها أحكامه وتعاليمه [3] .

---

(١) راجع : على الطنطاوى وآخرون : أخبار عمر ص ١٨٢ وما بعدها ، دمشق ١٩٥٩م .

(٢) راجع عزت قرنى : العدالة والحرية فى فجر النهضة العربية الحديثة ص ٧ سلسلة عالم المعرفة الكويت ١٩٨٠م .

(٣) المرجع السابق ٩٢/٩٣ .

٨ ــ العدل فى تاريخ العالم :

والقرآن يعطى للناس الفرصة لتصحيح أخطائهم من منطلق الحرية التى يتمتع بها كل فرد . فاغتنام تلك الفرصة للتصحيح ورفع الظلم يرجع إلى قرار شخصى ، وليس هناك أى وجه لإجبار أحد على اغتنامها ، ولكن لا يجوز أن يفهم أحد أنه عندما يتمادى فى ظلمه فإنه سيفلت من عقاب الله فالله يمهل ولا يهمل وساعة الحساب آتية لا ريب فيها ، والتاريخ شاهد على ذلك . والقرآن يشير إلى هذا المعنى فى قوله : ﴿ **ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى** ﴾ (النحل:٦١) .

وعلى الجانب الآخر يشير القرآن الكريم إلى أن الذين يبذلون جهدهم فى سبيل استقامة السلوك والعدل والإنصاف معرضون لامتحانات مختلفة وعليهم أن يواجهوها بالصبر الجميل والعزم والتصميم على مواصلة طريقهم مهما كثرت العقبات . ويشير القرآن إلى ذلك فى مواضع عدة منها :

﴿ **ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون** ﴾ (الأنبياء : ٣٥). وقوله : ﴿ **لتبلون فى أموالكم وأنفسكم .. إلى قوله : وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور** ﴾ (آل عمران : ١٨٦) .

فالسلوك العادل لا يجوز للمرء أن يتوقع عليه مكافأة فورية ، بل الأحرى أن يرى أن السلوك العادل نفسه يُعد فى حد ذاته مكافأة . وعلى الرغم من أن المرء ليس مسئولاً عن المظالم التى يرتكبها الآخرون فإنه مطالب ــ إسلامياً ــ بألا يقف من هذه المظالم موقفاً سلبياً ، بل يجب عليه أن يحاول منعها أو رفعها كما ورد فى حديث شريف :

[**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**] (١) .

---

(١) رواه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده فى مواضع متعددة .

٩ ـ الحق والعدل :

ولا يجوز في نظر الإسلام أن يحمل الظلم البادى في العالم الإنسان على اليأس من تحقيق العدل ، فهذا اليأس قد يؤدى به إلى سلوك مغاير للعدل . وينبغى على الإنسان بدلاً من ذلك أن يدرك أن كمية الشر مهما كثرت فإنها لن تستطيع أن تمحو الخير من الوجود مهما قلت كميته ، وسيظل دائماً هناك من يسير في طريق العدل والرشاد مهما كثرت ظلمات الشر والفساد . وينبه القرآن إلى ذلك بقوله : ﴿ **وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون** ﴾ (الأعراف : ١٨١) . وهنا ربط وثيق بين اتباع الحق والالتزام بالعدل . فالذى يعدل لأنه يتبع الحق يكون في وسعه فهم الآيات الإلهية التى يمتلئ بها الوجود وتمتلئ بها النفس الإنسانية (فصلت ٥٣) . ومن هنا يشير القرآن إلى أن الله قد بين الآيات لهؤلاء الذين تمتلئ قلوبهم باليقين (آل عمران: ١١٨) .

وكما سبق أن أشرنا فإن العدل لا يتجزأ ولا يجوز أن يكون متحيزاً أو منحازاً لطائفة معينة أو فريق معين من الناس فالحق أحق أن يتبع . وهذا ما يطالب به القرآن في صراحة ووضوح . ويتضح لنا ذلك بجلاء من خلال التوجيهات القرآنية الأربع التالية :

١ ـ ينبغى على الإنسان أن يلتزم بالعدل حتى في حالة ما إذا كان الأمر يتعلق بشخصه أو والديه أو أقاربه ومحبيه : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا** ﴾ (النساء : ١٣٥) .

٢ ـ ينبغى الالتزام بالعدل بين الناس بصرف النظر عن وضعهم الاجتماعى من حيث الغنى أو الفقر أو الجاه والنفوذ . ولا يجوز أن يكون لذلك أى تأثير

على قراراتنا : ﴿ **وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** ﴾ (النساء : ٥٨) .
ومن المأثورات الإسلامية فى هذا الصدد ما يروى من أن أسامة بن زيد قد تشفع لدى النبى صلى الله عليه وسلم فى أمر العفو عن المرأة المخزومية التى سرقت وكانت من أسرة لها مكانتها فى المجتمع . وقد رفض النبى ذلك رفضاً قاطعاً مؤكداً على ضرورة أن يطبق على الجميع معيار واحد بصرف النظر عن أى اعتبار آخر .

وقال فى ذلك : [**إن من كان قبلكم إذا سرق فيهم الضعيف قطعوه ، وإذا سرق فيهم القوى تركوه . والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها**] [1] .

٣ ــ ينبغى الالتزام بالعدل وعدم السير وراء الأهواء والميول أو الأنانية ، أو الخوف من أصحاب النفوذ ، أو مشاعر الكراهية إزاء بعض الناس أو بعض الجماعات : ﴿ **ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى** ﴾ (المائدة : ٨) .

٤ ــ يتحتم معاملة كل الناس من حيث المبدأ بالعدل والمودة إلا فى حالة ما إذا حاربونا بسبب الدين أو أخرجونا من ديارنا أو ناصروا أعداءنا ضدنا ، وتلك حالة استثنائية تزول بزوال أسبابها . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون** ﴾ (الممتحنة : ٨ــ٩) .

---

(١) رواه الإمام مسلم ١٣١٥/٣ .

فالمطلوب إذن ليس فقط مجرد عدالة قانونية ظاهرية ، بل عدالة مؤثرة تعمل بطريقة فعالة على بقاء معنى الإنسانية حياً فى النفوس ، وأن تمنح الناس الفرصة ليمارسوا حياتهم فى كرامة . فعلى أساس من الشعور بالكرامة واحترام الذات تتبنى أخلاق الإنسان . وهنا أيضاً نجد أمثلة عديدة من المأثورات الإسلامية ترينا مواقف رائعة من التسامح الفعال بوصفها نماذج تحتذى . ومن ذلك على سبيل المثال ما يأتى :

" يروى أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ مر بباب قوم وعليه سائل يسأل وهو شيخ ضرير البصر فقال له عمر : من أى أهل الكتاب أنت ؟ قال : يهودى . فقال : ما الذى ألجأك إلى ما أرى . فقال الرجل : دَفْعُ الجزية والحاجة والسن فأخذ عمر بيده وذهب إلى منزله فرضخ له بشىء من المال (أى أعطاه ما يسد حاجته) ثم أرسل إلى خازن بيت المال وطلب إليه أن يجرى عليه رزقاً مستمراً من بيت مال المسلمين وقال له : انظر إلى هذا وضربائه فوالله ما أنصفنا أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾ والفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من أهل الكتاب ووضع عنه الجزية وعن ضربائه " [1] .

وحرص الإسلام على تأكيد الكرامة الإنسانية يمتد حتى إلى ما بعد موت الإنسان . وفى هذا الصدد ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم مرت به جنازة فقام احتراماً للميت ، فقيل له : إنها جنازة يهودى . فرد قائلاً : أليست نفساً ؟ وطلب من أصحابه أن يقفوا إذا مرت بهم جنازة [2] .

ويوصى القرآن أيضاً بعدم النزول إلى مستوى هؤلاء الذين يمارسون الظلم ويتبعون طريق الشر ، وذلك بالرد على السيئة بالحسنة . فالهدف

---

(١) العلاقات الدولية فى الإسلام للإمام محمد أبو زهرة ص ٧٠ ، ٧١ ط . دار الفكر العربى .

(٢) فتح البارى ج٣ ، ص١٧٩ وما بعدها .

الأسمى للمسلم هو محاربة العداوة فى قلوب الأعداء . ومن هنـــا لا يجــوز للمسلمين ــ كما يشير القرآن ــ أن يفقدوا الأمل فى تحقيق ذلك ، لأن الأمل هو ملاذ السلام ، يقول القرآن الكريم :

﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذى عاديتم منهم مودة ﴾ (الممتحنة :٦).

فإذا قمنا بالرد على السيئة بالحسنة فإن ذلك قد يعطى للظالم الفرصـــــة لإعادة النظر فى موقفه . وهذا ما يشير إليه القرآن فى قوله :

﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينـك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾ (فصلت : ٣٤) .

ولكن هذا التسامح إزاء الأعداء على هذا النحو ليـــس أمــراً ســهلاً . والقرآن يعترف بهذا الواقع الإنسانى . ومن هنا يشير إلى أن هذا التســـامح إزاء من ظلمنا واعتدى علينا أمر لا يطيقه إلا نوعية معينة من الناس . وقـد أشار إلى ذلك القرآن الكريم عقب الآية السابقة بقوله : **﴿ وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾** (فصلت :٣٥) .

١٠ ــ العدل بداية جديدة :

والعدل بهذا المعنى أمر يعلو على مجرد الشرعية ، إنـــه عــدل ذلــك الإنسان الذى يتصرف بحق بوصفه خليفة الله فى الأرض ، إنه عدل الإنسان الذى يتقى الله ، ويعدل لأنه يحب العدل لذاته ، وهذا يعنى أنه يحــب الله لأن الله هو نفسه العدل المطلق . والإنسان عندما يتجه فى سلوكه إلى تقديم الخير لإخوانه فى الإنسانية وإلى خير العالم الذى يعيش فيه بصفة عامة عن طريق استقامة سلوكه وعدله فإن ذلك يكون بمثابة عبادة لله تعالى .

وقد حاول المسلمون على مدى تاريخهم ترجمة هذه القيم الرفيعة إلـــى سلوك واقعى . وهناك أمثلة حية لا تزال تتردد أصداؤها ، ولا تزال شـــاهداً على ضرورة التصميم على اتباع طريق العدل والتسامح والتراحم . وهنـــا نشير إلى صلاح الدين الأيوبى الذى ضرب مثلاً حياً على السلوك الإســلامى العادل فى تعامله مع الصليبيين بعد أن استعاد القدس عام ١١٨٧ . فقد عامل الصليبيين العائدين إلى بلادهم بتسامح منقطع النظير ، ولــم يمنحــهم فقــط حريتهم ، بل زود الفقراء منهم بما يكفيهم من المؤونة فى طريق عودتــهم . ولم يمس أماكنهم المقدسة بسوء على الرغم من أن بعض المسلمين طـــالبوه بمعاملة الصليبيين بمثل ما عاملوا به المسلمين عندما استولوا علــى القــدس عام ١٠٩٩ . ولكن صلاح الدين نهرهم عن المساس بالأماكن المقدسة وأمــر باحترامها والتزام روح التسامح تجاه المسيحيين [١] .

وبذلك أعطى صلاح الدين مثالاً مؤثراً لتحقيق قيمة العدل فى التصـــور الإسلامى ، بمعنى أنه لم يبتعد فقط عن الظلم ، بل التزم بالعدل الفاعل الـذى جعله يتوجه إلى مساعدة الفقراء والمحتاجين من خصومــــه ، ويعفــو عـــن

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٧٩٠ــ٧٩٥ ، القاهرة ١٩٧٦م . (وقد سبق الحديث عـــن ذلك تفصيلاً فى الفصل السابق) .

المعتدين والغزاة الذين انتصر عليهم . وعلى هذا النحو يصبح فى الإمكان بدء صفحة جديدة . وفى هذا الصدد نود الإشارة إلى أنه لم يكن من قبيل المصادفة أن الهلال أصبح رمزاً للإسلام . ففى ذلك إشارة إلى البداية التى تتجدد دائماً ، والفرصة السانحة التى تفتح أبواب العدل والرحمة والأمل .
وهذا ما دعت إليه الآية الكريمة التى سبقت الإشارة إليها :

﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾ (فصلت : ٣٤) .

١١ ـ مفهوم العدل لدى المتكلمين :

وإذا كانت هذه التصورات الإسلامية لمفهوم العدل قد وجدت طريقها فى كثير من الأحيان إلى الممارسة الفعلية على أرض الواقع ، ولم تظل فقط فى إطار التصورات النظرية فإننا وجدنا علماء الكلام المسلمين قد نحوا نحواً آخر فى بحث قضية العدل . فقد انتقل البحث لديهم فى هذه القضية بوصفها قضية إنسانية بالدرجة الأولى إلى قضية ميتافيزيقية .

ويمكن القول بأنه إذا كان سقراط قد أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض فإن علماء الكلام قد نقلوا قضية العدل من الأرض إلى السماء ، وأصبحت لديهم تندرج تحت ميتافيزيقا الأخلاق أو الأسس الميتافيزيقية للأخلاق أو الأصول العقائدية التى تقوم عليها الأخلاق . فالعدل ـ الذى يعد أهم وصف للفعل الإلهى ـ يتعلق بهذا الفعل من حيث صلته بالإنسان ، تلك الصلة التى يجب أن يسودها العدل المطلق من جانب الله فى رأى المعتزلة .

والقرآن الكريم نفسه يؤكد هذه العدالة المطلقة . فقد جاء فيه فى مواضع عديدة وصف الله بأنه ﴿ **ليس بظلام للعبيد** ﴾ (آل عمران : ١٨٢ ، الأنفال : ٥١، والحج : ١٠ ، فصلت : ٤٦ ، ق : ٢٩) ، وأنه لا يظلم أحدا ، ولا يظلم مثقال ذرة (الكهف : ٤٩ ، النساء : ٤٠) ، وغير ذلك من آيات عديدة تنفى عن الله الظلم بإطلاق ، وهذا يعنى ثبوت العدل لله بإطلاق ، وذلك فضلا عن الآيات الكثيرة التى يأمر الله فيها بالعدل .

ولو كان علماء الكلام قد اكتفوا بالوقوف عند المضمون الصريح للآيات القرآنية الكثيرة والأحاديث النبوية العديدة فى هذا الشأن لكان ذلك مغنيا لهم عن المناقشات والمجادلات الكثيرة حول تفاصيل تعد من الأمور الغيبية أو الميتافيزيقية التى لا يصل الإنسان فيها فى غالب الأحيان إلى يقين تام ، بل إلى مجرد ظنون .

ولكن الدافع إلى التفكير الميتافيزيقى غلب على علماء الكلام . ولعلهم لم يستطيعوا مقاومة هذا الدافع على نحو ما ذهب إليه أيضا الفيلسوف الألمانى " كانت " الذى يرى أن المسائل الميتافيزيقية من الأمور التى لا يستطيع العقل الإنسانى أن يتفاداها لأنها معطاة له فى طبيعة العقل ذاته [1] ولكن إذا كان " كانت " قد رأى أن العقل لا يستطيع أن يجيب عن مثل هذه المسائل فإن علماء الكلام ــ والمعتزلة منهم على وجه الخصوص ــ يظنون أن فى استطاعتهم الحصول على إجابات على هذه المسائل الدقيقة . ودون أن نخوض فى تفاصيل القضايا التى أثارها علماء الكلام فى هذا الصدد نود فقط أن نشير إلى بعض الخطوط العريضة لتصوراتهم حول قضية العدل .

ويمكن القول بصفة عامة بأن الحديث عن العدل فى علم الكلام الإسلامى ينقسم إلى موضوعين هما :

أولا : قضية خلق أفعال العباد وحرية الاختيار أو بتعبير آخر قضية الجبر والاختيار .

وثانيا : التحسين والتقبيح أو الخير والشر وعما إذا كانا عقليين أم شرعيين .

والخلاف بين علماء الكلام فى هذا الصدد يدور حول حق الله باعتباره خالقا وحق الإنسان باعتباره مسئولا . وموقف الدفاع عن حق الله يكاد يصل لدى بعض علماء الكلام إلى إلغاء حق الإنسان بمعنى أنه ليس خالقا لأفعاله وإنما خالقها الله وحده . وفى المقابل يكاد الدفاع عن حق الإنسان فى مقابل حق الله أن يصل إلى حد الجور على حق الله بمعنى أن الإنسان وحده هو خالق أفعاله وليس الله .

---

(١) نقد العقل الخالص ص ٥ الطبعة الألمانية ــ هامبورج ١٩٦٢م .

وهناك في هذا الصدد ثلاثة مذاهب أساسية **أولها** : مذهب الجبرية الذين يذهبون إلى أن العبد مجبور فى أفعاله كالريشة فى مهب الريح تميلها حيث تميل ، **وثانيهما** : مذهب المعتزلة الذين يذهبون إلى أن العبد خالق لأفعاله بقدرة خلقها الله فيه ، **وثالثها** : مذهب الأشعرية الذين يذهبون إلى أن العبد ليس مجبورا كما تقول الجبرية وليس خالقا لأفعاله كما تقول المعتزلة ولكن له فى أفعاله الاختيارية ما يسمونه بالكسب .

والفعل المكتسب هو المقدور بالقدرة الحادثة ، فإذا أراد العبد الفعل وتجرد له ــ أى لم يشغل نفسه بفعل سواه ــ خلق الله له فى هذه اللحظة قدرة على الفعل مكتسبة من العبد مخلوقة للرب . فيكون الفعل خلقا وإبداعا وإحداثا من الله وكسبا من العبد لقدرته التى خلقها الله وقت الفعل .

وقد اتهم الأشعرية بأنهم جبريون وأن القول بالكسب يعد جبرية مقنعة . ولكنهم يرفضون وصفهم بأنهم جبريون . فهم على وعى وإدراك بالفرق بين الحركة الإرادية والحركة الاضطرارية ، هذا الفرق الذى يستطيع كل إنسان أن يدركه برؤية باطنية (١) .

وينطلق حجة الإسلام الغزالى ــ وهو أحد أقطاب الأشاعرة ــ فى تصويره للعدل الإلهى من منطلق وجوب التفرقة بين ما يصدر عن الله وما يصدر عن الإنسان . فالله لا يقاس عدله بعدل العباد ، إذ العبد يتصور منه الظلم بتصرفه فى ملك غيره . أما الله سبحانه فإنه لا يتصور منه الظلم لأن تصرفه فى ملكه الذى لا ينازعه فيه أحد . فهو المتفضل بالخلق والاختراع والتكليف لا عن وجوب ، ومتفضل كذلك بالإنعام والإصلاح لا عن لزوم . وهو قادر على أن يصب على عباده أنواع العذاب ، ويبتليهم بشتى الآلام

---

(١) تهافت الفلاسفة للغزالى ص ٢٠٥ بيروت ١٩٦٢م .

والمحن . ولو صدر منه ذلك لكان هذا عدلا ولم يكن قبيحا ولا ظلما [1] .

وهذا يعنى أن الغزالى يرفض تطبيق المعايير الإنسانية على الله سبحانه . فالله حكيم فى أفعاله ، ولكن لا يجوز لنا أن نخضع أفعاله لمقاييسنا البشرية ونوجب عليه شيئا ــ كما تفعل المعتزلة ــ فإن ذلك يعد تطاولا على الذات الإلهية .

ولكن المعتزلة أرادوا فى بحثهم لقضية العدل استبعاد كل التصورات التى تتنافى مع عدله سبحانه وتعالى . ومن هنا يتمسكون بفكرة الله المعنى بالعالم . واختيار المعتزلة لصفة العدل لجعلها الأصل الثانى من أصولهم يرجع إلى أن العدل هو رأس الفضائل التى تحكم الأفعال المتعدية إلى الغير لا سيما فى علاقة رب بمربوبين أو حاكم بمحكومين .

والعدل لدى المعتزلة هو ما يقضيه العقل من الحكمة أو صدور الفعل على وجه الصواب والمصلحة . وهذا يعنى أن تكون جميع الأفعال الصادرة عن الله والمتعلقة بالإنسان المكلف بمقتضى الحكمة وعلى وجه المصلحة . ومن هنا ينفى المعتزلة صدور القبح أو الشر عن الله ، ويقولون باللطف الإلهى . فالله قد بعث الأنبياء لطفا ، لأن المؤمنين ما كانوا بغير بعثتهم يؤمنون ، غير أن بعث الرسل لا يضطر الإنسان إلى الإيمان ، لأن كل الدواعى والألطاف إنما تقف عند حرية الاختيار . فالله لم يدخر عن عباده من الألطاف التى بها يعدلون عن طريق البغى شيئا من غير إلجاء ، وإلا لارتفع التكليف ولما كان هناك مبرر لحساب .

ويتضح من ذلك أن حرية إرادة الإنسان لدى المعتزلة متفرعة عن تصورهم للعدل الإلهى إذ كيف يكلف الإنسان ويسأل ويحاسب إن كان

---

(١) فى علم الكلام لأحمد صبحى ج١ ص ٦٠٩ ــ الإسكندرية ١٩٧٨م .

مجبرا ؟ إن ذلك يتنافى مع عدله سبحانه ، كما تمسك المعتزلة بحرية إرادة الإنسان حتى لا ينسب الشر الخلقى الناتج عن علاقة الإنسان بالإنسان كالظلم مثلا إلى الله سبحانه [1] . وانسجاما مع مذهبهم يتحدث المعتزلة عما يسمى بقانون العوض . فكل ما يصيب الإنسان من آلام لا يستحقها فى هذه الحياة يجب أن يعوضه الله عنها فى الآخرة ، وحتى الحيوانات يجب أن تعوض فى وجود آخر عن الآلام التى تتعرض لها على يد الإنسان ، وإلا لا يكون الله عادلا [2] .

والخلاف بين المعتزلة والأشاعرة يرجع إلى أن المعتزلة ينطلقون من مفهوم تنزيه الله ، أما الأشاعرة فمنطلقهم تعظيم الله ، والاختلاف بين المفهومين هو الذى أدى إلى خلافهم فى كل المسائل المتعلقة بالفعل الإلهى مثل القضاء والقدر والأرزاق والآجال إلخ [3] .

وقد أشار الشيخ محمد عبده فى " رسالة التوحيد " إلى اضطراب تلك الآراء التى توجب على الله رعاية المصلحة فى أفعاله ، وما يترتب على ذلك من وقوع أعماله تحت العلل والأغراض لدرجة تجعل الناظر فى مزاعمهم يظن أنهم عدُّوه واحدا من المكلفين يسرى عليه ما يسرى عليهم من حقوق وواجبات ، كما رفض الشيخ محمد عبده أيضا التطرف فى الجانب الآخر المتمثل فى نفى التعليل عن أفعال الله . وذهب إلى القول بأن الجميع متفقون على أن أفعاله تعالى لا تخلو من حكمة . ثم فسر الحكمة بأنها كل عمل من الأعمال يترتب عليه حفظ نظام أو دفع فساد خاصا كان أو عاما بحيث لو كشف للعقل من أى وجه لعقله ، وحكم بأن العمل لم يكن عبثا ولعبا . وإذا

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٨ وما بعدها ، ص ١٥٨ .

(٢) العقيدة والشريعة فى الإسلام لجولد تسيهر ص ١٠٦ طبعة ثانية .

(٣) فى علم الكلام لأحمد صبحى ص ٥٤٥ .

كانت أفعال العقل تصان عن العبث فمن باب أولى أن تصان أفعال الخالق ــ الذى هو مصدر كل العقول ــ عن العبث [1] .

وإذا كانت المناقشات التى دارت بين علماء الكلام فى قضية العدل وأمثالها قد ظلت داخل دائرة محدودة ولم يكن لها إلا تأثير قليل على الحياة العملية للأفراد والجماعات ، فإن الفهم المستقيم الذى سار عليه جمهور المسلمين والذى يدركه عامتهم هو أن الثواب والعقاب أمران يتعلقان بالإرادة الإنسانية . ولا يستطيع عاقل أن ينكر اختيار الإنسان . فالقرآن جعل له الاختيار حتى فى أمر الاعتقاد . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾ (الكهف : ٢٩) . وقد خلق الله للإنسان الوسائل التى تمكنه من الفعل ، ومنحه العقل الذى به يفكر ويتدبر ويختار ، وبين له الخير والشر ، وترك له حرية الاختيار بين الطريقين دون إكراه .

وإذا كان الإسلام قد أمر بالإيمان بالقضاء والقدر ، وبين أن الله قد علم فى الأزل ما الذى سيختاره كل فرد من أفراد البشر بمحض إرادتهم فليس معنى ذلك الإكراه على الفعل أو الترك . فمن سنن الله فى الكون أنه سبحانه خلق الإنسان حراً فى فعله مختاراً غير مقهور ولا مجبور [2] .

ومن هنا فإن الله حين يجازى كل امرئ على ما عمل إن خيراً فخير وإن شراً فشر فإن ذلك هو العدل بعينه .

---

(١) رسالة التوحيد ص ٦٤ وما بعدها ــ دار المعارف .

(٢) انظر كتابنا : الدين والحضارة ص ٥١ وما بعدها ــ سلسلة قضايا إسلامية ــ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٩٦م .

الفصل التاسع

الإسلام وثقافة السلام

١ ـ مفهوم السلام فى التصور الإسلامى

٢ ـ نقطة الانطلاق نحو السلام

٣ ـ السلام بوصفه هدفاً

٤ ـ الطريق إلى السلام

٥ ـ كلمة ختامية



الإسلام وثقافة السلام [1]

١ ـ مفهوم السلام فى التصور الإسلامى :

لقد أرسل الله منذ بدء الخليقة رسله وأنبياءه بالوحى إلى الناس لهدايتهم إلى طريق الحق والرشاد وإبعادهم عن طريق الغواية والضلال ، ونظراً لأن هؤلاء الأنبياء كانوا حملة للرسالة الإلهية إلى الناس فإن الإسلام يعترف بهم جميعاً . ويتلخص المضمون الأساسى لكل هذه الرسالات في محبة الله لخلقه بدعوتهم إلى اتباع تعاليمه الأخلاقية والدينية من أجل خيرهم وسعادتهم في دنياهم وأخراهم . وتهدف هذه التعاليم كلها إلى جعل الناس يتجهون إلى طريق السلام ، وهو الطريق ذاته الموصل إلى مصدر السلام وهو الله .

ويمكن تلخيص التصور الإسلامى للسلام في صورة ثلاثة دوائر متداخلة . أما الدائرة الأولى فإنها تتمثل في السلام النفسى الذي يحظى به الإنسان في داخله ، وهذا السلام النفسى يكون ممكناً عن طريق الدائرة الثانية وهى السلام مع الله كما يتمثل ذلك في العقيدة الدينية ، وكلا الدائرتين تجعلان الدائرة الثالثة ممكنة وهى التى تتمثل فى السلام مع الآخرين ومع العالم الذى يحيط بنا .

---

(١) محاضرة للقيت فى مؤتمر اليونسكو حول دور الأديان فى ثقافة السلام فى برشلونة بأسبانيا عام ١٩٩٤م . وقد نشرت بالإنجليزية فى :

The Contribution by Religions to Culture of Peace . Published by the Centre Unesco de Catalunya , Barcelona , 1995 .

والعقيدة الدينية الإسلامية تهيئ للإنسان المناخ الذى يستطيع فيه أن يتواءم مع ذاته ومع العالم الذى يعيش فيه . فالإسلام فى حقيقته يعنى إسلام المرء وجهه إلى الله . وبهذا التوجه يكون المسلم قادراً على أن يسلك الطريق إلى تحمل مسئولياته وأداء واجبه الحقيقى . والعقيدة الدينية تجعله واثقا من العون الإلهى . ومن هنا يكون قادراً على تذليل الصعاب والانتصار على كل العقبات ، الأمر الذى يؤدى فى النهاية إلى صنع السلام .

والإسلام يبين لنا أن الطريق إلى السلام طريق مستقيم لا اعوجاج فيه . وكل إنسان يسعى إلى السلام لا يستطيع أن يفعل ذلك فى حقيقة الأمر إلا إذا هيأ المناخ المناسب للسلام ، بمعنى أن يجعل له مكاناً فى حياته ، وهذا يعنى أنه يتحتم عليه أن يسمح أيضاً للآخرين المشاركين له فى الإنسانية أن يكون لهم نفس الهدف وأن يساعدهم على ذلك . فإذا لم يفعل فإنه يكون قد تخلى عن طريق السلام .

وهذه الفكرة توضح لنا أن السلام ليس فقط هدفاً مشتركاً لكل الناس ، وإنما هو فى الوقت نفسه أيضاً الطريق الوحيد لبلوغ السلام . فهو هدف وطريق فى الوقت نفسه .

والسلام طبقاً للتصور الإسلامى يعد عملاً من أعمال الإنسان ، وفى الوقت نفسه يعد نعمة من نعم الله على البشر . وقد وصف الله نفسه فى القرآن بأنه " السلام " . والمصطلح العربى للسلام مشتق من الأصل ذاته الذى اشتق منه لفظ الإسلام . فهناك تطابق تام بين الإسلام والسلام . وتحية المسلمين فيما بينهم هى : السلام ، كما أن المسلمين يتجهون فى نهاية كل صلاة من الصلوات الخمس اليومية بنفس التحية يميناً وشمالاً ، الأمر الذى يرمز إلى نصف العالم يميناً ونصفه الآخر شمالاً ، ويعبر عن أمنية المسلمين بالسلام للعالم كله .

٢ ـ نقطة الانطلاق نحو السلام :

ومن هنا نرى أن الإسلام يجعل من الإنسان الفرد نقطة الانطلاق إلى السلام إذا ما كان سعيه نحو السلام ليس فقط لنفسه ، بل أيضاً للعالم من حوله معتمداً على الثقة فى أن مصدر كل السلام وهو الله سبحانه وتعالى سيمنحه القوة الروحية على الكفاح من أجل السلام . والعقل الإنسانى الذى هو منحة من الله يمثل أكبر عونٍ للإنسان فى تحمل مسئولية هذه المهمة الكبرى إذا ما أتاح الإنسان لهذا العقل الفرصة فى ممارسة دوره كاملاً فى الحياة . وقد وصف الفيلسوف والصوفى المسلم الإمام الغزالى العقل الإنسانى بأنه " أنموذج من نور الله " [١] .

وقد طلب القرآن من الإنسان أن يستخدم عقله فى التفكير فى ذاته وفى العالم من حوله وفى تاريخ الإنسانية وفى هدف الإنسانية . والقرآن الكريم يبين لنا أن الله عندما خلق الإنسان نفخ فيه من روحه (السجدة : ٩) . ومن هنا فإن الإنسان الذى يتبع هذا الروح فى داخله يكون سائراً على طريق الله . وذلك لأن هذا الروح حينئذ يدفعه إلى إقرار مبدأى العدل والرحمة اللذين هما من صفات الله . وليس الأمر أمر إقرار قولى فحسب وإنما لابد أن يظهر أثر ذلك فى الأعمال الصالحة من أجل الدفاع عن المظلومين والمضطهدين من البشر ، ومن أجل العالم من حولنا ، إذ بدون ذلك لا تستطيع البشرية أن تستمر فى الوجود .

وفى هذا الصدد يرشدنا القرآن الكريم إلى خطة الخلق ، ويشير إلى أن الناس جميعاً قد خلقوا فى الأساس من نفس واحدة (النساء : ١) ، وأن الإنسان الذى يقدم الخير لإنسان آخر فإنه بفعله ذلك كأنه قدم الخير لجزء من

---

(١) مشكاة الأنوار للغزالى : ص ٤٤ ـ القاهرة ١٩٦٤م .

نفسه . ومن هنا يبين القرآن أن من قتل إنساناً آخر دون وجه حق فكأنه قتل الناس جميعاً ، وفي المقابل من يقدم الخير لفرد واحد فكأنه يقدم الخير للبشرية كلها (المائدة : ٣٢) . والتعاليم الأخلاقية الرئيسية ـ والتي يشتمل عليها كل دين من الأديان في أي شكل من الأشكال ، والتي تتضمن حماية الحقوق الأساسية للإنسان ـ تعد شرطاً ضرورياً لإنسانية الإنسان ، وتنمية روحانيته وتدعيم جهوده الصادقة من أجل السلام .

وقد أكد النبي عليه الصلاة والسلام على ضرورة أن يحب الإنسان لأخيه ما يحبه لنفسه ، واعتبر ذلك أساساً لإسلام المسلم [١] . كما أنه قد لخص رسالته كلها في عبارة جامعة حين قال : **[إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق]** [٢] .

وإذا كان الإنسان مطالباً بتحمل مسئوليته عن كل ما يفعله في إطار دائرة مسئولياته فإن ذلك لا يعني أنه معزول عما يشعر بأنه خارج عن دائرة هذه المسئوليات . ومن هنا فإنه يجب علينا ـ عندما نرى ظلماً واقعاً على فرد أو جماعة أو شعب من الشعوب ـ أن نحاول منع هذا الظلم بطريقة عملية ، فإذا لم نستطع فبطريقة قولية ، فإذا لم نستطع فعلى الأقل نستنكره بالقلب . وهذه الصورة الأخيرة يعبر عنها النبي بأنها **[أضعف الإيمان]** [٣] .

وهكذا نرى أن النبي يعبر عن الكفاح ضد الشر وضد الظلم في كل صوره وأشكاله إما بالفعل أو بالقول أو بالاستنكار القلبي حسب طاقة كل إنسان ، ويجعل هذه الصور الثلاثة صوراً للإيمان . فالإيمان مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعمل الصالح . وهذا ما يؤكده القرآن الكريم تأكيداً واضحاً لا غموض فيه . فالإيمان والعمل الصالح يمثلان الطريق السليم المؤدي إلى السلام .

---

(١) راجع صحيح البخاري ٥٧/١ (المطبعة السلفية بالقاهرة ، ١٣٨٠هـ) .
(٢) البخاري : كتاب الأدب المفرد ، ص ٨٤ . مكتبة الأدب ـ القاهرة (دون تاريخ) .
(٣) صحيح مسلم : ٦٩/١ .

٣ ــ السلام بوصفه هدفاً :

وإذا كان ما عرضناه حتى الآن ينصب على نقطة البداية نحو السلام فإنها بداية واعدة بالسلام مثلما يُعَد الهلال ــ الذى هو رمز الإسلام ــ رمزاً واعداً بالاكتمال . وهنا نصل إلى مسألة الهدف . فما هو هدف الإنسان ؟ إن الإنسان الذى يؤمن إيماناً قلبياً مخلصاً لا يمكن أن يكون هدفه النهائى فى الحياة متمثلاً فى ماديات هذا العالم . إنه يتطلع إلى ما فوق ذلك . فإيمانه بالله العادل الرحيم يجعله متطلعاً إلى سيادة مبدأى الرحمة والعدل فى هذا العالم وصولاً إلى السلام المنشود المتمثل فى الدوائر الثلاثة التى سبقت الإشارة إليها . والهدف النهائى للمسلم هو ما جاء الوعد به فى القرآن الكريم وهو " دار السلام " حسب تعبير القرآن .

وفى هذا الصدد يدعو القرآن الكريم أتباع الأديان أن يتحدوا فى الإيمان بالله وحده ، وألا يشركوا معه أحدا ، وألا يقبلوا ربوبية أحد غير الله (آل عمران : ٦٤) . ويقرر القرآن فى وضوح مبدأ حرية العقيدة . وفى ذلك يقول : ﴿ **لا إكراه فى الدين** ﴾ (البقرة : ٢٥٦) . فالدين هو توجه الإنسان بكل كيانه وإرادته الحرة إلى الله والتسليم لإرادته ﴿ **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾ (الكهف : ٢٩) .

وهدف الدين هو بناء مجتمع يسوده العدل والسلام . وقد أصبح عالمنا المعاصر أكثر وعيا بضرورة صنع ثقافة السلام من أجل خير هذا العالم . وثقافة السلام تتبنى على إرادة السلام . وإرادة السلام ينبغى أن تكون هدف التربية لدى كل الأديان . وعلى الأديان أن توحد جهودها من أجل الهدف المشترك وهو السلام . ولا يعنى ذلك بأى حال من الأحوال توحيد الأديان أو تذويب ذاتية كل منها فى الآخر ، فهذا أمر غير وارد ، بل هو مستحيل . والأمر الواقعى هو توحيد الجهود فى سباق من أجل عمل الخير . وإذا تم

ذلك فسيكون تحقيق الهدف المتمثل فى صنع ثقافة السلام أمراً قريب المنال .
وهذا أمر لا يمكن تحقيقه إلا فى مجتمع يتيح الفرص لدوافع الخير الفطرية الكامنة لدى كل الناس وبالتالى لحرياتهم ، وبذلك يمكّنهم من المشاركة الفعالة فى صنع ثقافة السلام ويصف القرآن الكريم مثل هذا المجتمع بأنه المجتمع الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر (آل عمران : ١١٠) .

٤ ـــ الطريق إلى السلام :

والقرآن الكريم يبين لنا أن وجود جماعات كثيرة وشعوب متعددة ينبغى أن يكون دافعاً للتنافس فى سبيل الخير والقيم الأخلاقية . وفى ذلـــك يقــول القرآن : ﴿ **ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات** ﴾ (المائدة : ٤٨) .

فاختلاف الناس فى أديانهم وحضاراتهم ينبغى ألا يكون سبباً للصراعات فيما بينهم . إنه ينبغى على العكس من ذلك أن يكون إثراء للحيـــاة ودافعـــاً إيجابياً ومحركاً لتنمية إنسانية الإنسان ، تلك التنمية التى تعبر عن نفسها فـــى قيم التسامح والاحترام وحب الخير لكل الناس . وإن بذل الجهد من أجل فـهم الآخرين يؤدى إلى التدريب على الصبر مع الذات ومع الآخرين ، ويوســـع من آفاقنا الروحية ، ويقربنا من هدفنا فى صنع ثقافة السلام التى لا يمكن أن تبنى إلا على أساس من الإنسانية ، لأن السلام لا يتوصل إليـــه إلا بطريـــق سلمى . وهذا الطريق السلمى يتطلب بذل كل القوى والجهود .

والقرآن الكريم يقدم لنا مثالاً واقعياً يوضح فيه الفرق بين السلوك السلبى الذى لا يفيد السلام فى شىء والسلوك الإيجابى الذى يمكن أن يكون له دوره الفعال فى صنع السلام ، وذلك من خلال عقد مقارنة بين شخصين من حيـث سلوكهما الأساسى . فأحدهما سلبى وعاجز عن تحمل المسئولية فهو لا ينجز شيئاً . أما الآخر فهو على العكس من ذلك إيجابى جداً ، ويبـــذل قصـــارى جهده بلا كلل فى كفاحه من أجل إقرار العدل ودعوة الآخرين لذلك أيضـــاً ، ويكرس نفسه تماماً على طريق الله الذى يمنحه السكينة التـــى هـــى راحـــة الضمير واطمئنان النفس (التوبة : ٢٦ ، ٤٠) ، وهذه السكينة بدورها تجعلـــه أكثر قدرة فى كفاحه من أجل السلام عبر قنطرة العدل . ومن هنا نجـــد أن الإيمان وما يترتب عليه من سلوك أخلاقى يعدان من الشروط المبدئية للسلام المنشود .

ويقدم لنا القرآن إشارات ملموسة تبين لنا كيف يتعرف المرء على الإيمان . إن المرء يعرف الإيمان من ثماره مثلما يعرف الشجرة من ثمارها (إبراهيم : ٢٤) .

ويؤكد القرآن على ضرورة تطابق الأقوال مع الأفعال (الشعراء : ٢٢٦) . فلا يكفى أن يعلم المرء شيئاً من الناحية النظرية ، على الرغم من أن العلم فى حد ذاته أمر جدير بالحرص عليه والسعى إليه ، ولكن على المرء أن يعمل طبقاً لما يعلمه ، وإلا فإن علمه يكون عديم القيمة . وإن الروحانية ــ ونعنى بها التدين الحقيقى ــ لا يصل إليها الإنسان إلا عن طريق الأعمال الصالحة . فلا يصبح المرء متديناً حاصلاً على الروحانية لمجرد الإعلان عن شعارات أو قيم دينية أو غيرها من القيم . والقرآن الكريم إذ يؤكد على أن التقوى هى معيار التفاضل بين الناس عند الله (الحجرات : ١٣ ، ١٥) فإن النبى عليه السلام يبين لنا أن **[التقوى حسن الخلق]** (١) .

وفى المقابل يتمثل الشر فيما يقلق النفس وما يكره الإنسان أن يطلّع عليه الآخرون كما يقول النبى محمد صلى الله عليه وسلم (٢) .

وقد أوصى الإسلام المسلمين بالتسامح إزاء كل الناس بصرف النظر عن أعراقهم وأديانهم ومذاهبهم طالما أن هؤلاء لم يعتدوا على المسلمين . وهذا ما يعبر عنه القرآن بقوله :

﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين ﴾ (الممتحنة : ٨).

---

(١) راجع على سبيل المثال : سنن ابن ماجة ١٤١٨/٢ . القاهرة ١٩٥٣م .

(٢) صحيح مسلم : ١٩٨٠/٤ .

وفى هذه الآية يرتفع التسامح ليكون صنواً للعدل . فالتسامح ثمرة الرحمة التى تعد الجانب الآخر للعدل . والتسامح والعدل شرطان أساسيان لصنع ثقافة السلام .

وربما يرى البعض أنه من الصعب فهم الآخرين من أصحاب الديانات والحضارات المختلفة وفهم طرائق التفكير الأخرى . ولكن بذل الجهد فى هذا السبيل أمر مطلوب ، بل أصبح يمثل ضرورة حياتية فى عالم اليوم الذى صار مثل قرية كونية كبيرة . فليس هناك خيار آخر أمام الشعوب المختلفة من أن يفهم كل منها الآخر حتى يمكن التعامل والتعايش والتعاون بين شعوب الأرض .

وقد أكد القرآن الكريم على ذلك لدرجة أنه جعل هدف الخلق مشتملاً على ضرورة تعرف كل شعب أو جماعة على الآخرين . وفى ذلك يقول :

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾ (الحجرات : ١٣) .

وهذا التعرف على الآخرين يتعلق بصفة خاصة بطرائق الآخرين فى الفكر وفى الاعتقاد نظراً لأن سلوكهم العملى ينبنى على ذلك . والتعرف على الآخرين من مختلف الأجناس والحضارات والأديان يوسع من أفق معارفنا ، ويصل بنا إلى فهم سليم لوجودنا الإنسانى ، وهذا يؤدى إلى فهم متبادل ، واحترام متبادل ، وتعاون مشترك من أجل سلام هذا العالم .

وإرادة السلام لا تعرف الحدود ولا القيود . ومن هنا نجد القرآن يحث المسلمين على الرد الإيجابى على كل عرض للسلام من جانب أعدائهم :

﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ﴾ (الأنفال : ٦١) .

وحتى فى الوقت الذى لا يبدى فيه الأعداء رغبة فى السلام ويصبح الكفاح من أجل الدفاع عن الحقوق أمراً ضرورياً فإنه لا يجوز للمسلمين أن

يتجاوزوا القيم الأخلاقية فى كفاحهم (البقرة : ١٩٠) . فالطريق إلى السلام لا يسمح إلا بالفعل الأخلاقى . ومن هنا وجدنا النبى صلى الله عليه وسلم يحرم على المسلمين فى الحرب التمثيل بالقتلى أو سوء معاملة الأسرى أو قتل غير المحاربين من الشيوخ والنساء والأطفال [١] .

وإذا كان الإسلام قد أباح للمسلمين أن يدافعوا عن حقوقهم عندما تفرض عليهم الحرب فإن الحرب الدفاعية ضد العدو ليست هى نهاية المطاف . فالهدف الأسمى للمسلمين هو محاربة العداوة والكراهية فى قلوب الأعداء . ومن هنا لا يجوز للمسلمين أن يفقدوا الأمل فى ذلك لأن الأمل هو ملاذ السلام . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ﴾ (الممتحنة : ٧) .

ويضع القرآن أمام المسلمين درجة عالية من التعامل مع الأعداء لا يستطيع أن يصل إليها إلا أصحاب المنزلة العالية فى الصبر والثبات والشجاعة . وتتمثل هذه الدرجة فى مقابلة الإساءة بالإحسان ومقابلة الشر بالخير من أجل كسر سلسلة العداوة والبغضاء فى نفوس المسيئين .

﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾ (فصلت : ٣٥) .

والنتيجة لهذه المعاملة أن ينقلب العدو إلى صديق حميم . ولكن الإسلام لا يطلب من أى إنسان أكثر مما تتحمله طاقته ، فالله لا يكلف أحداً فوق طاقته . ولكن أقل أعمال الخير لا ينبغى أن يحتقرها الإنسان مهما ضؤلت [٢] ، فكل رحلة مهما بعدت مسافاتها تبدأ بخطوة كما هو معروف .

---

(١) راجع : سنن أبى داود ٣٦/٢ كتاب الجهاد ، باب فى دعاء المشركين (طبع مصطفى الحلبى) .

(٢) يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : [لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق] راجع : صحيح مسلم . ج٤ ص ٢٠٢٦ .

٥ ــ كلمة ختامية :

ومما تقدم يتضح ــ بما لا يدع مجالاً للشك ــ أن الإسلام دين السلام ، ولا يجوز بأى حال من الأحوال الخلط بينه وبين الظواهر السلبية التى ظهرت فى العالم فى كل مكان فى عصرنا الراهن مثل ظواهر الإرهاب والتعصب والتى ظهرت أيضاً فى العالم الإسلامى .

إن الإسلام دين لا يعرف التعصب ، بل يدعو إلى احترام الأديان وإقرار حقوق الإنسان الأساسية التى تتمثل فى حماية حياته ودينه وعقله وأسرته وممتلكاته (١) ، ويدعو إلى إقرار أسس العدل والرحمة بين كل الناس ، والتعايش فى سلام مع كل البشر . وهذه المطالب يؤسسها الإسلام على وحدة الإنسانية ووحدة أهدافها .

والإسلام نفسه يعد إسهاماً حقيقياً فى صنع ثقافة السلام فى العالم . والنظرة الموضوعية للإسلام من شأنها أن تبرز الوجه الحقيقى للإسلام ، وتزيل ما علق بالأذهان من مقولات خاطئة ومفاهيم مغلوطة . ولابد لنا أن نميز تمييزاً واضحاً بين التدين من جانب والتعصب والإرهاب من جانب آخر .

إن إقامة نظام عالمى عادل لا يمكن أن يحدث عن طريق القهر والإرهاب واضطهاد الشعوب الضعيفة وتشريد أبنائها وممارسة التطهير العرقى ، لأن ذلك كله لن يؤدى إلى نظام عالمى عادل ولن يؤدى بالتالى إلى السلام المنشود .

والمشكلة الرئيسية فى المجتمع العالمى الراهن تتمثل فى ازدواجية المعايير ، وغرور القوة وفى كيفية ممارسة القوة دون عنف ، نظراً لأن أى

---

(١) راجع : الموافقات للشاطبى ج٢ ص ٨ــ١٠ . دار المعرفة بيروت . دون تاريخ .

عنف سيرتد علينا جميعاً من حيث أننا جميعاً نعيش فى قرية كونية . وبعبارة أخرى نعيش فى زورق واحد ، وبالتالى فإن كل عنف سوف ينعكس علينـــا بشكل أو بآخر إن عاجلاً أو آجلاً .

وقد لفت النبي عليه الصلاة والسلام نظرنا إلى ضرورة أن يقوم النـــاس بصياغة أسلوب للتضامن فيما بينهم إذا أرادوا ألا يكونوا عرضة للـــهلاك . وقد صور الإنسانية كلها كأنها تتجمع فى سفينة واحدة . وقد استقر البعـــض فى أسفلها والبعض الآخر فى أعلاها . وكان الذين فى أســـفل الســفينة إذا احتاجوا ماء صعدوا إلى أعلى السفينة ومروا على من فوقهم . وقد تعبوا من هذا الصعود والهبوط وإزعاج الركاب فى أعلى السفينة ، وقـــرروا إحـــداث خرق فى أسفل السفينة يأخذون منه حاجتهم من الماء . ويقول النبى إنـــه إذا ترك الناس هؤلاء يفعلون ما أرادوا هلك الجميع ، وإن منعوهم ممـــا أرادوا نجا الجميع من غرق محقق [١] .

وعالمنا الذى نعيش فيه فى أشد الحاجة إلى يقظة حقيقية تقودها الأديـــان فى العالم لإنقاذ البشرية من المحن التى تحيط بها من كل جانب ، وللأخذ بيد العالم إلى شاطئ السلام .

وإذا أردنا أن نقيم السلام فى العالم فلا يجوز لنا أن نعيد الحياة من جديد إلى عداوات الماضى السحيق أو القريب وما سببته من عقد مختلفة وعواقـــب وخيمة . وبدلا من ذلك ينبغى أن نتجه إلى بناء المستقبل بفكر إيجابى مـــــن أجل العثور على فرص جديدة لإحلال السلام فى العالم .

* * *

---

(١) راجع : فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج٥ ص ١٣٢ .

الفصل العاشر

التسامح فى الإسلام

- تمهيد
- التسامح الإيجابى الشامل
- التسامح والتعددية
- التسامح والحوار
- التسامح الدينى
- خاتمة



التسامح فى الإسلام (*)

تمهيـــد :

الإسلام دين عالمى يتجه برسالته إلى البشرية كلها ، تلك الرسالة التـــى تأمر بالعدل وتنهى عن الظلم وترسى دعائم السلام فى الأرض ، وتدعو إلى التعايش الإيجابى بين البشر جميعاً في جو من الإخاء والتسامح بين كل الناس بصرف النظر عن أجناسهم وألوانهم ومعتقداتهم . فالجميع ينحــــدرون مــن **" نفس واحدة "** [1] .

وعالمنا اليوم فى أشد الحاجة إلى التسامح الفعال والتعايش الإيجابى بين الناس أكثر من أى وقت مضى نظراً لأن التقارب بين الثقافات والتفاعل بيـن الحضارات يزداد يوماً بعد يوم بفضل ثورة المعلومات والاتصالات والثـورة التكنولوجية التى أزالت الحواجز الزمانية والمكانية بين الأمم والشعوب حتى أصبح الجميع يعيشون فى قرية كونية كبيرة .

والإسلام دين يسعى من خلال مبادئه وتعاليمه إلى تربية أتباعه علـــى التسامح إزاء كل الأديان والثقافات . فقد جعل الله الناس جميعاً خلفـــاء فـــى الأرض التى نعيش فوقها ، وجعلهم شركاء فى المسئولية عنها ، ومســئولين

(*) محاضرة أعدت للأكاديمية الأوروبية للعلوم والفنون بمدينة سالتسبورج Salzburg بالنمسا بمناسبة منح الكاردينال الدكتور فرانتس كونيج Franz Koenig ـ رئيس أساقفة النمسا السابق ـ جائزة التســامح فـــى ٢٥ سبتمبر ١٩٩٩م ، وذلك بناء على طلب الأكاديمية المذكورة بصفتى عضواً فيها .

(١) كما جاء فى القرآن الكريم :﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة** ﴾ (النساء:١).

عن عمارتها مادياً ومعنوياً ــ كما يقول القرآن الكريم ــ : ﴿ **هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها** ﴾ (هود : ٦٢) . أى طلب منكم عمارتها وصنع الحضارة فيها . ومن أجل ذلك ميز الله الإنسان بالعقل وسلحه بالعلم حتى يكون قادراً على أداء مهمته وتحمل مسئولياته فى هذه الحياة .

ولهذا يوجه القرآن الكريم خطابه إلى العقل الإنسانى الذى يعد أجل نعمة أنعم الله بها على الإنسان . ومن هنا فإن على الإنسان أن يستخدم عقله الاستخدام الأمثل ، وفى الوقت نفسه يطلب القرآن من الإنسان أن يمارس حريته التى منحها الله له والتى هى شرط ضرورى لتحمل المسئولية . فالله سبحانه لا يرضى لعباده الطاعة الآلية التى تجعل الإنسان عاجزاً عن العمل الحر المسئول . فعلى الإنسان إذن أن يحرص على حريته وألا يبددها فيما يعود عليه وعلى الآخرين بالضرر .

ومن شأن الممارسة المسئولة للحرية أن تجعل المرء على وعى بضرورة إتاحة الفرصة أمام الآخرين لممارسة حريتهم أيضاً ، لأن لهم نفس الحق الذى يطلبه الإنسان لنفسه . وهذا يعنى أن العلاقة الإنسانية بين أفراد البشر هى علاقة موجودات حرة يتنازل كل منهم عن قدر من حريته فى سبيل قيام مجتمع إنسانى يحقق الخير للجميع . وهذا يعنى بعبارة أخرى أن هذا المجتمع الإنسانى المنشود لن يتحقق على النحو الصحيح إلا إذا ساد التسامح بين أفراده ، بمعنى أن يحب كل فرد فيه للآخرين ما يحب لنفسه .

التسامح الإيجابى الشامل :

ولا شك فى أن وعينا بأننا خطّاءون [1] يواكبه فى الوقت ذاته وعينا بمسئوليتنا التى ترتكز عليها كرامتنا الإنسانية ، الأمر الذى يمكّننا من السلوك القويم المتسامح حيال الآخرين الذين يشاركوننا فى الإنسانية والذين ينبغى أن يربطنا بهم رباط التضامن الإنسانى المشترك . والتسامح ــ كما ألمحنا ــ يقوم على الاعتراف بحرية وكرامة كل إنسان . ونحن مطالبون أخلاقياً ودينياً أن نكون متسامحين مع كل البشر بغض النظر عن انتماءاتهم العرقية والثقافية والدينية والإيديولوجية .

ولا يكتفى الإسلام بتعليم أتباعه هذا التسامح الشامل بوصفه شرطاً من شروط السلام الضرورى للمجتمع الإنسانى ، بل يطلب منهم أيضاً الالتزام بالسلوك العادل الذى لا يقبل بالآخر فحسب ، بل يحترم ثقافته وعقيدته وخصوصياته الحضارية . وخير وصف يمكن أن نطلقه على هذا التسامح أنه تسامح إيجابى وليس تسامحاً حيادياً . وفى هذا يقول القرآن الكريم :

﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ (الممتحنة : ٨) .

ومن الملاحظ فى هذه الآية ــ وفى آيات أخرى كثيرة ــ أن القرآن لم يستخدم أسلوب الأمر بطريق مباشر وإنما استخدم أسلوب التنبيه والتوجيه الذى يتطلب استخدام العقل الإنسانى . ومن عادة القرآن أن يعالج المشكلات بطريقة متدرجة تتفق مع ثقافة كل فرد . والإسلام لا يريد أن يقول للناس

---

(١) فى ذلك إشارة إلى الحديث النبوى : (كل بنى آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون) . رواه عن أنس كل من الإمام أحمد فى مسنده والترمذى وابن ماجة والحاكم فى المستدرك . (راجع فيض القدير للمناوى ج٥ ص ١٦ ــ دار المعرفة بيروت ١٩٧٢م) .

كلاماً ليحفظوه ويعملوا به بطريقة آلية ، وإنما يريد تربية النفس وتحقيق الذات والعمل المسئول الذى يؤدى عن اقتناع .

ويشتمل النص القرآنى الذى أوردناه على ثلاثة أمور **أولها** : أن الله سبحانه وتعالى لم ينه عن التسامح مع الآخرين ، **وثانيها** : أن التسامح مع الآخرين الذين لم يعتدوا على المسلمين والتعايش الإيجابى معهم بالبر والقسط هو العدل بعينه ، **وثالثها** : التأكيد على أن من يسلك هذا السبيل يحظى بحب الله سبحانه وتعالى .

وبهذا الأسلوب المقنع الذى يخلو من الإكراه على فعل شىء ما أو الامتناع عنه تصل الرسالة القرآنية ــ رسالة التسامح ــ إلى النفوس فى يسر وسهولة ، وتحقق الهدف المطلوب وهو نشر التسامح بين الناس على أوسع نطاق .

التسامح والتعددية :

ومن هنا لا يجوز أن ينظر إلى اختلاف الجماعات البشرية فى أعراقها وألوانها ومعتقداتها ولغاتها على أنها تمثل حائلاً يعوق التقارب والتسامح والتعايش الإيجابى بين الشعوب . فقد خلق الله الناس مختلفين :﴿ **ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك** ﴾ (هود : ١١٨ــ١١٩) . ، كما يقول القرآن الكريم . ولكن هذا الاختلاف بين الناس فى أجناسهم ولغاتهم وعقائدهم لا ينبغى أن يكون منطلقاً أو مبرراً للنزاع والشقاق بين الأمم والشعوب ، بل الأحرى أن يكون هذا الاختلاف والتنوع دافعاً إلى التعارف والتعاون والتآلف بين الناس من أجل تحقيق ما يصبون إليه من تبادل للمنافع وتعاون على تحصيل المعايش وإثراء للحياة والنهوض بها . ومن هنا يقول القرآن الكريم : ﴿ **وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا** ﴾ (الحجرات : ١٣) . والتعارف هو الخطوة الأولى نحو التآلف والتعاون فى جميع المجالات .

وحتى يمكن الوصول إلى هذا الهدف كان لابد من إيجاد وسيلة للتفاهم وتبادل المشاعر والأفكار بين الناس . فكانت اللغة التى يتخاطب بها الناس ويعبرون بها عن أغراضهم ومشاعرهم وأفكارهم . ويُعد التفاهم عن طريق اللغة أسلوباً راقياً للتواصل بين البشر وتبادل الأفكار الذى يؤدى إلى تبادل المنافع فيما بينهم .

ولا يجوز أن يؤدى الخلاف فى الرأى أو فى الفكر أو فى الاعتقاد إلى إفساد ما بين الناس من علاقات . وهذا ما يعبر عنه القول المشهور : " **الخلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية** " . وكما أعطى لنفسى الحق فى أن يكون لى رأيى الخاص ووجهة نظرى المستقلة فكذلك ينبغى أن أعطى الحق ذاته للآخر . فمن حقه أيضاً أن يكون له رأيه الخاص ووجهة نظره المستقلة ، بل ومن حقه أن يكون له معتقده المختلف . فكل فرد فى هذا

الوجود له شخصيته المستقلة . وقد أعطانا الله رمزاً لهذه الاستقلالية يتمثل في عدم اتفاق بصمة إبهام فردين في هذا الوجود مع بعضهما . فالخلاف في الرأى إذن شيء طبيعي وليس أمراً شاذاً .

ومن هنا فإنه لا ينبغي أن يضيق المرء صدراً بالآراء المخالفة لرأيه ، ليس فقط في مجال الأمور اليومية العادية ، بل حتى في أمور الدين والفكر والسياسة . فلا يجوز لطرف من الأطراف أن يدعي لنفسه أنه وحده الذى يملك الحق المطلق وأن غيره يقف في الطرف المقابل الذى يتساوى مع الباطل . وقد عبر الإمام الشافعي عن هذا المعنى في تسامح رائع قائلاً : " رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب " .

وقد بلغت السماحة في الفكر الإسلامي المستنير في هذا الصدد حداً لا نظير له ، عبر عنه الشيخ محمد عبده بما " اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم " قائلاً : " إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد حُمل على الإيمان ، ولا يجوز حمله على الكفر " ويعقب الشيخ على ذلك قائلاً : فهل رأيت تسامحاً مع أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من هذا ؟ [1] .

---

(١) راجع الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية للشيخ محمد عبده ، ص ٥٣ ، دار المنار بمصر ١٣٧٣هـ .

التسامح والحوار :

إن الحوار فى معناه الصحيح لا يقوم ولا يؤدى إلى الهدف المنشود إلا إذا كان هناك احترام متبادل بين أطراف الحوار ، واحترام كل جانب لوجهة نظر الجانب الآخر . وبهذا المعنى فإن الحوار يعنى التسامح واحترام حرية الآخرين . واحترام الرأى الآخر لا يعنى بالضرورة القبول به . وليس الهدف من الحوار مجرد فك الاشتباك بين الآراء المختلفة أو تحييد كل طرف إزاء الطرف الآخر ، وإنما هدفه الأكبر هو إثراء الفكر وترسيخ قيمة التسامح بين الناس ، وتمهيد الطريق للتعاون المثمر فيما يعود على جميع الأطراف بالخير ، وذلك بالبحث عن القواسم المشتركة التى تشكل الأساس المتين للتعاون البناء بين الأمم والشعوب . والحوار بهذا المعنى يعد قيمة حضارية ينبغى الحرص عليها والتمسك بها وإشاعتها على جميع المستويات .

والوعى بذلك كله أمر ضرورى يجب أن نعلمه للأجيال الجديدة ، وبصفة خاصة عن طريق القدوة وليس عن طريق التلقين . فالواقع المؤلم أنه كثيراً ما تحدث مشادات عنيفة تخرج عن نطاق الموضوعية ، وربما يتطور الأمر إلى شجار وتماسك بالأيدى بين الأطراف المختلفة فى الرأى ، لأن كل جانب يريد فرض رأيه بشتى السبل . ولا يقتصر ذلك على المستويات الدنيا فى المجتمع ، بل ينسحب على شريحة لا يستهان بها بين المشتغلين بالفكر وبالثقافة بصفة عامة ، حيث يصل الأمر فى أحيان كثيرة إلى حد الخروج عن مناقشة الفكر بالفكر إلى الشتائم والتجريح الشخصى الذى لا صلة له بالنقاش الموضوعى . وإن دل هذا الخروج عن الموضوعية على شىء فإنما يدل على ضحالة فى الفكر وقصور فى الحجة وفقر فى المنطق .

وهذا الخروج عن الموضوعية فى الحوار على هذا النحو أمر لا يليق بالإنسان الذى كرمه الله ، وفضله على بقية الكائنات ، وميزه بالعقل ، وجعله

خليفة فى الأرض ليعمرها بالخير ، ويملأها بالعلم ، وينشر فيها الحق والعدل والأمن والسلام .

ولا جدال فى أن الحوار قد أصبح فى عصرنا الحاضر أكثر إلحاحاً من أى وقت مضى ، بل أصبح ضرورة من ضرورات العصر ، ليس فقط على مستوى الأفراد والجماعات ، وإنما على مستوى العلاقات بين الأمم والشعوب المختلفة . وإذا كانت بعض الدول فى القرن الجديد لا تزال تفضل شريعة الغاب بدلاً من اللجوء إلى الحوار فإن على المجتمع الدولى أن يصحح الأوضاع ، ويعيد مثل هذه الدول الخارجة على القيم الإنسانية والحضارية إلى صوابها حتى تنصاع إلى الأسلوب الحضارى فى التعامل وهو الحوار . فليس هناك من سبيل إلى حل المشكلات وتجنب النزاعات إلا من خلال الحوار .

ومن منطلق الأهمية البالغة للتعارف [1] بين الأمم والشعوب والحضارات والأديان ــ على الرغم من الاختلافات فيما بينها ــ كانت دعوة الإسلام إلى الحوار بين الأديان . وذلك لما للأديان من تأثير عميق فى النفوس . ويعد الإسلام أول دين يوجه هذه الدعوة واضحة صريحة فى قوله تعالى : ﴿ **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** ﴾ (آل عمران : ٦٤) .

ولم يكتف القرآن بمجرد الدعوة إلى الحوار بين الأديان، بل رسم المنهج الذى ينبغى اتباعه فى مثل هذا الحوار. وذلك فى قوله تعالى : ﴿ **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون** ﴾ (العنكبوت : ٤٦) .

(١) كما جاء فى الآية الكريمة : ﴿ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾ (الحجرات : ١٣) .

أما الحكم على الآخرين الذين يشاركوننا فى الإنسانية فيجـــدر بنـــا أن نتركه لله جل شأنه . وخير لنا بدلاً من ذلك أن نجتهد فى أن نسلك حيالـــهم مسلكاً عادلاً متسامحاً طالما لم يسيئوا إلينا . فالدين لا يحفل إلا بالأعمال التى نتحمل نحن مسئوليتها . ولهذا يقول القرآن الكريـــم فـــى موضـــع آخـــر : **﴿ وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا ، وإليه المصير ﴾** (الشورى : ١٥) .

التسامح الدينى :

ونظراً لما للدين من عمق عميق فى النفوس فإن الحوار بين الأديان لا يمكن أن يكتب له النجاح إلا إذا ساد التسامح بين المتحاورين ، وحل محل التعصب المعتاد بين أتباع الديانات المختلفة . وقد حرص الإسلام كل الحرص على تأكيد هذا التسامح بين الأديان بجعله عنصراً جوهرياً من عناصر عقيدة المسلمين .

فالأديان السماوية جميعها تعد ــ فى نظر الإسلام ــ حلقات متصلة لرسالة واحدة جاء بها الأنبياء والرسل من عند الله على مدى التاريخ الإنسانى . ومن هنا فإن من أصول الإيمان فى الإسلام الإيمان بجميع أنبياء الله ورسله وما أنزل عليهم من وحى إلهى . وفى هذا يقول القرآن الكريم : **﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ﴾** (البقرة : ٢٨٥) .

ومن أجل ذلك يمتاز الموقف الإسلامى فى أى حوار دينى بأنه موقف منفتح على الآخرين ، ومتسامح إلى أبعد الحدود . فقد أقر الإسلام منذ البداية التعددية الدينية والثقافية ، وصارت هذه التعددية من العلامات المميزة فى التعاليم الإسلامية . والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة . فقد تأسس مجتمع المدينة المنورة بعد هجرة الرسول إليها على التعددية الدينية والثقافية ، ومارس المسلمون ذلك من بعده عملياً على مدى تاريخهم الطويل .

ويؤكد ذلك ما يعرفه التاريخ من أن المسلمين لم يكرهوا أحداً على الدخول فى الإسلام . فالحرية الدينية مكفولة للجميع ، وتعد مبدأ من المبادئ الإسلامية الذى أكده القرآن الكريم فى قوله : **﴿ لا إكراه فى الدين ﴾** (البقرة : ٢٥٦) . وفى قوله فى موضع آخر : **﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾** (الكهف : ٢٩) .

ومن القواعد الأساسية المعروفة فى الشريعة الإسلامية فى شأن التعـامل مع أهل الكتاب القاعدة المعروفة : **(لهم ما لنا وعليهم ما علينا)** ، أى لــهم ما لنا من حقوق وعليهم ما علينا من واجبات .

خاتمـــــة :

ومما تقدم يتضح لنا بجلاء إلى أى مـــدى يعتـــبر التســـامح الإيجـــابى ـ بوصفه تسامحاً شاملاً أو تسامحاً دينياً ـ من العناصر الأساسية فى تعاليم الإسلام ، وبالتالى من الأهداف التى ترمى إليها التربية الإسلامية .

ومن هنا فإن التزام المسلمين بذلك وحمايتهم لحقـــوق أتبـــاع الديانـــات الأخرى الذين يعيشون فى المجتمعات الإسلامية أمــــر يدخـــل فـــى إطـــار التزاماتهم الدينية التى تقضى بالحفاظ والدفاع عن الحقوق الإنسانية العامــــة للجميع . وأى تجاوز أو عدوان على هذه الحقوق يعد تجاوزاً وعدواناً علـــى تعاليم الدين ، وهو أمر يجب على المسلمين التصدى لـــه بكـــل الوســـائل . وفى هذا الإطار يفهم أيضاً حديث النبى ﷺ : [**من رأى منكم منكراً فليغـيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يســتطع فبقلبـــه ، وذلـــك أضعـف الإيمان**] [1] .

ومن هنا فإنه ليس من التسامح فى شىء الوقوف موقف المتفرج حيـــال الظلم والقسوة اللذين يتعرض لهما أى إنسان بصرف النظر عـــن جنســـه أو لونه أو عقيدته .

وفى ختام حديثنا عن التسامح أود أن أشير إلى إحدى المأثورات الثابتـة عن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، والتى تعد نموذجاً رائعاً على التسامح الإسلامى الإيجابى . فقد كان عمر يتجول كعادته فى شـــوارع المدينة المنورة يتفقد أحوال الرعية ، فرأى شيخاً طاعناً فى السن يتسول فـــى الطريق ، فسأل عن أمره وعلم أنه يهودى . فحزن الخليفة لما أصاب هـــذا

---

(١) رواه كل من الإمام مسلم والحاكم فى المستدرك وأصحاب السنن الأربعة أبو داود والترمذى والنســـائى وابن ماجة (راجع فيض القدير للمناوى ج٦ ص ١٣٠) .

الشيخ الهرم مما اضطره إلى التسول ، وأمر بأن يخصص له ـ ولنظرائه ـ معاش ثابت من بيت مال المسلمين يتيح له حياة كريمة . وهذا الخليفة هو نفسه صاحب العبارة الشهيرة : " **متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً** " [١] .

ومن هذه الأمثلة ـ وغيرها كثير ـ يتجلى بوضوح مدى حرص الإسلام على الدفاع عن حرية الإنسان وكرامته وحقوقه الإنسانية العامة بصرف النظر عن انتماءاته العرقية أو الدينية أو الثقافية . وذلك كله يعبر تعبيراً لا يقبل التأويل عن التسامح الإسلامى الذى سيظل عنواناً على هذا الدين إلى آخر الزمان .

---

(١) راجع على الطنطاوى : أخبار عمر ص ١٨٢ وما بعدها ـ دمشق ١٩٥٩م .



الفصل الحادى عشر

عالم واحد للجميع

١ ـ من مشكلات العالم المعاصر

٢ ـ الوحدة من خلال التعددية

٣ ـ حوار الأديان

ـ كلمة ختاميـة



عالم واحد للجميع (*)

١ ـ من مشكلات العالم المعاصر :

إذا كنا حقاً نريد أن نبنى عالماً واحداً للجميع ، فعلى الأديان أيضاً أن تسهم فى تحقيق هذا الهدف بنصيبها على نحو فعال . وذلك عن طريق الحوار الدينى الذى أصبح اليوم أكثر إلحاحاً من أى وقت مضى ، للتصدى بقوة للمفاهيم الخاطئة والأحكام المسبقة القائمة بين الأديان ، وتلك مهمة ليست سهلة . ولعل من المفيد فى هذا الصدد إلقاء نظرة واقعية على الوضع الراهن فى عالم اليوم .

لقد أصبحت البشرية تهيمن فعلاً هيمنة متزايدة على العالم من الناحية التقنية ، وبدرجة لم يكن يتوقعها أحد من قبل ، ولكن البشرية مع ذلك تتساءل بشكل ملح ومتزايد باستمرار عن كيفية السيطرة على مستقبل هذا العالم الذى أصبح بمثابة قرية كونية كبيرة . ولقد أصبح من الضرورى إلى جانب التصدى للفقر المتزايد فى كل جنبات المعمورة مواجهة الاتجاهات التخريبية والعدوانية المتزايدة فى كل مكان ، تلك الاتجاهات التى يجب أن يحل محلها التعاون السلمى الفعال بروح من التفاهم المتبادل والتسامح الخالص .

إن الأمر لم يعد فقط أمر مشكلة بقاء البشرية من الناحية المادية وبقاء كوكبنا المستنزف على نحو غير مسبوق ، وهى مشكلة أصبحت اليوم موضع

(*) كلمة ألقيت فى الجلسة الافتتاحية للمؤتمر المسيحى الإسلامى العالمى الثانى الذى انعقد فى فيينا بالنمسا عام ١٩٩٧م حول موضوع " عالم واحد للجميع " أساسيات التعددية الاجتماعية والثقافية . وقد نشرت فى :
Bsteh, A., Eine Welt fuer alle . Moedling b . Wien, 1999 .

تساؤل جدى ، إنما الأمر بالأحرى يدور حول كيفية العمل على إنقاذ أدوات السلام بجوهرها الحقيقى ، ونعنى بهذه الأدوات بصفة خاصة الأديان والحضارات التى انبثقت منها . صحيح أن الإنسان جزء من الطبيعة وأن له الكثير من المتطلبات البيولوجية والمادية . ولكن طبيعته الحقيقية وكرامته تكمنان فى موهبته الخاصة المتمثلة فى قدرته على التفكير العقلى الحر ، أى فى قدراته الثقافية .

وتتركز المناقشات حالياً بصفة خاصة على مشكلات بعينها من بين المشكلات الكثيرة القائمة ، ونعنى بذلك قضيتين هامتين هما : قضية تعايش الأديان والحضارات ، وقضية التطبيق العملى لحقوق الإنسان العامة . وهما قضيتان مرتبطتان ببعضهما فى حقيقة الأمر برباط وثيق . وهذا يعنى أن الهدف الذى ينبغى أن نرمى إليه بصفة أساسية هو كيف يمكننا فى مجتمع العولمة أن نحقق تعددية دينية وحضارية أصيلة وأن نحقق بذلك أيضاً اعترافاً فعالاً بحقوق الإنسان العامة للبشر كافة .

٢ ـ الوحدة من خلال التعددية :

والتعددية الدينية والثقافية ليست فقط ممكنة فى نظر الإسلام ، بل إنها من الناحية الدينية مطلب من مطالبه . وتعد الوحدة من خلال التعددية بهذا المعنى مبدأ إسلامياً أصيلاً . ومن أجل ذلك فإن الاحترام الواجب لحقوق الإنسان بالنسبة للناس كافة يمثل مطلباً من المطالب الإسلامية الرئيسية .

ولقد أقر النبى عليه الصلاة والسلام منذ البداية وعلى نحو نموذجى فى دستور المدينة المنورة التعددية الدينية وحقوق الإنسان المتساوية لكل المواطنين . ودستور المدينة المنورة الذى أعلن قبل أربعة عشر قرناً اعتبر اليهود ـ الذين كانوا يعيشون فى المدينة آنذاك ـ أمة تكوّن مع أمة المسلمين مجتمع المدينة المنورة . وقد نصت الوثيقة على أن لليهود نفس الحقوق التى للمسلمين وعليهم نفس الواجبات التى على المسلمين ، وتبرز الوثيقة بوضوح اختلاف هاتين الأمتين فى الدين . وهكذا تبنى النبى عليه الصلاة والسلام قبل أربعة عشر قرناً قضية حرية العقيدة والتعددية الدينية وما يرتبط بهما من اختلاف فى العادات والتقاليد [١] .

والتعددية الدينية بهذا المعنى لا يصح اعتبارها مساوية للنسبية الدينية . فكل دين له بلا شك ، بالنسبة إلى المؤمنين به ، مطلب امتلاك الحقيقة المطلقة . ولكن هذا المطلب لا يتعارض من وجهة النظر الإسلامية مع الاعتراف بالأديان السماوية الأخرى لأنها جميعاً فى نظر الإسلام ربانية المصدر . ويجب على المسلمين لهذا السبب أن يعترفوا بأنبياء الله جميعاً ، مثل موسى وعيسى وغيرهما ، بوصفهم رسلاً من عند الله سبحانه وتعالى . والمسلم الذى لا يؤمن بذلك ليس مسلماً حقيقياً . والقرآن الكريم يقرر أن الله

---

(١) محمد حسين هيكل ، حياة محمد ، ص ٢٢٥ وما بعدها ، ط٩ ، القاهرة ١٩٦٥م .

سبحانه وتعالى قد جعل لكل من هذه الأديان المختلفة شرعة ومنهاجاً وسبيلاً إلى الخالق عز وجل .

ولا يعنى هذا مجرد القبول بتجاور الأديان بعضها إلى جانب البعض الآخر . وإنما يعنى ما هو أبعد من ذلك ، إنه يعنى التعاون والتعايش الإيجابى الفعال والتنافس فيما بينها فى تقديم الخير للناس . ويشير القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله :

﴿ .. لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فى ما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات ﴾ (المائدة : ٤٨) .

وكما أن لكل إنسان شخصيته المستقلة وتفرده الذاتى ــ وبصمات أصابعه ما هى إلا رمز لهذا التفرد ــ كذلك الشعوب والأمم لها هُوِيَّاتها المتفردة ، ولها أساليب حياتها الخاصة وأساليب تعبيرها الخاصة أيضاً . وإن الوعى الحقيقى بما تشترك فيه الأديان من قيم وأخلاقيات كفيل بجعل أتباع هذه الأديان يوجهون جهودهم نحو الإقبال والتسابق على الخير بكل صوره وأشكاله . ومن شأن ذلك أن يجعلهم يدركون أن الاختلافات بين البشر أفراداً أو جماعات تمثل مصدر ثراء للبشرية ، وأن الرابطة الإنسانية التى تربط بين البشر جميعاً ــ بصرف النظر عن اختلافهم فى القومية والدين والحضارة ــ أقوى من أى شىء آخر . فجوهر الإنسان واحد فى كل زمان ومكان . ومهمة الأديان إبراز هذه المعانى الإنسانية للناس . فالوعى بذلك كله من شأنه أن يؤكد التقارب والتعارف بين الناس وليس التباعد والتباغض . ويشير إلى ذلك القرآن الكريم فى قوله :

﴿ يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾ (الحجرات : ١٣) .

٣ ـ حوار الأديان :

وأود فى هذا المقام أن ألفت النظر إلى أن الإسلام قد سبق الأديان كلها بالدعوة إلى الحوار الدينى . والقرآن الكريم ينبه باستمرار إلى ما تشترك فيه الأديان السماوية من مبادئ إيمانية وأخلاقية ، فهى كلها تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له :

﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبدَ إلا الله ، ولا نشركَ به شيئاً ، ولا يتخذَ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾ (آل عمران : ٦٤) .

والإسلام يبين لنا أن الرسالة الأساسية للأديان كلها واحدة فى جوهرها . ومن أجل ذلك أقر الإسلام منذ البداية التعددية الدينية فى المجتمع ــ كما سبق أن أشرنا ــ إدراكاً منه أنه لا خلاف على الهدف بين الديانات جميعاً . فكلها يسعى إلى تحقيق الخير وإقامة العدل ونشر السلام بين البشر جميعاً .

ونود أن نؤكد أن دعوة الإسلام إلى وحدانية الله المطلقة تواكبها فكرة وحدة البشر جميعاً . فالقران الكريم يبين لنا أن الناس جميعاً قد خلقوا من نفس واحدة وروح واحدة منبثقة من روح الله ، وأن الكرامة التى منحها الله لهم لا تفرق بين إنسان وإنسان ، وأن التكليف الإلهى لبنى آدم بعمارة الأرض وصنع الحضارة فيها تكليف موجه للناس جميعاً وليس لفئة دون أخرى ، بالإضافة إلى أن الهدف المشترك للجميع هو تحقيق السلام وإن اختلفت الطرق المؤدية إليه .

وإذا ركزت الأديان على مهمتها الأصلية ، وهى تربية الناس على السلام ، فإنها تكون فى وضع يمكنها من الإسهام الحقيقى فى التربية الضرورية لمجتمع عالمى متعدد الأديان والحضارات ، ويجعلها فى الوقت نفسه قادرة على التصدى الفعال للظواهر السلبية السائدة فى زماننا مثل

التطرف والإرهاب والانحلال والشذوذ والإدمان وغيرهـــا ، حيــث تخلــق الأديان مناخ الثقة الضرورى لتحقيق التعاون بين الشعوب والحضارات .

والإنسان المسلم الذى يلتزم باتباع تعاليم دينه على نحو سليم تكون لديــه الفرصة للتوصل إلى دوائر السلام المترابطة التى توفــر الســكينة للأفــراد والجماعات .

أما الدائرة الأولى فهى دائرة السلام مع الله سبحانه وتعالى وهى الإيمان به وحده لا شريك له ، **وأما الدائرة الثانية** فهى دائرة السلام مع النفس الـذى يتحقق بالتوازن العادل بين قوى النفس الإنسانية . وأخيراً فإن **الدائرة الثالثة** هى دائرة السلام فى محيط الإنسان وبيئته ، ويحقق الإنسان المســـلام فيــها بأعماله الصالحة لخير من حوله وما حولـــه، أى لخــير الآخريــن الذيــن يشاركونه فى الإنسانية ، ولخير البيئة المحيطة به بكل ما فيها من حيوان ونبات وجماد . وهذه الدوائر الثلاث يؤثر بعضها فى البعض الآخر تأثيراً متبادلاً .

ولا شك فى أن الانسجام الذى يتحقق بين هذه الدوائر عن طريق هــذا التأثير المتبادل هو فى نهاية المطاف ما يطمح إليه كل إنسان عاقل لديه وعى حقيقى بإنسانيته . وعندما يعيش الإنسان فى ظل هذا الانسجام فسيكون قادرا على النهوض بمهمته الحقيقية وهى أن يكون خليفــة لله فــى الأرض ، وأن يسهم بذلك فى إقامة عالم ينعم فيه الجميع بالسلام .

وهذا التصور المثالى لعالم واحد للجميع يشترط بطبيعة الحال غرس **قيمــة التسامح** فى نفوس الأفراد والجماعات والشعوب عن طريق التربية الســليمة التى تؤكد المعنى الإنسانى الذى يشترك فيه الجميع . والمسلم مطالب دينيــا بتحقيق مبدأ التسامح ، ليس فقط على المستوى الدينى ، بــل علــى جميــع المستويات . والتسامح الإسلامى ليس مجرد تسامح سلبى يعنى مجرد قبــول

الآخر ، وإنما هو تسامح إيجابى يدفع إلى التواصل مع الآخرين والتعامل معهم على أساس من العدل والبر (الممتحنة : ٨) . والبر مفهوم جامع لكل قيم الخير .

وكل إنسان ــ فى التصور الإسلامى ــ مسئول مسئولية ذاتية عن كل ما يصدر عنه . فكل امرئ مسئول عن عمله فقط مسئولية فردية وليس مسئولاً عن عمل غيره . وكل فرد ــ كما جاء فى الحديث النبوى ــ عليه أن يتحمل مسئوليته بوعى وإخلاص كالراعى الحريص كل الحرص على الوفاء بمسئوليات رعايته فى دائرة محيطة واختصاصه :

[كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته] (١) . وإذا أحسن كل راع القيام بمسئولياته أدى ذلك إلى تكامل المسئوليات . وذلك فى مصلحة كل مجتمع على حدة وفى مصلحة المجتمعات الإنسانية بصفة عامة . ويصب فى النهاية فى مصلحة عالم واحد للجميع ينعم أفراده بالسلام .

والحق أن العالم يتغير على الدوام وأن ردود الفعل لدينا على تحدياته لابد أن تتغير ما فى ذلك شك . وعلينا من أجل ذلك أن نحاول أن نجد الطرق الجديدة والأساليب الملائمة لمواجهة ذلك كله . ولكن هذا لا يعنى بحال من الأحوال أن علينا أن ننحى كنوز تاريخنا ــ أعنى الدين والثقافة ــ جانباً . فنحن بحاجة مستمرة إلى منارات تنير لنا سبيلنا .

---

(١) رواه الإمام البخارى فى كتاب الجمعة .

كلمة ختامية :

وأود فى ختام هذه الكلمة أن أؤكد أن الإسلام إذ يقر التعددية الدينية والحضارية فإنه لم يحاول قط أن يُكره مسيحياً أو يهودياً على اعتناق الإسلام . وتعتمد الشريعة الإسلامية على قاعدة أساسية للتعامل مع أتباع الأديان الأخرى تنص على أن لهم ما للمسلمين من حقوق وعليهم ما على المسلمين من واجبات . والإسلام يعتبر التعددية فى المجتمع مصدر ثراء للتجربة البشرية . فتفاعل الثقافات والأديان يمكن أن يؤدى إلى الإسهام فى خلق ثقافات مثمرة ونظم اجتماعية عادلة .

ومن هنا فإننا إذا كنا نتحدث عن عالم واحد للجميع فإنه لا يجوز أن يفهم من ذلك أنه يعنى تذويب الحضارات فى حضارة واحدة وإلغاء الخصوصيات الحضارية ، فهذا أمر غير وارد إطلاقاً . فالتمايز الحضارى والدينى من السمات الإيجابية التى ستظل قائمة على الرغم من الاتفاق فى الأهداف . وإذا كانت العولمة التى بدأت تتغلغل فى كل أنحاء العالم بأبعادها الاقتصادية والسياسية والثقافية تعتقد أنها تستطيع أن تفرض حضارتها وقيمها وثقافتها وأسلوب حياتها فى كل مكان فى العالم دون اعتبار لخصوصيات الحضارات الأخرى فإنها بذلك تخطئ الطريق وتتجاهل الحقائق وتسير فى اتجاه مضاد لطبيعة الأشياء ، ولا تسهم بالتالى فى بناء عالم واحد للجميع يشعر كل فرد فيه بذاتيته وإنسانيته .

إن واجب الأديان أن تتجه فى الحوار فيما بينها إلى تجنب الجدل العقيم حول العقائد وتأكيد نقاط الخلاف . وعليها بدلاً من ذلك أن تحرص على إبراز القواسم المشتركة بينها ، وما أكثرها ، ونشر التسامح بين أتباعها وتهيئة الفرص المناسبة لإحياء الأمل والتفاؤل لدى الجميع فى إمكان تحقيق عالم واحد ينعم فيه الجميع بالسلام .

الفصل الثانى عشر

المسئولية العالمية المعاصرة
فى التصور الإسلامى

أولاً : مدخل عام : المسئولية المعاصرة

ثانياً : المسئولية المعاصرة عن العالم فى التصور الإسلامى :

١ ــ المسئولية فى نظر الإسلام

٢ ــ الإنسان خليفة الله فى الأرض

٣ ــ الصورة القرآنية للعالم :

أ ـ العقيدة ووحدة البشرية : الوحدة فى العقيدة

ب ـ حرية الإنسان ومصيره

ج ـ الإيمان والمسئولية

د ـ دوائر المسئولية



المسئولية العالمية المعاصرة
فى التصور الإسلامى (*)

أولاً : مدخل : المسئولية المعاصرة :

إذا تأملنا فى عالمنا المحيط بنا فإننا نلاحظ الكثير من التغيرات الأساسية التي طرأت عليه . ويرجع السبب فى ذلك إلى أننا نحن البشر قد تغيرنا. فبعد أن كانت كل أمة تعيش فى ظل حضارة واحدة خاصة بها ومحاطة بحمايتها ومستقرة تحت لوائها نجد أننا نعيش اليوم فى عالم متداخل الثقافات متشابك الحضارات .

وقد اهتزت القواعد القديمة للجماعات بصورة حادة وأصبح لزاماً على الجميع فى كل مكان فى عالم اليوم أن يوطنوا أنفسهم على التعايش مع أناس مختلفين فى حضارتهم وأديانهم اختلافاً كبيراً . فالجماعات البشرية أو الأمم التى

(*) أصل هذا البحث قدم باللغة الألمانية لملتقى الأديان فى سانت ميرجن ـ فرايبورج بألمانيا فى نوفمبر ١٩٨٦م وقامت بنشره عام ١٩٨٧م دار نشر هردر Herder الألمانية المعروفة تحت عنوان : " Heutige Weltverantwortung in islamischer Sicht " وذلك ضمن كتاب ضم بحوث الملتقى المذكور وصدر بعنوان : Universale Vaterschaft Gottes .

كان يُنظر إليها فى السابق على أنها جماعات غريبة ، أو لا يزال يُنظر إليـــها أيضاً حـــتى اليوم فى مناطق كثيرة من العالم على أنها جماعات غير منـــتمية أو حـــتى مـــعادية ــ كما تؤكد ذلك الأحكام المسبقة التى لا تـــزال شــائعة ــ لم يعد فى الإمكان رفض هذه الجماعات بصفة عامة ، بل أصبح لزامــــاً علـــى المرء أن يبذل جهده في فهمها وتقبلها على الأقـــل بدرجة معينة . وقد أصبـــح فعل ذلك أمراً ضرورياً حتى يمكن تفادي الانهيار القاتل لسفينة هذا العالم .

والسؤال الذى يمكن أن يفرض نفسه في هذا الصدد هو:

هل المطلوب إذن أن نكون في مستوى " فوق الحضارة " ــ إذا صح هـــذا التعبير ــ أى فى مستوى يرتفع فوق الحضارات الخاصة، أم أن المطلوب هو أن نزداد تأصلاً ورسوخاً فى حضارتنا الخاصة التى يمثل الدين نواتـــها فـــى كـــل الأحوال ؟

ألسنا سوف نتبين في الحالة الأخيرة أيضاً أننا جميعاً فى نهايـــة المطـــاف نضرب بجذورنا فى ذات الأرض ويرتفع نمونا عالياً تحت سقف سماء واحدة ؟

لقد تمت زحزحة الفرد فى العالم المعاصر إلى مستوى السطحية والعزلـــة عن طريق الصورة الآلية الميكانيكية والمادية للعالم بشكل لم يسبق لـــه مثيـــل، ويحاول الفرد الذى يعيش فى ظل هذه الظروف أن يعود مرة أخرى إلى جـــذوره في حضارته الخاصة أو البحث عن إجابات الأسئلة التى تقلقه لدى الحضـــارات الأخرى.

ولكننا فى نهاية الأمر لن نستطيع العثور على ما ننشده من إجابـــات إلا إذا نهضنا لتحمل عبء المسئولية الملقاة على عاتقنا. وهنا يبرز سؤال هام هو:

أمام مَن ومِن أجل مَنْ نحن مسئولون ؟ وكيف أتَوَصَّلُ إلى مسئوليتي تلك ؟

إن الإنسان المعاصر ـــ الذى بات قلقاً على مصيره ـــ أصبح ينقض في ليله ما قام بنسجه من أفكار فى نهاره ﴿ **كالتى نقضت غزلَها من بعدِ قوةٍ أنكاثاً** ﴾ (النحل : ٩٢) أو كما كانت تفعل بنيلوبى Penelope فى الأسطورة اليونانية المعروفة [١] ، ويتمسك هذا الإنسان المعاصر ـــ من ناحيةٍ ـــ بحريته ، ولكنه من ناحية أخرى لا يستطيع أن يظفر بهذه الحرية على نحو سليم إلا إذا تم ربطها بأصلها ، أى بخالقها وهو الله .

وينبغى أن يكون واضحاً تمام الوضوح لكل إنسان عاقل أنه يجب علينا جميعاً أن نسلك سلوكاً مسئولاً ، لأن السلوك غير المسئول يرتد إلينا فى نهاية الأمر فى أى صورة من الصور. فالعمل غير المسئول يترتب عليه فى عالمنا المعاصر كوارث مفزعة لا يمكن تفادى أخطارها ، نظراً لأنه قد أضحى عالماً صغيراً اختصرت فيه المسافات وتطورت فيه وسائل الاتصال إلى درجة مذهلة.

أجل ، إن الأمر قد يعنى فى بعض الأحوال انحلال العالم وانهياره. ومن هنا يدخل العالم أيضاً ، بمعنىً من المعانى ، فى دوائر مسئولياتنا الكثيرة .

---

(١) يلاحظ أن هذا البحث قد أعد فى الأصل ليخاطب الأوروبيين ومن هنا يأتى الاستشهاد أيضاً بما هو معروف فى ثقافتهم .

وبنيلوبى المشار إليها كانت ـــ كما ورد فى ملحمة هوميروس الشهيرة المسماة بالأوديسة ـــ ملكة وزوجة لأودوسيوس Odysseus ملك ايتاكا Ithaka . وكان هذا الملك قد خرج لمحاربة أعدائه فى طروادة وطالت غيبته حتى ظن أنه قد مات . وفى أثناء غيابه الطويل تقدم إلى زوجته بنيلوبى كثير من العشاق يطلبون الزواج منها قائلين إن زوجها لن يعود مرة ثانية . ولكنها وفاء منها لزوجها كانت تمنى كلاً منهم بموافقتها بعد الانتهاء من نسج بساط كانت قد بدأت فى صنعه . وكانت فى الليل تقوم باستمرار بنقض كل ما نسجته فى النهار حتى تظل وفية لزوجها تنتظر عودته . وقد عاد أودوسيوس بعد ذلك وانتقم من كل العشاق الذين ضايقوا زوجته أثناء غيابه .

والأمل الذى كان يحلم به المثاليون في كل العصور والـذى يتمثـل فـى تحقيق الأخوة لكل البشر وتحقيق السلام للجميع ـ هذا الأمل قد أصبـح اليـوم يمثل بصفة عامة ضرورة تحظى بالاعتراف والتأييد بصورة لم تكن قائمة مـن قبل .

ولكن هل يعنى ذلك أننا قد اقتربنا حقاً من تحقيق هذا الأمل أيضاً ؟

وكيف يمكن للفرد أن يسهم بنصيب فى هذا الصدد ؟

إننا جميعاً ، بوصفنا أعضاء في المجتمع الكبير الذى هـو العـالم، يعتمـد بعضنا على بعض ، كما هو واضح للجميع ـ ومن أجل ذلك فنحن مطـالبون ، كلٌ فى موقعه ، بأن نتحمل مسئولياتنا عن عالمنا الذى نعيش فيه .

ولكن كيف نفى بهذا المطلب؟ وأين هى الصورة الكلية للعالم التى يمكـن أن تشبع تطلعات العقل الحديث الذى ينقض باستمرار نسيج أفكاره . تلك الصـورة التى من شأنها أن توجه كل فرد إلى مسئوليته بشكل محدد تمام التحديد؟

وما معنى المسئولية عن العالم فى حقيقة الأمر؟ وكيف يمكن أن يسهم الفرد بنصيب فى تحمل المسئولية عن العالم كله وهو الذى يتحمل بالفعل بدرجة كافيـة مسئوليته عن نفسه وعن أعماله أيضاً ؟

إننا إذا نظرنا من منطلق مراقب خارجى إلى مسألة الربط بين المسـئولية الذاتية والمسئولة العالمية فإنه يمكن الإجابة عنها ببساطة على النحو التالى :

إن كلاً من هاتين المسئوليتين مرتبطٌ بالآخر، فكل منهما متضمن في الآخر. ونظراً إلى أن كل فرد منا عندما يتصرف حتى فى أخص خصوصيات أفعالـه فإن تصرفه يكون فى داخل هذا العالم ولا يتم إطلاقاً فى فراغ ، بمعنى أنه لا يتم فى مكان غير مرتبط بالعالم ، ونظراً إلى أننا نعيش اليوم فى عالم مفتوح وفـى

مجتمعات تخضع لتأثيرات عالمية فإن المسئولية الذاتية تعد إذَن ــ بمعنى معيَّن ــ مسئولية عالمية . فكل تصرف فردى يجر وراءه دوائره الأخرى ، كما أن رفض التصرف يعد أيضاً تصرفاً وله نتائجه التى تترتب عليه .

ولكن هل الشعور المستمر بضرورة المسئولية العالمية يكفى وحده لإنتاج هذه المسئولية ؟

إن من الواضح أن الإجابة عن ذلك ستكون بالنفى ، وإلا فكيف يمكن أن يحدث فى عصرنا الراهن اقتراف أبشع أنواع الجرائم وأشد أعمال العنف منافاةً للمسئولية والإنسانية على السواء باسم المسئولية عن العالم وباسم الأخوة بين البشر ؟

هل يوجد هناك اليوم طريق مستقيم ــ ليسِ فقط على المستوى النظرى بل على المستوى العملى أيضاً ــ لسلوك مسئول مسئولية عالمية ؟

وعلى هذا النحو يمكن صياغة مشكلة المسئولية العالمية من منظور مراقب خارجى يرصد الأحداث . ولكننا لسنا مراقبين خارجيين لأننا نحن أنفسنا نقف فى وسط الأحداث .

فكيف يكون الوضع إذَن من الداخل من خلال موقف فكرى ، أى من موقف كل فرد منا ؟

إن كل فرد منا عليه أن يوجه إلى نفسه هذا السؤال . ومن الواضح أن هذا أمرٌ يتطلب الصبر وطول النفس .

والإجابة عن هذا السؤال ــ بالنسبة لنا نحن المسلمين ــ تنبثق بطبيعة الحال من منظور إسلامى . ولكن ذلك لا يعنى منظورا محدودا أو صالحا فقط لجماعة معينة ، وإنما يعنى منظورا كليا شاملا. وهذا ما سنحاول توضيحه فى السطور التالية :

ثانياً : المسئولية المعاصرة عن العالم فى التصور الإسلامى

١ ــ **المسئولية فى نظر الإسلام :**

لعلنا نستطيع أن نقترب من الإجابة عن السؤال المطروح حول المسئولية عن العالم إذا تأملنا عن قرب كلمة مسئولية التى يدور الأمر هنا حولها .

إن الفعل **سأل** يعنى التوجه إلى طرف آخر بطلب أو مناشدة أو نداء يتطلب جواباً، ولهذا يقال ــ كما فى القاموس المحيط ــ " أسأله سؤله ومسألته قضى له حاجته " .

والله سبحانه وتعالى يقول فى القرآن الكريم للنبى صلى الله عليه وسلم : **﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾** (١) .

وقد يكون النداء منبعثاً من داخل الإنسان لا من خارجه . ومن الفعل سأل اشتقت كلمة **المسئولية** . وتحمل المسئولية على هذا يعنى إعطاء رد إيجابى على النداء الذى يتضمنه السؤال . والتحلل من المسئولية فى المقابل يعنى إعطاء رد سلبى على هذا النداء.

والمسئولية من الصفات التي تلازم صاحبها من قبل أن يبدأ الفعل إلى ما بعد انتهائه فى مراحل متدرجة على النحو التالى :

(أ) مرحلة ما قبل الفعل: وهى مرحلة نداء الواجب للشخص ومطالبته له بالعمل. والمسئولية هنا تنظر إلى المستقبل فهى مسئولية تكليف ومطالبة.

(ب) مرحلة الإجابة لهذا النداء بالإيجاب أو السلب .

---

(١) البقرة : ١٨٦ .

(ج) مرحلة المحاسبة والتقدير لقيمة هذه الإجابة. وتأتى هذه المرحلة بعد الفعل . والمسئولية هنا تلتفت إلى الماضى فهى مسئولية استجواب ومحاسبة.

والإلزام الأدبى الذى ينطوى عليه نداء الواجب للشخص ومطالبته له بالعمل يعنى أن ذلك الشخص الذى يوجّه إليه النداء له شخصيته المستقلة وله حريته فى القبول أو الرفض وله قدرته على تنفيذ ما استقرت عليه إرادته. والمسئولية بهذا المعنى صفة تشريف لأنها مرادفة لمعانى الحرية والاستقلال والكرامة والقوة [1] .

وإذا كان مفهوم المسئولية يتضمن كما رأينا الإجابة على النداء إيجاباً أو سلباً، فإن هناك العديد من الأسئلة التى تفرض نفسها عندئذ والتى تتمثل فيما يلى :

لمن أقدم هذه الإجابة ؟ ومن هو الذى ينادينى لأجيب نداءه ؟ وكيف أتوصل إلى تحديد مصيرى بنوع الإجابة ؟ وكيف أجيب ؟ وكيف ينبغى علىّ أو كيف أستطيع أن أعرف فى حقيقة الأمر أنى أسلك بالفعل حال الإجابة سلوكاً مسئولاً؟

إننى إذا نظرت إلى هذا العالم بوصفه الحقيقة النهائية ، وليس بوصفه مجرد مرحلة أو مقدمة لعالم آخر بعد هذا العالم فإنى لا أستطيع أن أجيب فى حقيقة الأمر على هذه الأسئلة .

فهذه الأسئلة تعد أسئلة غير قابلة للحل بالنسبة لهؤلاء الذين ليس لديهم وعى دينى متفتح ، كما أنها تعد بالنسبة للكثيرين أيضاً أسئلة لا مبرر لها وليس لها وجود حقيقى . وتتحول المسئولية الذاتية لديهم إلى مصلحة ذاتية وقتية أو إلى

---

(١) راجع : دراسات إسلامية للدكتور / محمد عبد الله دراز ص ٥٢ وما بعدها ـ دار القلم بالكويت ١٩٨٠ ، وانظر أيضاً كتابنا : مقدمة فى علم الأخلاق ص ٣٩ ـ دار القلم بالكويت ١٩٨٣م .

مصلحة الجماعة على أفضل تقدير . والمسئولية عن العالم بالنسبة لهم هي أيضاً ــ على أفضل الفروض ــ مصلحة عالمية . ونظراً لأنهم محصورون في نطاق الصورة المادية للعالم فإنهم لا يستطيعون أيضاً أن يستمروا في طرح الأسئلة خارج هذا النطاق . وبذلك ينتمون ــ وفقاً للتصور الإسلامي ــ إلى تلك الفئة التى وصفها القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿ لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يبصرون بها ولهم آذانٌ لا يسمعون بها، أولئك كالأنعامِ بل هم أضلُّ، أولئك هم الغافلون ﴾ (الأعراف : ١٧٩) .

صحيح أن هناك كثيرين في عالم اليوم على وعي بضرورة المسئولية العالمية المشار إليها، تلك المسئولية التى يصادفونها يومياً في حياتهم ، ولكنهم لا يثقون في أى جهود لحل هذه المشكلة حلاً جذرياً بطريقة معقولة ، وبدلاً من ذلك ينادون بتصرف أو سلوك " عملي " ، ولكن دون ميل إلى البحث عن بواعثه عن قرب . تلك البواعث التى قد تكون مثاراً للشكوك .

وعلى العكس من الحيوانات فإننا نحن البشر لا نسير وفقاً لغرائزنا، فنحن كائنات عاقلة . وهذا يعنى أننا نتصرف بحرية بناء على تفكير، ونسير طبقاً لما تمليه علينا عقولنا. وهذه الكائنات العاقلة لا تتبع أى قائد بلا وعى كما هو الحال مثلاً مع القطيع من الأغنام الذى يسير خلف قائد القطيع بلا وعى ، ويحذو حذوه حتى في الوقوع في الهاوية .

ونحن بأعمالنا نصنع مصيرنا. وفي ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ وكلَّ إنسانٍ ألزمناهُ طائرَهُ في عُنُقِهِ ونُخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً. اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً. مَنِ اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومَنْ ضلَّ فإنما يَضِل عليها ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ﴾ (الإسراء: ١٣-١٥) .

ونحن أحرارٌ فى أن نسلك سلوكاً عاقلاً أو سلوكاً غير عاقل. وإذا أعملنا عقلَنا الواعى ، وقلْبَنا الفاهِمَ فإنه ينفتح أمامنا عالَمٌ جديد . ولكن إذا اعتبرنا عالم المادة هو الحقيقة النهائية، ولم نحاول أن نحكِّم عقلنا، وننظرَ إلى أبعد من ذلك ، فإننا سنظل حبيسين فيه أيضاً، وسيكون مصيرنا فى النهاية هو الضياع فيه .

ولكن هذا العالم المادى ليس هو الحقيقة النهائية بالنسبة للإنسان المؤمن. ومن هنا فإن الإجابة التى نبحث عنها تعد بالنسبة له أمراً ميسوراً واضحاً تمام الوضوح . فالمسلم الثابت على عقيدته ، الراسخ فى إيمانه ، الذى لا يسلم زمام أمره لهذا العالم ، وإنما يسلم أمره لله وحده ، لأنه هو الذى يهديه إلى سبيل الرشاد ، ومن أجل ذلك فهو سبحانه محل ثقته المطلقة ـ هذا المسلم يدرك بذلك أنه بسلوكه وأعماله كلها ـ سواء كانت أعمال القلب أو أعمال الجوارح ـ لا يقدم إجابته (التى تتضمن مسئوليته الشاملة) لهذا العالم المادى ، وإنما يقدمها لله وحده ـ وهذا ما تعبر عنه الآية الكريمة :

﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له ﴾ (الأنعام : ١٦٢-١٦٣) .

فالله وحده هو الحقيق بالتوجه إليه، والاعتماد عليه، وتفويض الأمر كله إليه، فالمرجع والمصير إليه، لأنه رب كل شىء :

﴿ قل أغيرَ الله أبغى رباً، وهو ربُّ كل شىء، ولا تكسِبُ كلُّ نفسٍ إلا عليها، ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أخرى، ثم إلى ربكم مرجعُكم فينبئُكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ (الأنعام : ١٦٤) .

وهكذا فإن المطالبة بالمسئولية ـ فى نظر الإسلام ـ تعد مطالبة بتقديم إجابة بطريقة حرة . فكل إنسان فى موقعه ، وفى اللحظة المناسبة عليه أن يصوغ إجابته (مسئولياته) فى حرية . وهنا تكمن الصعوبة أيضاً فى تقديم إجابات جاهزة للآخرين . فالصلة بين الإنسان الفرد والله صلة شخصية مباشرة لا تحتاج إلى واسطة. ومن هنا فإن النموذج المثالى يرفض التقليد إلا إذا كان مبنياً على اقتناع .

فالإسلام يحث على الاستقلال فى الفعل ، ويؤكد النبى صلى الله عليه وسلم هذا المعنى حينما ينهى عن التقليد فى قوله :

[لا تكونوا إمَّعة : تقولون إن أحسن الناس أحسنّا ، وإن ظلَموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا] [(1)]

فكل فرد عليه أن يبحث بنفسه عن الإجابات المناسبة بسلوكه المسئول. ولكن مشكلة الإنسان المعاصر تكمن فى توقفه قبل الأوان عن طرح الأسئلة، وفى اعتقاده أنه يملك بالفعل الإجابات التى يبحث عنها .

ونعيد مرة أخرى طرح السؤال الملح من جديد : كيف يقدم الإنسان الإجابة الأصيلة بالسلوك المسئول ، ولمن يقدمها ؟

إن كل امرئ يتأمل فى موقفه الإنسانى متحرراً من كل الأحكام المسبقة سيتضح له فى النهاية ببصيرة واعية كيف يسلك سلوكاً مسئولاً إذا لم يظل واقفاً عند الإجابات الجاهزة المعطاة له سلفاً . فالإنسان قد جيء به إلى هذا العالم من قوة خارجة عنه ، وهذه القوة هى التى تحفظه حياً ، وهى التي تخرجه مرة

---

(١) رواه الترمذى .

أخرى من هذا العالم إلى عالم آخر فى وقت مجهول لديه ــ وقد جاء القرآن الكريم للإنذار والتبشير :

﴿ لينذر الذين ظلموا وبُشرى للمحسنين. إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (الأحقاف : ١٢-١٣) .

ويوجه القرآن الكريم السؤال للكافرين قائلاً :

﴿ قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ، أرونى ماذا خَلقوا من الأرض أم لهم شِركٌ فى السموات ؟ ﴾ (فاطر : ٤٠) .

إن هناك نداءً موجهاً إلى الإنسان ــ الذى يشعر فى ذاته أنه مركز عالمه. والموقف الدينى فى هذا الصدد يطلعنا على أن الجهة التى يصدر عنها هذا النداء هى فى الوقت نفسه تلك الجهة التى تجعل للسلوك الإنسانى معنى . فما الذى نعرفه عن هذه الجهة ؟

إننى إذا رأيت صورة من الصور المرسومة أدرك أن شخصاً ما قد قام برسمها ، فإذا تأملتُ العالم من حولى تأملاً واعياً فإنى أرى فيه أثر الخالق. ولكن هذا أمر يحتاج إلى قلب فاهم وعقل واع . والإسلام لا يعرف مؤسسات وسيطة بين الله والإنسان. فهناك فقط الوحى القرآنى الذى جاءنا عن طريق النبى محمد صلى الله عليه وسلم . والقرآن الكريم يقول لهؤلاء الذين يبحثون عن الهداية :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كِفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم، والله غفور رحيم ﴾ (الحديد : ٢٨) .

٢ ــ الإنسان خليفة الله في الأرض :

وإذا كنا نتحدث عن المسئولية الشاملة فى نظر الإسلام فإن هــذا يتطلــب معرفة موقف الإسلام من قضية الحرب والسلام بصفة عامة ، ويقتضى معرفــة دور الإنسان نفسه فى هذا الكون حتى تتضح لأمامنا معالم الصورة التى يرســمها الإسلام لتلك المسئولية الكلية .

إننا إذا تأملنا كلمة " إسلام " ذاتها فسنجد أنها مشتقة من الأصل ذاته الــذى اشتق منه لفظ " السلام " . والإسلام فى جوهره دين جاء لينشر السلام فى العالم. وإذا كان قد شرع الحرب فإن ذلك يأتى فقط فى حدود خدمــة هــذا الســلام ، وترسيخ قواعده . ومن هنا فإن الإسلام لم يشرع الحرب إلا لصد العدوان .

فالقتال فى سبيل الله ــ الذى كتبه الله على المؤمنين ــ لا يجوز أن يوجــه إلا ضد هؤلاء الذين يعتدون على المؤمنين ويعكرون عليهم صفــو الســلام ولا يجوز للمسلمين أن يــبدءوا القتال . وفى ذلك يقول القرآن الكريم فى صراحــة ووضوح :

﴿ وقاتلوا في ســبيل الله الذيــن يقــاتلونكم ولا تعتــدوا إن الله لا يحــب المعتدين ﴾ (البقرة : ١٩٠) .

والمسلمون ملزمون بوقف القتال ضد العدو إذا أبدى ميلا إلــى الســلام ، وذلك استجابة للأمر الإلهى فى قوله تعالى:

﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو الســميع العليــم ﴾ (الأنفال : ٦١) .

والإسلام لا يكتفي بمنع العدوان ، ولكنه في الوقت نفسه يطالب بالعمل الجاد لإقامة السلام والعدل ، فليس هناك طريق وسط بين الخير والشر . ومن ليس مع الله فهو في الجانب المضاد لله . ومن أجل ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ﴾ (النساء : ٧٥) .

أي : وفي سبيل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان.

إن الحياة في هذا العالم سريعة الزوال ، والشيء الذي يبقى هو العمل الصالح . ويصور لنا القرآن الكريم أمر هذه الحياة أبلغ تصوير في قوله تعالى:

﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً. المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثواباً وخيرٌ أملاً ﴾ (الكهف : ٤٥-٤٦) .

ويقول القرآن في سورة لقمان :

﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسنٌ فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور ﴾ (لقمان : ٢٢) .

فإذا أحببنا هذا العالم فينبغي أن نفعل ذلك ونحن على ذِكرٍ من أن كل الخيرات والطيبات التي نتمتع بها في هذا العالم تأتينا من عند الله ، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ (الإسراء : ٧٠) .

وفضلاً عن ذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد سخر للإنسان كل شيء في السموات والأرض ، لعل ذلك يكون داعياً له إلى التفكير في هذه النعم التي لا تحصى ولا تعد . وفي ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ (الجاثية : ١٣) .

ومن الأمور البديهية في هذا الصدد أن هذه النعم الإلهية التي أنعم الله بها على الإنسان ترتبط بمطالبة الإنسان ألا يهمل خلق الله المسخر له ، بل يجب عليه أن يتحمل مسئوليته في الاهتمام به والعناية بشأنه . ولهذا فإن مسئولية الإنسان عن هذا العالم تشمل الخلق كله ولا تنصب فقط على البشر، بل تشمل أيضاً الحيوان والنبات والأرض كلها . ومسئولية الإنسان إزاء هذا العالم وإزاء الخلق كله ــ الذي يعتمد عليه الإنسان أيضاً ــ هذه المسئولية لا ينبغي أن تعرف حدوداً تقف عندها . ولذلك يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم :

[إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل] [١] .

ألا يعني هذا أنه طالما نحن عاملون على هذا النحو والأمل يحدونا من أجل عالَمنا أننا نسلك سلوكاً مسئولاً على مستوى المسئولية العالمية ؟

إن الإسلام إذ يطلب من المسلم التوجه إلى الله والخضوع لأمره فإن ذلك لا يعني على الاطلاق الاعتزال عن العالم أو الانسحاب منه ، بل على العكس من ذلك يقتضي هذا الطلب أن يأخذ الإنسان المسلم هذا العالم بوصفه مجالاً لأداء مهمته في هذه الحياة وبذلك يكون سلوكه على مستوى المسئولية العالمية.

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ج٣ ص ١٩١ (انظر طبعة اسطنبول : الكتب الستة مجلد ٢٢) .

فالإنسان ــ كما يشير القرآن الكريـــم ــ (البقــرة : ٣١) خليفـــة الله فـــى الأرض . وقد أعطى الله العقل للإنسان ليمكّنه من أداء المهمة التى أنيطت به فى هذا العالم . والله الذى جعل الإنسان خليفة له فى الأرض هو رب هذا الإنســـان، ومن أجل ذلك فله حق الطاعة المطلقة على الإنسان. وهذه الطاعة لله هى التـــى تحدد مصير الإنسان .

والقرآن الكريم يشير إلى أن الإنسان عندما أضله الشيطان وأغراه وعصـــى آدم أمر ربه ، كان مصيره الخروج من الجنة ، وإحلال العداوة بين بنى البشـــر محل السلام والسعادة . وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنـــا اهبطـــوا بعضكـــم لبعض عدو ﴾ (البقرة : ٣٦) .

ثم اتجهت عناية الله مرة أخرى للإنسان الذى طُرد من الجنة ، فغفـــر لـــه وبيّن له طريق الهداية ، ووعد السائرين فى هذا الطريق بأحسن العواقب :

﴿ فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (البقرة : ٣٨) .

إن المؤمن الحق يقف بكلّيته فى الحاضر لا يخشى المستقبل ، ولا يحـــزن على الماضى ، وسلوكه سلوك هادف ومسئول وفعال . والمسئولية العالمية أمـــر لا ينفصل عن تكوين الإنسان ، وهى التي تميزه تميـــيزاً جوهريـــاً عـــن بقيـــة المخلوقات الأخرى ، فقد أبت هذه المخلوقات جميعها أن تتحمل أمانة التكليـــف والمسئولية بكل ما تحمل من معنى . فقد عـــرض الله ســبحانه علـــى جميـــع المخلوقات هذه الأمانة وتلك المسئولية ــ عرضـــها علـــى الســـموات والأرض والجبال :

﴿ فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ﴾ (الأحزاب : ٧٢) .

وقد عقب القرآن على ذلك مباشرة بقوله عن الإنسان فى هذا الموقف :

﴿ إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ .

وقد تعجب الملائكة حين أخبرهم الحق تبارك وتعالى بإرادته التى قضت بجعل الإنسان خليفة له فى الأرض فقالوا:

﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ (البقرة : ٣٠) .

وقد أجابهم الله سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ إنى أعلم ما لا تعلمون ﴾ (البقرة : ٣٠) .

فقد علم آدم الأسماء كلها (البقرة : ٣١) ومنحه عقلاً يعرف به طبيعة الأشياء .

٣ ـ الصورة القرآنية للعالم :

(أ) العقيدة ووحدة البشرية : الوحدة في العقيدة :

نحن جميعاً ندرك مدى ما يعانيه الإنسان من التمزق أو الانشقاق الداخلى ويرجع السبب فى هذه المعاناة إلى أن الإنسان من ناحية قد أبى إلا أن يتحمل المسئولية التى أشفقت من حملها السموات والأرض بما يترتب عليها من تبعات ضخام في إقامة العدل وإقرار الحق والالتزام التام بأمر الله . ومن ناحية أخرى نجده واقعاً تحت ضغوط عديدة من الشهوات والميول والنزعات وقصور العلم وقصر العمر وحواجز الزمان والمكان ، والتى تحول جميعها دون المعرفة الكاملة ورؤية ما وراء الحواجز والآماد . ومن هنا كان الإنسان ظلوماً لنفسه، جهولاً لطاقته [١] . فكيف السبيل إلى حل هذا الإشكال ؟

يقول القرآن الكريم فى هذا الصدد:

﴿ إن الله لا يغير ما بقومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسهم ﴾ (الرعد : ١١) .

فالله سبحانه وتعالى ـ الذى يعلم كل صغيرة وكبيرة فى هذا الوجود ويعلم خطرات النفس وما تخفى الصدور ـ لن يخفف عن الإنسان ضغط هذه المعاناة إلا إذا اتجه إليه الناس فى كل سلوكهم وفكرهم وأعمالهم وعادوا مرة أخرى مقرّين بربوبيته وحده سبحانه . ذلك الإقرار الذى هو مغروس أصلاً فى فطرتهم . كما يعبر القرآن الكريم عن ذلك فى قوله تعالى :

﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين ﴾
(الأعراف : ١٧٢) .

---

(١) راجع : فى ظلال القرآن لسيد قطب ج٥ ص ٢٨٨٤ وما بعدها ـ طبعة دار الشروق .

والصورة القرآنية للعالم تشتمل على المؤمنين في جانب والكافرين والمنافقين في الجانب الآخر . يقول الله تعالى :

﴿ زُيِّنَ للذين كفروا الحياةُ الدنيا ويَسْخَرون مِن الذين آمنوا ، والذين اتقوا فوقَهم يومَ القيامة ﴾ (البقرة : ٢١٢) .

ولكن هاتين الجماعتين من المؤمنين والكافرين ليستا منفصلتين انفصالاً تاماً عن بعضهما البعض . فالطريق إلى الإيمان مفتوح باستمرار أمام الجميع لأن الله غفور رحيم .. وطريق الإيمان مفتوح لكل الناس لأن هناك وحدة أساسية قائمة بين الناس جميعاً . ويشير القرآن الكريم إلى هذه الوحدة في كثير من الآيات، ففي سورة النساء مثلاً نقرأ قول الله تعالى :

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ﴾ (النساء : ١) .

ونظرا لأن الله قد خلق الناس جميعا من نفس واحدة، فإن المؤمن بطبيعته منفتح بصفة أساسية على العالم وعلى غيره من الناس الذين يشكلون الأجزاء الكثيرة الأخرى لذاته هو — إن صح التعبير — .

وهكذا يمكن القول بأن السلوك المسئول للإنسان يعني خطوة متقدمة على طريق وحدة البشر وذلك بتحقيق معرفة هذه الوحدة ، فالجميع أبناء آدم .

ومعرفة الوحدة النهائية لكل البشر تسير جنبا إلى جنب مع تحقيق هذه الوحدة في ترابط ووئام وحب متبادل مع إخواننا في الإنسانية ، ويتمثل ذلك في سلوكنا المسئول .

وبمعرفتي للوحدة الأساسية مع كل الناس — عن طريق ارتباط نفسي بنفوسهم وعن طريق انفتاح وعيي الديني — يتحول بذلك سلوكي إلى سلوك مسئول ، أي سلوك واع بمسئوليته مدرك لواجباتها .

والإنسان المتدين تتحقق معرفته لوحدته مع كل البشر باستعادة معرفة ذاته فيهم واعتبارهم صنوا له ، وبالسعى المستمر ـ عن طريق السلوك المسئول ـ إلى التسامح والود وفهم الآخرين وفهم معاناتهم ، والصبر الذى لا يكل مع نفسه ومع الآخرين .

والمسئولية الذاتية ـ إذا فهمت فهما سليما ـ، تعد دائما مسئولية ذاتية أمام الله، وبهذا المعنى تعد أيضا مسئولية عالمية، فقد خلق الله الخلائق الكثيرة، والشعوب العديدة لكى " **يعرف** " بعضهم بعضا. وفى ذلك يقول القرآن الكريم:

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ﴾ (الحجرات : ١٣) .

ولو أراد الله سبحانه أن يجعل الناس جميعا أمة واحدة لفعل ، ولكنه أراد أن يختبر الخلق بهذه التعددية القائمة :

﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ (المائدة :٤٨) .

وعلى الرغم من كل الاختلافات الكثيرة بين الناس فإنهم فى حقيقة الأمر متساوون ، وهم جميعا أمام الله سواسية كأسنان المشط ، وهم يتفاضلون فقط فى درجة التقوى : **﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾** (الحجرات : ١٣) .

وفى الحديث الشريف يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[يا أيها الناس : ألا إن ربكم واحد ، وأباكم واحد ، ألا لا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى] [(١)] .

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج٥ ص ٤١١ (المكتب الإسلامى للطباعة والنشر ـ بيروت) انظر أيضا سنن الترمذى ج٤ ص ٣٨٩ ـ طبعة اسطنبول للكتب الستة مجلد ١٤ .

والإسلام يطلب منا أن نحقق وحدة الإنسانية وأن نخرجها من حيز الإمكان إلى حيز الوجود الفعلى ، وأن نتوصل إلى السلام ، بالأخوة فى الإنسانية وفى الخضوع لله .

ومسئوليتنا التعبدية في الإسلام ـ المنبثقة من الهدف الكلى للخلق المتمثل فى العبادة كما تشير إلى ذلك الآية الكريمة :

﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ (الذاريات : ٥٦) ـ

هذه المسئولية التعبدية تعد أيضا مسئولية عالمية تشمل كل المخلوقات، والبشر منهم على وجه الخصوص بوصفهم خلفاء الله فى الأرض مثلنا ، وهم بذلك إخوة لنا .

(ب) حرية الإنسان ومصيره :

يشير القرآن الكريم إلى أننا لا نستطيع أن نجبر أحدا من الناس على الإيمان بالله ، فقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يترك ذلك لإرادتهم الحرة.

وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا ـ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ ﴾ (يونس : ٩٩) .

وفى موضع آخر يقول القرآن الكريم :

﴿ فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ﴾ (الكهف : ٢٩) .

ولكن حرية الإنسان ليست حرية مطلقة . فالإنسان يستطيع أن يختار بين الخضوع لإرادة الله الذى خلقه أو البحث لنفسه عن أرباب آخرين . وفى هذه الحالة الأخيرة يكون مصيره الضياع والخسران . أما كون حرية الإنسان ليست بالحرية المطلقة فإن ذلك يرجع إلى أنها محددة عن طريق إرادة الله ، ولكن هذا التحديد لا يعنى إلغاءها ، فإرادة الله ذاتها هى التى جعلتها حرة .

حقا يقول القرآن الكريم :

﴿ كلا إنه تذكرة ، فمن شاء ذكره ، وما يذكرون إلا أن يشاء الله ﴾ (المدثر : ٥٤-٥٦) .

ولكن هناك بعض الإشارات التى تدلنا على كيفية فهم ذلك ، فهو سبحانه كما تقول تكملة الآية السابقة :

﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ (المدثر : ٥٦) .

فالله يطلب منا أن نخشاه وأن نتقيه وأن نمتثل لإرادته ، ولكنه فى الوقت نفسه هو الغفور الرحيم الذى بيده غفران الذنوب جميعا ما عدا الشرك :

﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ (النساء: ٤٨ ، ١١٦) .

ومن ذلك يتضح لنا أن الله سيتجه بغفرانه وعفوه إلى من يتجه إليه ويلجأ إليه :

﴿ ادعونى استجب لكم ﴾ (غافر : ٦٠) .

﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ (البقرة : ١٨٦) .

أما من يتجه بكليته إلى هذا العالم المادى ويسلم قياده إليه ، ويعرض عن التوجه إلى الله ، فإنه بعمله هذا يكون قد حدد مصيره بنفسه :

﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى. قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ (طه : ١٢٤-١٢٦) .

وإذا كان هذا هو مصير من اتجه إلى غير الله ، فإن للمؤمن مصيرا مختلفا ، لأنه يدرك بنور إيمانه وبصيرته ما لا يدركه الجاحد . فالمؤمن يدرك أن أصله الحقيقى لا يكمن فى تجميع تصادفى أو عشوائى لأية خلايا ، فهذه الخلايا ذاتها لا تستطيع بذاتها أن تخلق ذاتها ، فضلا عن أن تقوم بمثل هذا العمل التجميعى .

والله وحده هو الذى خلقنا ، وخلق كل شىء ، وقدره تقديرا ، وهو الذى يحفظ حياة كل حى ، إنه سبحانه ذو القدرة المطلقة التى يخضع لها كل شىء فى السموات والأرض ، والتى يتجه إليها الإنسان عندما تحيط به النوائب . ومن أجل ذلك فلا بد أن يكون مسئولا أمامها عن كل أعماله .

ويدرك المؤمن كذلك أن عالم المادة ــ الذى يمكن إرجاعه أيضا إلى الطاقة طبقا لأحدث النتائج التى توصل إليها علماء الطبيعة ــ لا يشكل الواقع الحقيقى . ومن أجل ذلك يدرك المؤمن أيضا أن الصراع من أجل أشياء هذا العالم المادى ــ هذا الصراع الذى يؤلب الناس ضد بعضهم بعضا ويجعلهم متعادين ــ يعد صراعا انتحاريا . فنحن ندمر أنفسنا إذا أخذنا أشياء هذا العالم المادى على أنها الهدف الأخير .

وبدلا من أن نخسر ذاتنا فى هذا العالم ، ونبيع له أنفسنا لنصبح مستعبدين لأشيائه ينبغى علينا ــ على العكس من ذلك ــ أن نبيع هذا العالم الأرضى فى سبيل العالم الآخر . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ﴾ (النساء: ٧٤) .

وهكذا نرى أن الجهاد فى سبيل الله هو فقط لهؤلاء الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة . فهناك إذن طريقان فحسب أمام الإنسان : طريق الخير وطريق

الشر. فإذا لم نجاهد فى سبيل الله فنحن نجاهد فى سبيل الشر (*) وهذا ما تعبر عنه الآية الكريمة فى وضوح تام فى قوله تعالى :

﴿ الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ﴾ (النساء : ٧٦) .

ولكن إذا قلنا إن هذا العالم لا ينطوى على شىء يمكن اعتباره هدفا نهائيا، فليس معنى ذلك أن الإسلام يحتقر هذا العالم . فالأمر على العكس من ذلك تماما . فهذا العالم الذى خلقه الله وأنعم به علينا هو مجال التزاماتنا ، وهو مسئوليتنا ، فطريقنا إلى الله يمر عبر هذا العالم .

أما الصياغة الإسلامية للمسئولية الذاتية ، وللمصير الذاتى للإنسان فتعبر عنها الآية الكريمة :

﴿ فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك ﴾ (النساء : ٨٤) .

فالإنسان مطلوب منه أن يجاهد فى سبيل الله ، وهو فى ذلك لا يتحمل إلا مسئولية عمله . ويدخل ضمن هذه المسئولية الذاتية وهذا المصير الذاتى للإنسان اعتبار الآخر صنوا لنا ، نحب له ما نحب لأنفسنا ، ونكره له ما نكره لأنفسنا،

(*) لا يجوز أن يفهم الجهاد هنا فهما ضيقا يقتصر على حمل السلاح الذى هدفه رد العدوان. فالمسلمون ــ طبقا لتعاليم الإسلام ــ لا يحملون السلاح إلا إذا فرض عليهم القتال مع كراهيتهم له :**﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم ﴾** (البقرة : ٢١٦) .

إن الجهاد فى التصور الإسلامى يشمل جميع مناحى الحياة ، ويشمل تصرفات الإنسان نحو نفسه ونحو خالقه ونحو الناس جميعا . ومن هنا يعد القتال بمعنى حمل السلاح جهادا أصغر ويعد جهاد النفس جهادا أكبر . وفضلا عن ذلك نجد القرآن الكريم فى كثير من الآيات يقرن الجهاد بالمال بالجهاد بالنفس ، بل ويقدم فى بعض الآيات الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس .

طالما كان هذا الآخر مشاركا لنا فى الجهاد فى سبيل الله ومن أجل خير هذا العالم . ولهذا يقول النبى صلى الله عليه وسلم :

[لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه] (1) .

(ج) الإيمان والمسئولية

إن المؤمن الذى يبحث لنفسه عن السبيل إلى ترسيخ عقيدته وتعميقها والحفاظ عليها باستمرار ينبغى عليه أن يفعل الشىء ذاته بالنسبة لإخوانه فى العقيدة . ومن هنا تتضح مسئولية الذين وهبهم الله العلم والمعرفة فى تبصير غيرهم ، وتنوير طريقهم . والإسلام من أجل ذلك يقارن جهود العلماء بدماء الشهداء ، فقد ورد فى حديث شريف :

[يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء] (2) .

وهذا الموقف الذى يتخذه الإسلام إزاء العمل العلمى لا يفهم إلا إذا أدرك المرء أن العلم فى الإسلام يجب أن يكون مرتبطا ارتباطا وثيقا باستمرار بالاستعداد الحقيقى لتحمل مسئولياته .

والملاحظ فى عالم اليوم الذى وصل فيه التقدم العلمى إلى درجة مذهلة ـ أن غياب المسئولية الأخلاقية فى مجالات العلوم والتكنولوجيا وفى التقدم بصفة عامة ـ يؤدى إلى أخطار عظيمة تهدد البشرية كلها بالدمار .

---

(1) رواه مسلم فى صحيحه ج1 ص 67 (انظر الكتب الستة مجلد 4 طبعة اسطنبول) .

(2) راجع : جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ص 37 ـ المكتبة السلفية بالمدينة المنورة (1968) . وقد رواه ابن الجوزى فى كتاب العلل (راجع فيض القدير مجلد 6 ص 466 ـ دار المعرفة ـ بيروت 1972) .

وفى تاريخ حياة العلماء المسلمين ــ سواء كانوا علماء فى الدين أو فى الفلسفة أو فى الرياضيات أو فى الطب ، أو فى أى مجال آخر من مجالات العلوم ــ يرى المرء أنهم كانوا دائما حريصين على التوقف عن أعمالهم عندما يحين وقت الصلاة ليقوموا بأدائها حتى يظلوا فى صلة دائمة مع الله تذكرهم بمسئولياتهم الملقاة على عاتقهم ، فالعلم ينبغى أن يكون مرتبطا على الدوام بالأخلاق . والعقيدة والأخلاق متلازمان لا انفصام بينهما ، ويشكلان وجهين لعملة واحدة .

وقد لخص النبى صلى الله عليه وسلم رسالته كلها فى عبارة جامعة حين قال : [**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**] (١) .

ومن هذا المنطلق يعد الموقف اللا أخلاقى أو الإلحادى لبعض العلماء فى العصر الحديث ، والذى أنتج عالما يسوده الرعب والفزع ــ يعد موقفا مرفوضا من العالم المسلم . والمطلوب من العالم المسلم ــ على عكس الموقف المشار إليه ــ هو أن يوجه جهوده العلمية نحو السعى فى نشر السلام فى العالم باعتبار ذلك غاية نهائية لهذه الجهود العلمية ، ويتحقق ذلك بالجهاد فى سبيل الله ضد نفسه وضد الظلم ، وبعبارة أخرى يتحقق ذلك بالجهادين : الأصغر والأكبر .

ومن ذلك يتضح لنا أن الإسلام لا يعنى رفضا لهذا العالم أو تخليا عنه . فالاتجاه المطلق إلى الله والتسبيح المستمر والتقديس الدائم من الأمور التى تختص بها الملائكة . أما الإنسان فإنه مطلوب منه أن يسلم نفسه لله ، ومن ناحية أخرى مطلوب منه أيضا أن يمارس وظيفته فى هذا العالم بوصفه خليفة الله فى

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الأدب المفرد .

الأرض . ومن أجل ذلك أصبح متفوقا على الملائكة الذين طلب الله منهم لذلك أن يسجدوا لآدم . (البقرة : ٣٤) .

والناس جميعا ــ بالنسبة للمسلم الملتزم بعقيدته ــ يعدون إخوة بصفة أساسية ، غير أن المنافقين والكافرين قد عزلوا أنفسهم بأنفسهم من هذه الأخوة. فقد خلق الله الناس شعوبا وقبائل ليتعارفوا ، أى لكى يحاول كل منهم أن يفهم الآخر ويحترمه ، والفرق الوحيد الذى له اعتباره فى هذا الصدد يتمثل فى درجة التقوى . فأفضل الناس لدى الله هو أكثرهم عدلا وأكثرهم صلاحا ،أى أتقاهم (الحجرات : ١٣) .

والإيمان الشكلى لا يدخل صاحبه فى عداد المؤمنين الحقيقيين . ومن هنا يقول القرآن الكريم فى شأن هؤلاء الشكليين :

﴿ قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان ى قلوبكم ﴾ . (الحجرات : ١٤) .

فعلامات الإيمان الحق هى تلك التى وردت فى سورة البقرة فى قوله تعالى :

﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون : كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ . (البقرة : ٢٨٥) .

وأعمال الإنسان لا تذهب سدى ، فالله سبحانه يعلم كل شىء . وكل أعمال الإنسان مسجلة له أو عليه ، ونتيجة هذه الأعمال تعود على صاحبها فى نهاية الأمر إن خيرا فخير وإن شرا فشر :

﴿ من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾ . (الجاثية : ١٥ ، الإسراء : ١٣ــ١٥ ، وفصلت : ٤٦) .

والسؤال الملح فى هذا المقام هو : كيف يجد المؤمن طريقه فى عالمنا المعاصر؟ وكيف يتحمل مسئوليته العالمية المعاصرة فى عالم توجه إليه فيه من شتى الجوانب مطالب والتزامات مختلفة أشد الاختلاف ؟

لقد جاء القرآن الكريم ليبين للمؤمنين الطريق المستقيم ، ويوجههم إلى سبيل الهدى والرشاد ، فهو رحمة وشفاء ، كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ . (الإسراء :٨٢) .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن معيار التفاضل بين الناس يتمثل فى درجة التقوى . وتتمثل هذه التقوى فى أن يتجه المؤمن إلى عبادة الله الذى خلقه ، وأن يرجو غفرانه ورحمته ، وأن يتجه إليه بالتوبة ، وأن يدعوه ويلجأ إليه فى كل وقت . فالله دائما على استعداد لأن يجيب دعاء من يدعوه .

وفى هذا الصدد يقول القرآن الكريم على لسان صالح عليه السلام :

﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب ﴾ . (هود :٦١).

وحياة المؤمن كلها ينبغى أن تكون عبادة متواصلة وذكرا مستمرا لله فذلك هو طريق الفلاح :

﴿ واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾ . (الجمعة : ١٠) .

ومن هنا يعطى الإسلام للممارسة العملية للعقيدة فى حياة الناس ومعاملاتهم اليومية نفس الأهمية التى يعطيها للأسس الخمسة التى يقوم عليها الإسلام وهى الشهادة وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج إلى بيت الله الحرام .

ويؤكد القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى :

﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ﴾ .(الأنعام :١٦٢) .

وهكذا لا يجوز قصر مفهوم العبادة فى الإسلام على المعنى الضيق الذى يعنى أداء الشعائر الدينية المعروفة . فكل عمل يقوم به المسلم فى حياته اليومية ــ دينيا كان هذا العمل أم دنيويا ــ يعد عبادة طالما قصد به وجه الله تعالى والقيام بحق الناس استجابة لطلب الله تعالى بإصلاح الأرض ومنع الفساد .

ومن هذا المنطلق نجد الإسلام يحث المسلم على الانتشار فى الأرض والعمل ابتغاء وجه الله حتى فى يوم الجمعة ، تقديرا من الإسلام لقيمة العمل الذى لا تقوم الحياة إلا به .

يقول القرآن الكريم فى ذلك :

﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ .

(الجمعة : ١٠) .

وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يتحامل على الناس فسأل عنه فقيل هذا عابدنا . فقال عليه السلام: ومن يؤكله ؟ قالوا : كلنا يؤكله . فقال عليه السلام : **[كلكم خير منه]** [(١)] .

(د) دوائر المسئولية :

ومن خلال موقف التقوى هذا يتجه المؤمن إلى هذا العالم ، ويحاول كل فرد فى موقعه بوصفه خليفة الله فى الأرض ــ أن يسلك سلوكا مسئولا معتمدا فى ذلك على ثقته الكاملة فى الهداية الإلهية الرحيمة .

وما يمكن أن يطلق عليه الدائرة المركزية للمسئولية أو المحور الذى تدور عليه المسئولية يتمثل فى المسئولية الذاتية .

---

(١) راجع : معالم الثقافة الإسلامية للدكتور / عبد الكريم العثمان ص١٤٩ مؤسسة الرسالة ١٩٧٢ .

ولكن الإسلام لا يطلب من المسلم ما هو فوق طاقته . وفى ذلك يقول القــرآن الكريم :

﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ . (البقـرة : ٢٨٦) .

وفى حديث شريف يتحدث النبى صلىالله عليه وسلم عن مسئوليتنا عن كل ما نملكه ماديا وأدبيا . فقد روى الترمذى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

[لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمـس : عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وماله من أيـن اكتسـبه وفيـم أنفقه ، وماذا عمل فيما علم] [1] .

والإنسان لا يستطيع تحمل مسئوليته تجاه الآخرين وتجاه العالم بصفة عامة إلا إذا تحمل مسئوليته الذاتية بطريقة سليمة . والتزامات الإنسان تجاه المجتمـع الإنسانى ليست التزامات مفروضة عليه من الخارج وإنما هى التزامات مرتبطـة أشد الارتباط بوجوده الإنسانى .

وكل إنسان سليم العقل يشعر بأنه لو لم يتحمل مسئوليته تجاه الآخرين فإنه لا يجوز له أن ينتظر من الآخرين أن يتحملوا بالنسبة له أية مسئولية . فلو لـم أعدل فى حق الآخرين فإنه لا يجوز لى أن أنتظر منهم أن يعدلوا فـى حقـى . والإنسان الذى يتنكر لالتزاماته الأخلاقية تجاه الآخرين هو إنسان يعزل نفسه عن المشاركة الإنسانية . ونظرا إلى أن الإنسان بطبيعته كائن اجتماعى محتاج إلـى المجتمع الإنساني فإن هذه الحالة بالنسبة له تعد أمرا مميتا . ولهذا يـبدو أمرا

---

(١) انظر سنن الترمذى ج٤ ص٦١٢ . (الكتب الستة ــ مجلد ١٤ ــ طبعة اسطنبول) .

غريبا وموقفا متناقضا عندما يتنكر المرء لهذه المسئولية ويحاول التهرب منها [1] .

وهكذا لا يجوز بأى حال من الأحوال أن يتجاهل المرء أو يتجاوز حقوق الآخرين وما لهم عليه من التزامات . وفى بعض المواقف يتوجب على المرء أن يشهد على نفسه لصالح غيره حتى يكون عادلا أمام الله . ويعبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله :

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين و الأقربين ﴾ . (النساء : ١٣٥) .

وقد تحدث النبى صلى الله عليه وسلم عن دوائر المسئولية فقال :

[كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته] [2] .

والقرآن الكريم يربط ربطا واضحا لا لبس فيه ولا غموض بين المسئولية الذاتية والمسئولية العالمية فى قوله تعالى :

﴿ من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ﴾ . (المائدة: ٣٢) .

(١) انظر كتابنا : مقدمة فى علم الأخلاق ص٤٠ .

(٢) صحيح البخارى ج١ ص٢١٥ .(الكتب الستة ــ مجلد ١ ــ طبعة اسطنبول) .

وهنا تتساوى القيمة المطلقة لأى إنسان مع قيمـــة البشـــرية كلـــها ، لأن الإنسان من حيث هو إنسان بالنسبة للمؤمن يعد خليفة لله . فالله قد نفخ من روحه كما يقول القرآن الكريم :

﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾ . (الحجر : ٢٩).

وإذا لم أعرف ذاتى فى نفسى على حقيقتها ــ والتى لا تتمثل بأى حال مـــن الأحوال فى الجانب المادى ــ فـــإننى لـــن أســـتطيع أن أعـــرف الـــذات فـــى الآخرين ، بل سيكونون بالنسبة لى وجودا ماديا . وفى ظل هذه الظروف يكون المرء فى صراعه مع الآخرين حول ماديات الحياة مستعدا لإزاحتهم من طريقـه بتدمير حياتهم .

أما إذا سلك المرء سلوكا مسئولا مسئولية ذاتية فإنه سيسلك فى الوقت ذاتــه سلوكا مسئولا مسئولية عالمية . فكلاهما مرتبط بالآخر وكلاهما مكمل للآخر .

ومن ذلك يتضح أن موقف المؤمن لا يتفق مع المواقف السلبية . فليس يكفى أن يعمل الإنسان الخير أو أن يمتنع عن فعل الشر ، بل يجب أن يكون له موقف إيجابى تجاه الظلم . فلا يجوز لنا أن نسكت عندما نرى الظلم يقع على إنسان أو حيوان أو نبات أو جماد ، بل يجب علينا أن نســـاعد المضطهدين والمظلوميـــن ــ وما أكثرهم فى عالم اليوم ــ وذلك بقدر ما نستطيع وأن نحاول إنقـــاذ مـــن وقعوا فى محنة أو من حلت بهم كارثة . ومن أجل ذلك يقول النبى صلـــى الله عليه وسلم :

[من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فـــإن لـــم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان] [١] .

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه ج١ ص ٦٩ (الكتب الستة ــ مجلد ٤ ــ اسطنبول) .

ويقول أيضا :

[انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، قيل : كيف أنصره ظالمــــا ؟ قــال : تحجزه عن الظلم ، فإن ذلك نصره] [١] .

والمطلوب منا ، إذا أردنا ألا نكون من الخاسرين ، هو أن نتحلى بالإيمــان والسلوك القويم ، وأن نتواصى جميعا بالحق والصبر. وفي ذلك جاءت ســـورة العصر تضع أمامنا هذه الحقائق لتكون دستور حياتنا ودليل سلوكنا:

﴿ والعصر . إن الإنسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملــوا الصالحــات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ (العصر : ١-٣) .

وقد كان الرجلان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا التقيا لــم يفترقا إلا بعد أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها ، ثــم يســلم أحدهما على الآخر .

وقد ورد عن الإمام الشافعي قوله : **" لـــو تدبــر النـــاس هــذه الســورة لوسعتهم "** [٢] .

فما هو هذا الحق ؟ وما هو هذا الصبر؟ لقد تكفلت آيات القرآن بتوضيـــح المقصود من ذلك في مواضع كثيرة نكتفي منها هنا بموضعين اثنين فقط كمثــال لما نود الإشارة إليه .

فقد جاء في سورة الكهف بصدد الحق قوله تعالى :

﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ (الكهف : ٢٩) .

---

(١) رواه البخاري والترمذي وأحمد (انظر فيض القدير ج٢ ص ٥٨ دار المعرفة بيروت ١٩٧٢) .

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٤ ص ٥٤٧ ــ دار المعرفة بيروت ١٩٦٩ .

وجاء فى سورة النحل بصدد الصبر قوله تعالى :

﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ (النحل : ١٢٧ـ١٢٨) .

ويمكن فهم السلوك العالمى المسئول على خير وجه إذا نظرنا إلى الناس جميعا فى عالم اليوم بوصفهم جماعة واحدة تستقل سفينة واحدة تمخر بهم عباب البحر، فمصيرهم مشترك .

ومن أجل ذلك يجب عليهم أن يتفادوا أى خلل يمكن أن يتسبب فى إعطاب السفينة وإغراقها . وقد صور النبى صلى الله عليه وسلم مثل هذه الحالة تصويرا رائعا حين قال :

[مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا] [١] .

---

(١) صحيح البخارى ج١ ص ٦٩ (الكتب الستة ــ مجلد ٤ ــ اسطنبول) .



قائمة بأهم الأعمال العلمية للمؤلف

أولاً : مؤلفات بالعربية :

دار المعارف بالقاهرة:

١ ــ تمهيد للفلسفة (الطبعة الخامسة) ١٩٩٤م

٢ ــ المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت (الطبعة الرابعة) ١٩٩٧

٣ ــ الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى ١٩٩٧

٤ ــ الدين والفلسفة والتنوير (سلسلة اقرأ)

٥ ــ الدين والحضارة (سلسلة اقرأ)

٦ ــ الإسلام فى مواجهة حملات التشكيك (سلسلة اقرأ)

دار الفكر العربى:

٧ ــ دراسات فى الفلسفة الحديثة

٨ ــ مدخل إلى الفكر الفلسفى (مترجم عن الألمانية)

٩ ــ مقدمة فى علم الأخلاق

١٠ــ الإسلام فى مرآة الفكر الغربى

مكتبة الشروق:

١١ــ الإسلام فى عصر العولمة

١٢ــ الحضارة فريضة إسلامية

١٣ــ هموم الأمة الإسلامية ــ دار الرشاد ومكتبة الأسرة

١٤ــ ثلاث رسائل فى المعرفة للإمام الغزالى (تحقيق ودراسة) مكتبة الأزهر ١٩٧٩م .

١٥ــ الإسلام فى تصورات الغرب ــ مكتبة وهبة

١٦ــ مقدمة فى الفلسفة الإسلامية ــ المعهد العالى للدراسات الإسلامية

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية:

١٧ــ الإسلام والغرب

١٨ــ الإسلام وقضايا العصر

١٩ــ من أعلام الفكر الإسلامى الحديث

٢٠ــ الإسلام وقضايا الإنسان

٢١ــ الإنسان فى التصور الإسلامى

٢٢ــ قيم منسية

٢٣ــ الإسلام وقضايا الحوار

ثانياً : مؤلفات باللغات الأجنبية :

١ ــ فى اللغة الألمانية :

ثلاثة كتب هى : فلسفة الغزالى مع مقارنتها بفلسفة ديكارت ، مدخل إلى الإسلام ، قضايا حول الإسلام . وذلك بالإضافة إلى اثنى عشر بحثاً منشورة فى ألمانيا والنمسا .

٢ ــ فى اللغة الإنجليزية :

ترجمة لكتاب : الإسلام فى مواجهة حملات التشكيك ، ثلاثة بحوث مترجمة إلى الإنجليزية منشورة فى القاهرة وبرمنجهام (إنجلترا) والنمسا وهى على التوالى : دور الإسلام فى تطور الفكر الفلسفى ، الصلات الثقافية بين العالم الإسلامى والغرب ، السلام فى نظر الإسلام .

٣ ــ فى اللغات الفرنسية والروسية والتايلاندية والقازاقية :

ترجمة لكتاب : الإسلام فى مواجهة حملات التشكيك .

٤ ــ فى اللغتين التركية والإندونيسية :

ترجمة لكتاب : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى

٥ ــ فى اللغة البوسنية :

ترجمة لكتاب : فلسفة الغزالى مع مقارنتها بفلسفة ديكارت

٦ ــ فى لغات أخرى :

وبالإضافة إلى ذلك تم ترجمة بعض البحوث التى ألقيت فى بعض المؤتمرات فى أوروبا إلى الفرنسية والأسبانية والإيطالية والأوردية ، وهى على التوالى : قضية الحوار بين الأديان السماوية الثلاثة ، إسهام الإسلام فى صنع ثقافة السلام ، التوحيد والنزاع فى نظر الإسلام ، السلام فى نظر الإسلام .

ثالثاً : مساهمات فى أعمال علمية أخرى :

ترجمة كتاب : بوخينسكى : مدخل إلى الفكر الفلسفى من الألمانية إلى العربية (دار الفكر العربى) .

والاشتراك فى ترجمة كتاب بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ، إلى اللغة العربية . ومراجعة على النص الألمانى لترجمة د . إمام عبد الفتاح إمام للجزء الخاص بالعالم الشرقى من كتاب : فلسفة التاريخ لهيجل .



المحتـــويـــات

رقم الإيداع ١٧٤١٢ / ٢٠٠٢
I.S.B.N 977-205-129-x

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر